انتظرتك
ولكن...!
رواية

الطبعة الأولى 1443هـ - 2021 م
-ISBN: 978-9931-13-243- 1
(الإيداع القانوني:2021/11

اسم العمـــــل: انتظرتك ولكـن..
اسم المؤلـــف: لعماري صبرينـة
إخـــــــراج: أحمد منصـــوري
المدير العـام / سميرة منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبـوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكترونـي: www.elmmothakef.com
هاتـف / فاكس 033 80 47 79 / 0770 68 04 19
واتساب/0675 49 73 86
مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر.
©

لعماري صبرينة

انتظرتك ولكن...!

روايـــة

المثقف
للنشر والتوزيع

إهـــــــــداء

إلى أشباهي التّـــــسعة والثلاثين..

❋ ❋ ❋

إلـــــى...

نقـاء وتمـرّد الياسـمين، وغـرور النّرجـس، ومسـاحة الحـبّ التـي يرسـلها اللاّفنـدر علـى الدروب

طمأنينة النّجوم، جمال الكواكب، مجرّات العشق والنّصف الثّاني للقمر

مشرق الشّمس وهدنة اللّيل وساعة الفجر

النّسمة والبحر في السّكينة والضّجر

الدّعـــاء وساعة الاستجابة

الجنّة والرّضا المنتظر

الأحلام والرّؤى

الحـبّ والحنـان، التّواضـع والصّـدق، الرّفـق واللّيـن، الإحسـان والرّحمـة، البـرّ، النّـــقاء والوفاء

إلـــــى...

دمعة اللّقاء ولحظات العناق ووداد العتاب ووعود الشّتاء.

أجمل القصـائد

براءة الطّـفولة

النّدرة والجمال والحياة

الأم دون سواها من البشر.

سلامـــي إلـــــــى:

ضحايا الوفاء المفرط، المهتمين بأدقّ التّفاصيل

الذين يحبّون فينا ما لا نراه في أنفسنا

من يبدؤون كلامهم بالمودّة رغم ما في قلوبهم من قهر

الذين يعرفون النكران والخذلان ولا يمارسونه.

خذلهم الحبّ ولا يزالون يؤمنون به

فاقديه لكنّهم يقدّمونه

المتعبين من تقلّبات المشاعر.

ولا سلام علـــــــى..

الّذين تركونا بمنتصف الطّريق

مغتالي الحبّ ومنافقيه

الخائنون حقًّا

المستمتعون بالإيذاء

من قتلوا ما تبقّى فينا من الثّقة

إلى ما مضى..

◆المقدّمـــــــــة

لن يختار أحد الموت معك، عليك تقبّل الحقيقة...

استغرق الأمر أشهرا قليلة حتّى أصبحت عناوين الصحف والأخبار واحدة حين ارتدت جلّ الكرة الأرضيّة قناعا واقيا بعد إصابتها بوباء أرعب العالم "فيروس كورونا" الذي أثبت أنه ديمقراطيّ بامتياز، هذا الأخير أثار جدلا واسعا ولم يفرّق بين أحد، استطاع المساواة بين الكلّ وقدّم حربا بيولوجيّة عجزت أقوى الدول عن التحكّم فيها، باءت كلّ محاولات القضاء عليه بالفشل وأصبح العديد منهم ينتظر فقدان أعزّ أحبابه ولا أحد في مأمن منه وأصبحت العودة للحياة العاديّة التّي لم تكن تعجب أحدا، أمنية مشتركة.

مساواته بين القويّ والضعيف يشبه قانون الألم بالحياة، الوباء النفسيّ الذي كان ينشره الناس بينهم بالأذى دون أن ينتبه الذي يتسبّب في ذلك بأنّه مريض وكان عليه أن يحجر في غرف الشّعور ليحصل على لقاح الرأفة، ذلك الحجر كان العالم كلّه بحاجة إليه الرأفة عند الاقتراب وعند البعد، الرأفة في الأخذ وفي العطاء، في اختيار الكلمات في المواقف والرّأفة ببعضنا البعض. كفيروس كورونا، الوجع لن يصيبك من عدوّ أو شخص بعيد، ستصاب من الأماكن الصّديقة القريبة.

لكـــــــن..

ماذا لو عدنا قليلا إلى قبل هذه الوقعة العالميّة غير المنتظرة، هل كان يحسّ العالم بحصار غزّة ودموع إدلب، حين كان الخطر بعيد عنّا وقريب من الكثير؟

ألا يدركنـا الإحسـاس إلّا عندمـا يطـرق الخـوف بابنـا وعندمـا تنـنّ قلوبنـا ويحاصرنـا الملـل؟

مـاذا عـن أولئـك الذيـن يتوسّـدون الشّـارع؟ أيمارسـون الحجـر فـوق الـرّكام، أم يقتنـون شـيئا لا ينتهـي مـن الطّعـام؟

كلّنا مصابون في الحياة..

فعندمـا تغوص فينـا الأوجـاع يتـوارد البـلاء، تتـرادف علينـا الهمـوم وتتضاعـف، تواجهنـا الحقيقـة بمنجـم هائـل مـن الصفعـات، صدمـات يؤلّـف لهـا الأدب كتـاب كامـل جـلّ صفحاتـه تنصهـر منهـا سـطور الخيبـة والخـذلان.

تجبرنـا تلـك علـى اتّبـاع مذهبهـا، وفـي كلّ سلسـلة مـن التّجـارب نكشـف عـن حقيقـة مسـرحيات يخنقنـا سـتارها، لا نملـك فيهـا العصـا السـحرية للملمـة حطامنا، لنوقـد الأمـل الجديـد وننثـر الرّمـاد علـى الخريـف الـكاذب علـى جنونـه، وعنفـه، وعنـاده، وقسـوته، ليشـرع كلّ جميـل بالانهيـار والرحيـل دون وداع، تـاركا بداخلنـا مسـاحات مشـردة، مناطـق شـبه حيـة تعانـي ضجيـج أيـام طالـت بهـا ليالـي الوجـع، وحيـاة كان نصيبهـا أن تتخـذ الألـم قرينـا، الـذي يعـود بـه الوفـاء فـي كلّ مـرّة لحفـظ عهـد عـدم الاسـتقرار.

أعـرف أنّنـا نمـوت ونحيـا بالأشـياء مـرّة وبالكتابـة عنهـا مـرّات، وأنّ حـروف الواقـع قـد تصيـب بالعجـز لمـا يحتويـه مـن أمانـي معطوبـة، وأفـراح غائبـة، وأيّـام تختـم الطلـب بالرفـض علـى نهايـة كل ورقـة حلـم، مـن كل مـا يوحـي أن حكايـة الدنيـا فـي حلقاتهـا الأخيـرة وأنّ النّهايـة ليسـت أبـدا بدايـة جديـدة إنّمـا هـي نهايـة.

أدرك كذلك أنّ الكلمات لا تساوي الشّعور الذي يلامس أعماق حناجرنا، لأنّ الحروف باتت عاجزة عن التّعبير، و لا تكفي لوصف الكمّ الهائل من الآلام القابعة في أجسادنا، لكن طالما احتوتنا أكثر من أيّ شخص، عانقتنا في ليالي الشّتاء الحزينة وقد نتشارك بها التائهين في منعطفات الحب، فاقديه، قليليّ الأصدقاء الّذين لم تنصفهم الدّنيا، المغتربين، الضّائعين في شوارع الغياب، المحرومين من قبضة اليد المعتادون على قبضة الروح، أولئك الّذين لا يشعر بمعاناتهم أحد، الذين يواسون أنفسهم بأنفسهم، المحبطين، الرّاغبون بالرّحيل من وحشة الحياة وكدرها إلى متسّع من العزلة، الخائفين من خنقة اللّيل وصراع الذكريات.

الحياة لا تكتمل أبدا وكلّ منّا سيقع فريسة بين أنيابها على اختلاف التّضحيات، لنعيش على بقايانا وننقذ ما دفن منا تحت ركام المآسي، لنواصل وجهتنا نركب قاربا أو طائرة، نهرب بعيدا أو إلى أقرب مكان لكن نحو نفس المصير، مصير مجهول نواجه فيه أقدارنا بحثا عن الحياة بسلام ولا أكثر.

فالألم رفيق الدّرب، وسنين الاحتراق فيه تتّسع بقدر ما أطلنا التأمل بها لكنها لعبة الدنيا، قد نشقى من اضطهاد صراعاتها، ونتعب من السّفر في أعماقها، ونملّ من عصيانها للحق، لكن لكل منا فرصة المشاركة في دورتها، قد تأخذ منّا كما أعطت، قد تملأ لنا خزينة الحزن، وتنصب لنا فخ الفرحة، وقد تغتالها لحظة ميلادها، لتكتب تذكار أحداث تقدّم لنا أعذارا تقليدية تماما كتلك التي يستخدمها المتأخرون عن العمل عادة لنلتمس نحن النّسيان، عذرا للهروب من عبء ظلّ يثقل كاهل قلوبنا.

أنـتِ روايـــــة

"يقولون أنّ بعض النهايات في أيدينا لكن..."

ماذا لو ما بالقلب حيلة؟

كتب أحدهم على إحدى صفحات التّواصل الاجتماعي "أوقفوا النّساء عن الكتابة فهنّ يعملن على تدمير ذائقتنا الأدبية بمنشوراتهنّ السّخيفة"

أعتقد أنها ذكوريّة منه، لكنّني عكسه تماما أحبّ قراءة ما تكتبه النّساء بنظري، مشاعرنا تستحقّ أن

تصان حتى لو بين طيات كتاب.

كانت التعليقات صادمة بالنّسبة لي، فلم أتوقع أنها ستكون عادلة إلى هذا الحدّ وفي صف المرأة،

لم أعلّق على ذلك فقد كان شيئا سخيفا حقّا وهذا رأيه أمّا غير ذلك فقد كانت تلك الردود كافية له. ومن جهة أخرى لم أنسَ تلك القاعدة الذهبية أن لا جدال في المسائل الذوقية هو ببساطة عالم الكتب وهو ديمقراطي بما يكفي.

في منشور آخر:

أخبروا تلك الّتي فارقتني منذ عامين وستّة أشهر وثمانيّة أيّام وأربع ساعات، عشرون دقيقة وثانية أنّي نسيتها كان نفس الشّخص، للحظة ظننت أنّه شخص سيء الطّباع وذكوريّ، لكن ما أدركته أنّه مكسور، بدا لي أنّه يحفظ كلّ التفاصيل ومادام يعدّ الدقائق فهو لم ينسَ، لكلّ منّا قصّة كانت كنقطة توقفت عندها الحياة.

الوجع يساوي بين الذّكر والأنثى..

بعد أن قرأت تقييم قرّاء الروايات عن قصص كثيرة قررت العودة للقراءة مرّة أخرى، فقد كنت حينها في تلك المرحلة من حياتي قليلة القراءة، سريعة الملل في تلك المرحلة من اللّامبـــالاة.

ومنـذ أن عـدت للقـراءة وأنـا أسـتمتع.. مـا أسـتطيع قولـه أننـي أحببـت الكثيـر منهـا كروايـة فـي قلبـي أنثـى عبريـة، فقـد لمسـت قلبـي فـي مواطـن عديـدة، لـم أتوقـع بعـض المجريـات، كانـت أكثـر روايـة بكيـت فيهـا فـي ذلـك الوقـت، نظـرا لغرابـة الأحـداث وصعوبـة تحمـل الشّـخصيات لذلـك تسـاءلت جـدّا..

بأيّ قلب كتبت؟؟

كانـت القـراءة الطريـق الـذي عبرتـه للبـدء فـي الكتابـة، فـي الأوّل كانـت أفـكاري مبعثـرة، ومواضيـع كثيـرة، فـي كلّ مـرّة أردت الكتابـة عـن شـيء وجـدت كتّابـا قـد سـبقوني إليـه وكأنّنـا كلنـا كنّـا ضحايـا قطـار الحيـاة باختـلاف محطّـات التضحيـات. وبعـد أن بـدأت فـي كتابـة روايتـي هـذه بكيـت أكثـر مـن كونـي قارئـة، أيقنـت حينهـا لوعـة كلّ كاتـب، وأنّ الكتابـة تحتـاج كذلـك للقلـوب اللّينـة مهمـا كان نـوع القصـة، بيـن الواقـع والخيـال يتعـرض فـي كل سـطر يدوّنـه لنوبـات الأرق، حنيـن، بـكاء ونوبـة عزلـة، يعيـش مـا يكتبـه بـكلّ شـيء، صديـق القلـم مفـرط فـي الإحسـاس، تؤذيـه الكلمـات حيـن يبعثـر رزنامـة أوجاعـه فـي كتـاب، يسـرّب بعضـا مـن حقيقتـه يلقـي بهـا فـي قلـوب تشـعر بـأنّ كلّ حـرف يبـوح بمـا يريـد قولـه.

فقد نكتب عن الحبّ ولا نملك أحبّة

وعن الأمل وقد أصبح من قصصنا المنسيّة

عن الحياة وكلّنا ميّت.

فالذي يكتب يستشعر كل ما حوله فيدوّنه بكلمات.

لـم أخبـر يومـا أحـدا عـن سـوء حالاتـي أو بالأحـرى لـم أجـد يومـا مـن أخبـره بذلـك.

أكتبها اليوم مضيفة إلى سطورها ما مرّ على رودينا، نوع آخر من أنواع الزّهور، هنا لن أخبر أحدا بأيّ قلب كتبتها، علّ من يقرأ، يكتب يوما ليدرك حقيقة الشعور

كلّ ما أستطيع البوح به أنّي خططتها بمجمل حروف الألم، بكيت في جلّ صفحاتها، مرضت في أخرى، اعتزلت، ضاقت بي الحياة وأُصبت بجروح، وذقت السّعادة.. عشت القصّة كاملة.

كتبتها لأصنع لي موضعا بباقة أحسن الروايات، لتفوح بين الرفوف بأزكى العطور.

في كلّ مرة كنت أدوّن فيها هذه الكلمات طالما بحثت في تجارب الآخرين لأثري أفكاري فأنا لا أعرف كلّ ما يمر به كلّ منهم، لكن الذي أدركه جيّدا أنها وإن اختلفت فهي تتضمن تفاصيلا لا يفهمها غيرنا، أحببناها ، تشاركنا فيها لكن لا يشاركنا بها أحد في هذا العالم.

كان مزاجي يتعكّر دائما، كيف أكتب عن الحزن وأنا أحاربه كلّ ما دقّ بابي، كيف أكتب عنه رغم أنّي أتمتّع بهذا الكمّ من الإيجابيّة، لكن الكتّاب ولولا أوجاع الحياة لما ملأت الرفوف أدبا، تساوى هذا الأخير وما تكتمه القلوب، ورغم كلّ هذا تظلّ الكتابة تمقت القسوة.

فهي كالوطن ولطالما أغرتني الحريّة والجنون بداخله، ها أنا أقتحم طرقاته عنوة، غيّرت أولويّاتي وعلّقت به أملا رفيعا.

بقلم واثق، ورجفة يد أليمة تحرشت بالحروف بقدر ما استطعت لأثير النقاط وأستفز الفواصل والنقاط وأضمّ الكلمات لتكون بجانبي.

مفرطيـن فـي الكتابـة نحـن معشـر النّـــساء، تحاصرنـا التفاصيـل، نفـرط كذلـك فـي الصّمـت ووجدنـا الـورق مكانـا آمنـا تترعـرع فيـه أناملنـا حيـن يمزّقنـا الفقـد والحرمـان، العصبيّـة، الخـوف والشـعور بالنقـص، فهـي أوّل خطـوة للتخلّـص مـن الشّـــعور السّلبي.

هكذا نحن، قانتات في الصّمت والهدوء

لكنّنا نكتب بعفوية، تثرثر بأسلوب فاحش في اللّباقة

نثرثر ولا نرتبط بقافية ولا وزن.

كقـرّاء طالمـا كنّـا نستحسـن تلـك الأحاسـيس فـي الكتابـات الحزينـة، كانـت تؤثّـر فينـا مـن شـدة الحبكـة فـي اختيـار كلمـات توصـف تمامـا مـا بخاطرنـا، تأخذنـا إلـى مـا مضـى لترقـص الدمـوع بيـن الجفـون ، لكـن..

القليـل مـن يتسـاءل عـن كميّـة الألـم التـي يعيشـها الكاتـب، أو عـن الـذي دفعـه لكتابـة كلّ هـذا الكـمّ مـن الحـزن والكآبـة التـي تخفيهـا السـطور، وهـل تلـك الكلمـات نتـاج أيّ شـعور؟

ككاتبـة اليـوم، بغـض النّظـر عـن كونـه حقيقيّـا أو مـن وحـي الخيـال أدركـت أنّـه متّصـل بالقلـم، نكتبـه ونعيشـه، الكتابـة بالمختصـر معانـاة.

رودينـا فتـاة دمشـقية، أهملتهـا الحيـاة فعانـت مـن أقسـى الظـروف؛ جعلـت منهـا الإنسـانة المتعقّلـة والناضجـة، القويـة والضعيفـة، الحساسـة، المتفهمـة الواثقـة بنفسـها، قليلـة الثقـة بالعالـم، العميقـة المتهمـة بالطيبـة، الفنّانـة والمثقّفـة، العاديـة وغيـر العاديـة، المثاليـة مـن غيـر ادّعـاء، النّـادرة، تشـبه كلّ مـا هـو جميـل ولا تشـبه أحـد تسـتحق أن تكتـب فـي روايـة.

مـن عائلـة صغيـرة وطينـة تفـوح ياسـمينا مـن سـوريا، أم وأبّ منفصليـن وشـتات بيـن غربـة الـروح وغربـة الوطـن، بيـن سـعادة وشـقاء وطريـق بمسـافات مكلّفـة.

أمـــــا بعـــد..

لا تـزال النظـرة اتّجـاه الأنثـى علـى أنهـا جـزء ثانـويّ، ولا يـزال المجتمـع متمسـكا بعـادات الجاهليـة الأولـى، لازلنـا نعيـش فـي مجتمـع ذكـوري بامتيـاز.

كيـف للأنثـى أن تحمـل اسـم أبيهـا؟ أعتقـد انّـه سـؤال رثّ يحتفـظ بـه بيـن رفـوف الأنانيـة الذكوريـة.

نظـام اجتماعـي تمييـزي لا يسـير علـى منهـج شـرعيّ ولا إنسـانيّ ولا يمكـن فيـه تغييـر الفكـر الغبـيّ للمجتمـع، الـذي يكـون فيـه الـرأي المخالـف للدسـتور الذكوري ممنوعـا، فيحظـر فيـه ردّ الاعتبـار للأنثـى ويطـرد أي شـخص لـه علاقـة بالفكـر المعـارض، وفـي مثـل هـذا السّـياق ينسـاق الحـزب الـذي يعطـي للذكـر الأولويـة نحـو التمييـز واللامسـاواة.

لا يمكـن اسـتئصال عـادات تفـرح بمجـيء الذكـر علـى انّـه وريـث الاسـم، تعاملـه ملـكا وتعامـل الأنثـى أسـيرة تحـت أثـر الفكـر العنصـري.

ظننـت إنّ مثـل هـذا التّفكيـر اندثـر لكـن لازالـت الترسـبات عالقـة فـي خليـط التقاليـد والمقاييـس البشـرية الظالمـة، خليـط يشـكل ارتبـاط مكوّناتـه تصرفـات مسـمومة فـي حـق الأنثـى.

فالمجتمع لا يكفّ عن تبجيل المولود الذّكر، مجتمع قد يأخذ فيه الذكر مقابل البر مقابل، وتبرّ فيه الأنثى دون مقابل، تظلّ تعزف على آلة الإحسان مداعبة أوتار العطاء، أوتار صنعت من برونزات البرّ مقاومة لصدأ العقوق والنّكران.

ويظل الحال كذلك، غلبت خشونة التقاليد وتجلّت في المعاملات المنحازة للذكر .

ليس بيدي أيّ مخلوق ولا شأن للمجتمع في اختيار جنس الأجنة في بطون الأمهات، اللّاتي تلمن لإنجاب البنت، ليتحول الإنجاب جريمة لو كان الجنين مؤنثا، وإحداث الفرق بين الجنسين هو وليد غباء لا دين له، توارثه من لا يعلو أدنى درجات الوعي والإيمان ولا مقياس له في الإنسانية، وثقافة كهذه لا تستطيع تجاوز منعرجات الجهل.

***

في صباح يوم شتويّ..

انخفضت درجة الحرارة إلى بضع درجات، حينما غادرت البيت كان الظلام لا يزال مخيّما، استقلت الحافلة متوجهة نحو الجامعة، عادة تكتظّ حافلات النقل في مثل هذه الأيام فيصبح اغتنام القليل من الدفء محصور بين محطة انطلاق وأخرى للوصول.

صعدت بعد أن تدافع النّاس في كتلة واحدة ليركبوا الحافلة، انفردت بالجلوس في مقعد خلفيّ، بأنامل مرتجفة مسحت على زجاج النّافذة لتزيح البخار لتصنع مساحة كانت تحجب عنها الرؤية، يا له من فصل يليق بكشف ما

تخفيه القلوب، كان يتملّكها الشعور بالحزن خصوصا وقد كانت تستحضر كلّ شيء مرّ عليها، شيئا فشيئا تشرد في تفاصيل الطريق.

في لحظة النّزول، ازدحام وسيارات متراكمة أمام موقف الحافلة، تسير بخطى مسرعة لتخرج من هذه الفوضى، اجتازت الشارع وراحت تتقدّم على الرّصيف جاهدة لتأخذ استراحة عشر دقائق قبل بداية المحاضرات.

وسط ضجيج الشّوق وتعالي ضحكات الطّلاب تجلس هناك على اليمين مشغولة البال بدت شاحبة الملامح والحزن يكسو عينيها..

مرّت الدقائق كبضع ثوان، حلّ الهدوء بالمدرج ما دلّ على دخول وقت المحاضرة، اكتفى المدرّس بالجلوس في مكانه والشرح بهدوء طوال الوقت كان الأستاذ المحاضر كبيرا في السن، يقرأ الدرس من أوراقه واضعا يده على الطاولة ساندا رأسه يكاد لا يسمع صوته من ارتفاع تمتمات الطلبة ما يصيب بالملل والنعاس، لكن ما يقدمه الأساتذة القدامى دروس لا توجد في الكتب.

في هذه الأثناء تنظر رودينا للسّاعة، لا تزال تشير إلى التّاسعة وخمس دقائق، الوقت يمر ببطء شديد، ما كاد ينتهي حتى بدأ الطلاب بالخروج من المدرج، عندها لاحظ الأستاذ انتهاء ساعتين من التّدريس.

جلست منتظرة المحاضرة القادمة حين بقي بقية الزملاء على مدخل المدرّج، بعد برهة قصيرة عاد الجميع للقاعة بمجرد دخول دكتورة الفنّ التشكيلي تلك، ما هي إلا دقائق وقفت في أسفل القاعة وطلبت من الجميع الانتباه فاختفت الأصوات التي كانت في الساعتين السابقتين لا يستطيع أحد الثرثرة بوجود هكذا امرأة.

"غريب أمر البشر يطيعون القوي خوفا ولا عجب ويأكلون الضعيف استهانة وليس لضمائرهم عتب"

كانت تمر أيّام الدراسة، ينتهي يوم ويأتي آخر وتجاريها رودينا، أمّا بالنسبة للحصص الخاصّة فقد ألغتها رودينا منذ أكثر من ثلاثين يوما تقريبا.

***

عادت للبيت حاملة بين طيّات شفاهها ابتسامة تخفي الكثير وصلت وقد أحسّت بإرهاق شديد، عانقت أمها وقبلتها قبلة على الجبين حضنتها قائلة: يبدو على وجهك التّعب حبيبتي، لابدّ أن ترتاحي، كان زينب تهتم لها كثيرا لذلك أحيانا قد نتخطى قساوة ما يمر بنا بكلمات من أغلى النّاس.

تناولت وجبة ساخنة من الغداء، أصابها دوار فزحفت بجسدها نحو الغرفة وبعدها غرقت في الفراش

كان آخر المساء حين أفاقت، الساعة السادسة وعشر دقائق وكان الجو باردا وممطرا جدّا بالخارج، لم تستطع فعل شيء سوى الجلوس مع أختيها التّوأم تحت الغطاء.

لماذا لم توقظاني فلم انتبه لعودتكما من المدرسة؟ كيف كان يومكما؟

تنظر قمر لشبيهتها وتضحك، أغلقت رودينا عينها بينما الأخرى مفتوحة تنظر لشهد تهز رأسها:

ماذا هناك؟ ما الّذي تفعلانه في المدرسة ؟ مشاغبتان.. ردّدت رودينا.

خاطبتهما شهد بصوت خافت: "أششش، أششش" لا تخبريها ستسمعنا أمي.

ضحكت رودينا قائلة: اجلسا إلى جانبي، أريدكما أن تحكيا لي التفاصيل، متأكدة من براءتكما ممازحة إيّاهم.

استمرَرْن في الضحك وكلا منهما ترويان مشاكساتهما طيلة اليوم وأختهما الكبرى تصغي إليهما وكأنها من عمرهنّ، تكبر مع الكبير وتعود للطفولة مع الصغار، لهذه الدّرجة هي بسيطة وسلسة.

دخلت الأم لتجلس معهن، اقتربت من التلفاز لتشعله، تحمل وسادة، تراجعت بضع خطوات لتستلقي على السرير المقابل واستندت عليها تشاهد إحدى البرامج الاجتماعية وفي منتصف عمر البرنامج سأل صحفيا شابا رجلا يبدو في السّبعين:

من تفضّل بين الابن والابنة؟

فكان رده بصوت خافت: دعني أسألك أنا... وكأنّ السّؤال استفزّه واستفزّها أيضا:

لو تعرّض والدك لنوبة مرضيّة فجأة واتصل في نفس الوقت بك وبأختك، كاذب لو قلت أنّك تصل أوّلا، ستسبقك.

فعلا ستسبقه، تمتمت رودينا.

تظاهرت زينب بعدم التأثّر إلّا أن صراخها عمّ أرجاء الرّوح.

انتابتها غيرة لوجود مثل هكذا أب، في حين تخلى عنهن والدهن وقد كان بهنّ من الزاهدين، عانقت أختيها والدمعة حبيسة بين الجفون.. كانتا في الحادية عشر من العمر، قمر أكبر من شهد بثّلاثة دقائق. الشّقراوتان تشبهان أمّهما لدرجة كبيرة، توأمان حقيقيان تستطيع الوالدة ورودينا تمييزهما بسهولة، مرّت إحدى عشر سنة على طلاق والديها، كبرتا ولا تعرفن والدهنّ سوى بصورة.

تجاهلـت الأمّ زينـب مـا مـرّ بهـا لكنّهـا لـم تعـد كمـا كانـت، تجـاوزت مرحلـة أجهضـت فيهـا أفراحهـا وقبلـت فيهـا جبيـن وارتـه الثّـرى، عـام لا تذكـر فيـه إلا حدثـا واحـدا تتمنـى أن تنسـاه، وضعهـا حائـرة بيـن سـعادة مصطنعـة و كبريـاء قاتـل، تغيـرت ملامحهـا، تجاعيـد بـدأت ترسـى علـى وجههـا وبيـاض فـي الشّـعر تخفيـه بصبغـة، ودواء لكتفيهـا تتناولـه ليـلا بجرعـة خمسـة وعشـرين مليجـرام خيبـة، تتناولـه سـاعة قبـل النـوم علّـه يسـاعدها علـى تخفيـف آلامهـا. بعدمـا أصبحـت أمـا وأبـا لإنـاث ضحايـا أبّ يقـدّس الذكـر، ربمـا سـيكون ذلـك صعـب أو بالأحـرى شـديد الصّعوبـة ولكنّهـا علـى اسـتعداد لمحاربـة العالـم لأجلهـنّ.

تحدّثـت رودينـا قائلـة: أذكـر جيّـدا ذلـك اليـوم الـذي غادرنـا أبـي فيـه أوّل مـرّة، لـم أكـن أدري يـا أمـي أنـه لـن يعـود.

أتعرفيـن رودينـا؟ أجابتهـا بتنهيـدة بعدمـا اسـتذكرت أيامـا مريـرة عاشـتها بجانـب منيـر:

أجبرت على الزواج به كنت رافضة هذا فخذلني أهلي، وكانت تلك النّهاية.

ثـمّ أردفـت فـي حسـرة: كان عامـا غريبـا لـم تهطـل فيـه الأمطـار بغيـر العـادة، لا تسـتطيع الدمـوع تغييـر شـيء

تتحدث وتكاد تفلت منها، فجأة علا صوت آذان العشاء، لم تتماسك فبكت.

ليس مجددا.. ردّدت رودينا وهي تضمّ والدتها.

حنانـك يسـتحق التقديـس وسـحقا لمـن أراد إيـذاءك، مسـحت دموعهـا واسـتعدتا للصـلاة

يـا ربـي.. يـا فـارج الهـمّ ويـا كاشـف الغـم فـرّج همنـا ويسّـر أمرنـا، وارحمنـا كانـت تدعـي دائما.

فعلا، لا تغيّر الدموع شيئا سوى أنها أرهقت كاهل أرواحنا وعصرت قلوبنا وألهبت حدود عيون مرت مجرى لها، لتترك آثار الدّمار فكان نتاج تلك السيول سواد استطاع تضليلها ليظهر ما بالروح من آهات، من هشاشة باتت في كلّ مرّة يساندها ثقل الكتمان.

عندما انتهت من الصلاة، ذهبت لتنظف المطبخ وتزيح طاولة العشاء وجالسة بالقرب منها أمها تكملان حديثاهما:

في الصّباح الأوّل عقب طلاقي من والدك، أحسست أنه أول مرة تسير عقارب الراحة باتجاهي، لم يعد لديّ ذاك الخوف من ذلك القلق كيف سيمرّ اليوم وأيّ مشكلة ستختلقها اليوم، أيّ جزء من جسدي سيكون ضحية اليوم، كيف سأخفي دموعي عن ابنتي، أفتش قناع الاكتفاء وارتدائه بالاهتمام بك

في الصباح الثاني، وجدت في طلوع الشمس شيئا مختلفا، لم أنتبه لذلك منذ سنين وأنها تخبرني أني بجانبك منذ الآن، سأشرق لأضيء ما أنطفأ منك وجدت المنفذ لراحتي، لم أعد أشعر بذاك التّعب، بانسداد الـــرّغبة بالأكل والكثير الكثير.

كنت أتساءل كيف سأحيا ميتة؟

واليوم إحساس أني أمتلك أغلى الهدايا، تأكدت أني على قيد الحياة، سقط اسمي من قائمة تحمل عنوان "امرأة معنّفة."

كل هذا أمّي؟ بصيحة مجنونة ردّدت رودينا : أحبّك، أحبّك أمي.

"لو كان العالم بطيبة الأم ما تأذينا أبدا"

كان كفيـل حـبّ بناتهـا الشـديد لهـا أن يرضـي قلبهـا ويـروي كل يابـس بأعماقهـا فيحييـه مجـدّدا. فإصرارنـا علـى إصـلاح مـا انكسـر منـا بقـرار التخلـي عمّـا يؤذينـا قـد يكسـر كل المعتقـدات الخاطئـة لأننـا اعتدنـا علـى قـول "اللـي انكسـر مـا يتصلّـح"

تربّـت زينـب يتيمـة منـذ عمـر صغيـر والدهـا مـن ريـف إدلـب ووالدتهـا مـن أصـول جزائريّـة، بنـت عبـد القـادر مـن وهـران وسـعاد مـن العاصمـة، مـا تعرفـه أن لقاءهمـا كان فـي فتـرة العشـرية السـوداء حيـث سـافرا وقـد مـرّ علـى زواجهمـا أكثـر مـن سـنة، وتوفيـا فـي حـادث بعـد احـدي عشـر عامـا مـن ذلـك.

تزوجـت زينـب زواجـا تقليديـا برجـل تغـزو خلايـا عقلـه تصرفـات تعسـفية فـي حـق المـرأة، المـرأة بالنسـبة لـه كجاريـة لا حـق لهـا ولا رأي لهـا، فـي السـابعة عشـر مـن عمـر زينـب الفتـاة البنـت الوحيـدة بيـن أربعـة ذكـور يتيمـة الأبويـن، تقـدم شـاب لخطبتهـا، منيـر فـاق الثلاثينـات، فـارق سـن تسـعة عشـر سـنة لـم تعـرف عنـه شـيئا سـوى مـا تتداولـه الأقاويـل، كان شـخصا حسـنا علـى حسـب مـا يقولـون، كان قلبهـا يقـول لا، غيـر راضيـة فهـي ليسـت تفكـر بالـزواج.

لـم يكـن لهـا كلمـة سـوى السّـكوت أمـام قـرار القبـول لأخيهـا الأكبـر أحمـد، لتبـدأ المعيشـة الضنكـة إلـى جانـب رجـل منافـق بامتيـاز.

أحيانـا نتسـاءل مـا بـال بعـض النسـوة قطعـن أجمـل مـا فـي عمرهـن لخدمـة رجـال لا يسـتحقون حتّـى الشّـفقة؟ لكـن قـد يجبـرن علـى عيـش حيـاة لا يرضونهـا.

قـد يكـون التّديـن مـن سـمات الاتّبـاع والتخلّـق ولكـن اعتقـد أحيانـا أن إظهـاره ريـاء، قـد يكـون غلافـا لسـوء الخلـق وقـد نثبـت العكـس غالبـا فإخفـاء معالـم الديـن الشـكلية جوهـره أفعـال تثبـت التديـن الحقيقـيّ، لذلـك قـد يظلـم المـرء فـي مظهـره وعفويتـه وحبـه للحيـاة ويتهـم فـي حيـن قـد يبـرّئ صاحـب المظهـر مـن ذلـك. ليخطـئ بحقـه فليـس مـن الضـروري أبـدا إظهـار التديـن أو حتـى التديـن ذاتـه ليكـون لدينـا نظـام أخلاقـيّ.

السـيد منيـر، والـد رودينـا كان شـخصا متدينـا بمظهـره، تعصبـه كان مشـكلة نفسـية جعلـت مـن الأم زينـب عبـدة لـه، يمـارس فيهـا أشـكال الضـرب والتعنيـف اللفظـي والجسـدي.

بعد سـنة مـن الـزّواج، حملـت زينـب واجتـازت تسـعة أشـهر قاسـية وعنـد وصـول وقـت ولادتهـا الأولـى، أصابهـا مغـص شـديد ولـم يعـر لذلـك أي اهتمـام، كان يخبرهـا وهـي تلتـوى ألمـا:

ما كل هذا؟ كفّي عن الصراخ مشيرا بيديه للأعلى

ما هذه القسوة؟ يا لك من حقير.. تصرخ زينب بعدما خرج منير من البيت.

حاولـت الاتصـال بأهلهـا ولا رصيـد فـي هاتفهـا لترمـي بـه علـى الأرض، فمـن أيـن يأتيهـا رصيـد فلـو كان لـدى زوجهـا رحمـة لمـا نامـت يومـا جائعـة.

سـمعت إحـدى الجـارات صراخهـا فسـارعت نحوهـا بخطـى يسـاعدها علـى إكمالهـا عـكازا، دفعـت البـاب ودخلـت لتجـد زينـب تكيـل الضربـات للمخـدة، تشـد علـى بطنهـا، واقعـة علـى الأرض وجبينهـا يصـبّ عرقـا، كانـت فقـط جارتهـا العجـوز مـن قامـت بنقلهـا إلـى المستشـفى بسـيارة ابنهـا وليـد.

بعد ولادة قيصريـة لـم تستفق الأم زينـب بعد أن نجت بأعجوبـة، كان اختيـار اسم رودينـا مـن جارتهـم بعد أن سـألتها الممرّضـة فأجابتهـا علـى أسـاس أنهـا جدّتهـا وهـي تعـرف أن زينـب يتيمـة الأمّ، وبعـد مضـي وقـت قليـل اسـتفاقت وتحدّثـت إليهـا أم وليـد برفـق قائلـة:

كنـت فـي حالـة سـيئة وسـألتني الممرضـة عـن تسـمية المولـودة فسـميتها بـدلا عنـك "رودينـا"، ابتسـمت وبعـد أن بلّلـت وجههـا بقليـل مـن المـاء، أمسـكتها لتشـكرها علـى وقفتهـا.

بعد أيّـام مـن الـولادة، كيـف تسـنّى لوالدهـا أن يتصـرّف كأنّ شـيئا لـم يكـن وهـل سـبق أن فعـل أب هكـذا بكبـده؟ تمنّـت زينـب لـو فـرح كغيـره بابنته، في المستشـفى كلّ الآبـاء يتلهّفـون لرؤيـة مواليدهـم إلا هـو.

يـوم، اثنـان، ثلاثـة،... وثمانيـة ، كان كلّمـا دخـل منيـر البيـت وكأنّـه فـي حـداد يصـرخ بصـوت عـال:

ما هذا؟

أسكتيها ألا يكفي كارثة أنّها أنثى.

رفعـت طـرف الغطـاء علـى ابنتهـا وأخـذت تضمّهـا إليهـا، إلـى أن توقّفـت عـن البـكاء متمتمـة:

كلّ شـيء سـيكون بخيـر بنيّتـي، ببسـمة هادئـة وسـعادة مجهضـة تنظـر إلـى ابنتهـا نائمـة وتشـم رائحتهـا العطـرة وقبـل أن تخطـو خطـوة واحـدة خـارج الغرفـة دخـل منيـر ينظـر إليهـا وتأفّـف فـي وجههـا وعمرهـا لا يتجـاوز نصـف شـهر، مـع ذلـك فـي كلّ مـرّة كانـت زينـت تبتلـع ريقهـا وتصمـت، لا تسـتطيع الـردّ فلـو تتكلّـم سـتضرب وتشـتم فقـد كان يفتعـل ذلـك عمـدا ولتجنّـب مشـاكله كانـت تتحمّـل.

انتظرت خروجه واقتربت من رضيعتها برفق، نظرات عينيها الّتي تطلّعت بهما إليها كانتا تمتلآن شفقة. قبّلت رأسها بحنان:

اللـه يحميك ويكرمك حبيبتي وأشوفك أحلى بنت بالدنيا، إن لم يحبّك والدك ففي قلبي لك حبّ العالم

"تستحقّين حبّ العالم" تمتمت ثمّ شردت وهي تتمنّى أنّها لو كانت الآن بين أحضان والدها فهي لا تعرف عن الحياة سوى وجودها بين ذراعين يغمرانها حبّا.

انهمكت زينب في ترتيب بعض الأغراض وهي جالسة على الكرسيّ، تتنقّل به من زاوية لأخرى فهي لا تزال متعبة وواجب عليها إتمام ما بالبيت من أشغال لوحدها، وبينما هي تقترب من إنهاء ما بيدها، حرّكت الصغيرة رأسها، فتحت عينيها ورسمت على شفتيها بسمة شقيّة، اندفعت الأمّ نحوها وأخذت تداعب شفتيها وتلاعب يديها الصغيرتين.

خمس أعوام بعـــــــد..

بابا، بابا.. تناديه فور عودته من عمله، ارتجفت وتجمّدت في مكانها بعد أن صرخ عليها:

نعم؟؟

فزعت من صوته العالي، ركضت نحو أمّها وبدأت بالبكاء، حاولت تهدئتها بضمّها مطوّلا، أخذت تلاعبها كي تنسيها ما فعله والدها.

تنهدت في سخط: يا ربّي.. ما هذا الرّجل؟؟

اغرورقـت عيناهـا بالدّمـوع، لا تريـد أن يظهـر مـا بمنيـر مـن قسـوة، تحـاول إبعادهـا عـن كـره أبيهـا بتجاهـل أفعالـه.

فـي عمـر العاشـرة، بينمـا كانـت رودينـا تتفـرّج علـى رسـوم متحرّكـة فـي إحـدى القنـوات الخاصّـة، يجلـس هنـاك منيـر يـأكل شـيئا، بلحظـات اختنـق بلقمـة مـن الطعـام، حينهـا أحـدث صوتـا يبحـث عـن كـوب مـاء، لاحظـت رودينـا ذلـك فأسـرعت تسـكب لـه كـوب المـاء، شـربه وتنهّـد، ثـم عـادت لتجلـس لإكمـال الرّسـوم ووالدهـا يحـدّق بهـا. كانـت طفلـة هادئـة، تشـاهد وتبتسـم تـارة وتضحـك ببـراءة تـارة أخـرى.

بعـد عشـرين دقيقـة أنهـت مـا كانـت تشـاهده، اتّجهـت نحـو البـاب لتخـرج، ثـمّ توقّفـت قائلـة:

تريد شيئا أبي؟

هزّ رأسه في رفض.

ابتسـمت بصعوبـة وغـادرت نحـو غرفتهـا تكمـل دروسـها، كانـت تشـاركها فـي ذلـك سـهى حيـن يكـون منيـر غائبـا عـن المنـزل لكنّهـا لا تأتـي فـي غيـر ذلـك.

سـهى ابنـة عمّـه رضـا الـذي كان علـى خـلاف مـع منيـر أخـوه الأصغر منـه بسـبب خشـونة تفكيـره، كانـت صديقـة الطفولـة الوحيـدة لـدى رودينـا، والابنـة الصّغيـرة مدلّلـة العائلـة، كان رضـا يحبّهـا كثيـرا وهـذا الأمـر لا يخفيـه أبـدا أمـام الـكلّ.

بعد أن أكملت ما لها من واجبات، نامت قليلا واستيقظت بعد العصر بقليل وبعدها بساعة دخل منير بيده شيء كبير ملفت للنّظر ثم دنا نحوها حدّق بها ثمّ أردف:

هيا افتحيها، إنّها هديّة لك.

إحساس غريب انتابها، لا تدري لم يحدث قبل هكذا شيء، بدت مبهمة الشعور، تحمّست للهدية وفي نفس الوقت تمسكها بخوف وعيناها تلمحانه، تعجبت السيّدة زينب، قطّبت حاجبيها واستغربت الأمر ثم تبسمّت لرودينا وهزّت برأسها علامة الرّضا:

افتحيها ..

فورا بدأت بفتحها: أووووه رائعة، أخفضت رأسها وقالت بصوت خافت:

شكرا.

صمت منير برهة ثم قال:

هل أعجبتك؟

طبعا...

حسنا.. ضعيها في غرفتك .

كانت الهديّة لوحة كبيرة وأدوات للرسم، ساعدتها في حملها أمّها، دخلت نحو غرفتها والفرحة تغمر قلبها، ضمتها زينب إلى صدرها وفكرها مشغول أيعقل أن لان قلبه على ابنته؟

أانتصر الدّعاء عليه؟

وهـي تحـادث نفسـها وإذا بهـا تسـمع صـوت الآذان ردّدت اللـه أكبـر اللـه أكبـر، لا حـول ولا قـوّة إلاّ باللـه.. الحمـد للـه.

تلـك الفتـاة الّتـي لـم تعـرف حضـن الأب يومـا ولا حبّـه، تسـمع صديقاتهـا تحكيـن عـن آبائهـنّ وتلحـظ عنـاق وقبـلات ومسـكة يـد، كانـت تمثّـل دائمـا دور المصغـي دون أن تنطـق بحـرف ومـا تعرفـه عـن أباهـا أنهـا تخافـه لا غيـر.

"هنـاك أشـياء نريدهـا، نحتاجهـا، تأبـى أن تأتـي إلينـا ولا نسـتطيع أن نطلبهـا ولا نعـرف مـا ذنبنـا حيـن نحـرم منهـا"

لاحظـت زينـب سـلوك منيـر الغريـب، كانـت تحـاول أن تصـدّق، وأحيانـا تحتـار وتسـتغرب، لكنّهـا سـعدت إذ ذلـك التغيّـر المفاجـئ جعـل بعـض الفرحـة تختلـج صـدر ابنتهـا.

مـرّت أربـع سـنوات حملـت مـن جديـد، توالـت الأشـهر الأولـى وكانـت عجافـا، لـم يتمـنّ منيـر الولـد بـل كان يريـده بشـدّة ومـا عسـاها تفعـل وكان هـو يبعثـر ثباتهـا ويثيـر قلقهـا الدائـم.

لكن..

بعـد أن زارت طبيبـة النّسـاء والتوليـد وأخبرتهـا بعـد الفحـص أنّهـا حامـل بتـوأم والتـوأم مؤنّـث، تجمّـدت للحظـات تحـاول اسـتيعاب الخبـر وكل همّهـا زوجهـا، كيـف سـتواجهه.

لكنّه تغير.. تمتمت.

فور مجيئها إلى البيت أشار برأسه سائلا: ماذا هناك؟

صمتت زينب خائفة من تلك النظرات، لا تعرف كيف تجيب وماذا تقول؟

بصوت مرتفع أعاد السؤال في هذه المرّة مشيرا إلى بطنها:

قلت ماذا تحملين، أجيبي...؟ انتبهت الطفلة لصوت أبيها المرتفع، فوقفت عند باب الغرفة في ذعر رأتها زينب فأجابته لا أعرف، لم يظهر بعد.

اقترب نحوها وأمسكها بقوّة من ذراعها: كيف؟ أتكذبين؟

أتركني سوف أخبرك بكت قائلة: توأم إناث.

تطلع إليها بتمعّن وكانت المسكينة تحترق من تلك النّظرات، مسح على لحيته بغضب ثم تحرك نحوها بعنف ورفع يده ليصفعها، خبأت وجهها بيديها في خوف وأغمضت عينيها وأنفاسها تتسارع تنادي في سرّها يا ربّي.

تراجع ليجلس هناك يترقّبها بنظرات مهينة ويقذفها بكلمات جارحة.

لم تكد تفت ساعة على سماعه الخبر حتى كان اتخذ قراره: أنت طالق.. طالق.. طالق..

***

في يوم المحاكمة، تواجد منير هناك بعشرين دقيقة قبيل الموعد، وما إن مرّ بعض الوقت دخلت زينب برفقة أخيها رضا قاعة المحكمة وجلسا في الطرف الآخر بعيدا عنه، استمر الصمت وتفاصيل وجهها تظهر استياءها، كانت آخر جلسة.

بعد حين غرّة دخل القاضي مجدّدا جلس بمكانه ومدّ يده ليتناول الملفات، أخذ وثائق القضية التي أمامه بعد بعض الاستفسارات، ألقى الحكم النّهائي بعد مفاوضات قصيرة مع الزوج وأغلق الملف.

زفـرت فـي ضيـق ولـم تسـتطع التحـرّك مـن مكانهـا، لمحـت ذاك الرّجـل الـذي لطالمـا كان كالغريـب يخـرج دون عنـاء نفـس، طأطـأت رأسـها وهـي تعض علـى شـفتيها فلطالمـا توقعت الأسـوأ، تلعثـم رضـا وهـو يحـاول التخفيـف عنهـا، لكنّهـا طمأنتـه بابتسـامة مصطنعـة لتخفـي توترهـا فقـد كان القـرار هـذا تخفيفـا لعقوبـة الحيـاة التـي عاشـتها برفقتـه.

طالـق، هكـذا كان اسـمها فـي عمـر لا يتجـاوز الخامسـة والثلاثيـن، إلّا أنّهـا اسـتطاعت تحمّـل عبئـه، أنجبـت بنتيهـا، تعلّمـت الخياطـة واتخذتهـا مهنـة لتربيـة البنـات لكـي لا يحتجـن شـيئا، وفعـلا كان ذلـك.

"تعلّمنا الحياة حين تصفعنا، نصبح أقوياء بعد كلّ إصابة"

تمـرّ السّـنوات ورودينـا تكبـر، تميـل للدراسـة، فـي البدايـة كان حلـم الصّغـر الدّراسـة فـي معهـد الفنـون حبّـا لموهبتهـا التـي كبـرت معهـا وسـاندتها أوقـات الفـراغ، ومـع الوقـت بعـد النّجـاح فـي الثّانويـة العامـة بمعـدّل حيّـد جـدّا، قـرّرت دخـول كليّـة الصيدلـة بدمشـق.

طبيـب نفسـي كان الحـل الأمثـل لمعالجـة أبـي، كانـت تقـول رودينـا مانعـة دمعهـا مـن الهطـول، لـم تكـن تقـل سـوى هـذا حيـن تتحـدث عـن أبيهـا، غيـر أن التنهيدات كلام لـم يقـال، يبـدو أنّـه إنسـان سـيء غيـر أنهـا لـم تذكـره يومـا بذلـك سـوى أنـه شـخص متعصـب مـا جعلـه ينفصـل عـن أمهـا والواقـع أنّـه متخلّـف.

قـد يكـون الأب هـو مـن يرفـع مـن قيمـة ابنتـه حيـن يكـون لهـا سـندا تشـعر بالاكتفـاء فـي أحضـان اهتمامـه وحبّـه لذلـك شـعور اليتـم رهيـب.

كيـف لـو يهيـن الأب قدسـية البنـت، مـاذا لـو علـم النـاس بذلـك هل يحترمونهـا أم يزيدونهـا إهانـة لأنهـا دون أبّ يحميهـا يضـع الحـدود يخافهـا العالـم كلّمـا حـاول أذيّتهـا!

فارغين من كلّ شيء

"أنت لا تزال هنا تخطو خطوة وتعود إلى الوراء خطوات"

تصبـح الحيـاة أكثـر كثافـة بعـد تخطـي العشـرين مـن العمـر، فيصبـح تفكيرنـا مقيّدا بقائمـة المطالـب المحقّقـة، فـإن اكتملـت استمررنا، وإن صادفتنـا العواقـب و فشـلنا فـي الوصـول تلونـت لنـا الحيـاة بألـوان كئيبـة، وعزفـت علـى مسـامعنا أقسـى أنـواع العـزف الحزيـن، فتمـرد الظـروف علينـا تجعلنـا نعيـش أيامـا بـلا عنـوان، لياليهـا مضطربـة، يرافقنـا فيهـا ظـلّ اليـأس أينمـا حللنـا وكأن صفحـات الآمـال طويـت مـرّة واحـدة.

صافـرات اليـأس، صـوت الحسـرة باقتـراب الشّـتات وأصـوات المسـافرين علـى رصيـف محطّـة الإحبـاط، صـارت مشـاهد معهـودة لتكـون سـكك الظلـم والأنانيـة عائقـا للاسـتمرار وأيـام العمـر شـاهدا علـى لحظـات اليتـم ولقـاء الخيبـة وفـراق الأمنيـات.

أخبرنـا الواقـع مـن حولنـا أن نجاحنـا بالحيـاة يعتمـد اعتمـادا كليـا علـى شـهادة عليـا وأنّهـا طـوق النّجـاة، وكلمـا اسـتطعنا الحصـول علـى شـهادات أكثـر ودرجـات علميـة وأكاديميّـة متفاوتـة كلّمـا كانـت المحـرّك الّـذي سـيضاعف خطواتنـا للوصـول إلـى الهـدف المنشـود.

بالنّسـبة لـي كان كل ذلـك يسـير علـى مـا يـرام لكـن مـا أدركتـه متأخـرة أن الجامعة لـم تمنحنـي كافـة أنـواع التعليـم فـي حيـن أن البعـض أدرك ذلـك مبكـرا، ليأخـذ علـى عاتقـه تعليمـا ذاتيـا يؤثـر فـي مسـيرته بشـكل إيجابـي ويواجـه بـه التحديـات والعقبـات التـي حيـن تخوضهـا ستكتشـف أن أسـوأ شـيء مـررت بـه لـم يكـن تلـك المحاضـرة المملّـة التـي اكتفـى فيهـا المـدرس بالجلـوس فـي مكانـه والشـرح

بهـدوء، سـتعطيه ألـف عـذر ومبـرر، سـتدرك أنّـك حيـن تمكنـت ذلـك اليـوم مـن الفـرار بسـهولة لأنـك لـم تتحمـل، ذلـك الفعـل لا يمكنـك إعادتـه مـع الحيـاة فهـي لا تشـبه المحاضـرة فـي هـذا الجانـب، لـن تسـتطيع فتـح بابهـا والخـروج مـن مدرجهـا، بـل سـتكمل الرحلـة وسـتعبر كل المحطـات فتتعقـد الأمـور لتدخـل فـي متاهـات تأخـذ فيهـا تلـك الجرعـات المكثفـة مـن الألـم والإحبـاط حيـن تواجـه سـوء التقديـر لقدراتـك، وتكـب سـنوات الاجتهـاد فـي حاويـة المهمـلات وتقـع ضحيـة قضيـة يفصـل عليـك فيهـا بالإعـدام دون محاكمـة وكأن العالـم يحـاول جاهـدا دفعك للخلـف.

"دروس الجامعة نتلقّاها بحضور المحاضرات،

ودروس الحياة تمنحها لنا الصّدمات

لننجح في الأولى نسهر

ولننجح في الثّانية نكسر

في كلتا الحالتين سننتقل إلى مرحلة أعلى

سواء بتجاوز سلم العلم أو الألم."

أعتـرف لقـد كنـت أعتقـد أن الأمـور سـتصبح أسـهل بعـد تخرجـي، ليسـت كمـا ظننـت فهـي لـم تكـن أبـدا بتلـك السـهولة التـي تخيلتهـا، فقـد أصبحـت أواجـه فـي طريقـي العديـد مـن الأمـور التـي لـم أتعلمهـا فـي الجامعـة معـادلات يصعـب حلهـا لا علاقـة لهـا بالجبـر، مدونـة بحـروف لا نملـك شـفرتها

لقـد هزنـي الواقـع بقـوّة، ولا أزال أحافـظ فيـه علـى ترتيـب الفشـل رغـم كل الجهـود، شـعرت أن الحيـاة تتطلـب حيـاة لـم تكـن لـديّ، وتعليمـي كان محـدودا أو أقـل ممـا ينبغـي، كان علـي العمـل علـى نفسـي لأخلـق مسـاحة أوّمـن فيهـا أنّ العالـم فـرض علينـا تـذوق التّعاسـة.

ففـي كل مـرة كانـت تسـقط رغباتنـا فـي دوامـة الملـل، بـات الانتظـار يؤيـد اللقـاء فـي ممارسـة التجاهـل ليبعثرنـا فـي متاهـات الطـرق.

ظننـا دائمـا بأننـا قـادرون علـى أن نبتـدئ مـن جديـد، لكـن البدايـات الجديـدة أصـرّت أن تبقـى كذبـة طويلـة الأمـد، لتخلـق لنـا أمـلا ليـس بمقـدوره أن يضـيء لنـا العتمـة التـي لونهـا الواقـع بـكل صـدق.

بدايتنـا كانـت جميلـة وكنـا ننتظـر الأجمـل لكـن مـا كان ينتظرنـا كان أغـرب وأمـرّ ممـا توقعنـا حيـن أصبحـت الحقـوق أمنيـات.

تظـل تداهمنـا ضغوطـات الحيـاة لتغلـق نوافـذ الأمـل أمـام ريـاح طموحاتنـا، لتنتهي بنـا هـي الأخـرى إلـى نفـس النتيجـة بالطبـع بعـد أن نقلـت حـرب اليـأس إلـى عقـر دارهـا، بتنـا نحتضـر فـي جنـاح الكآبـة المسـتقرة فـي مركـز الأحـلام المسـعفة، لتنهـال علينـا الشّـدائد بعـد أن كنـا نضاهـى فـي الإرادة.

لسـنا قادريـن علـى الإفـلات مـن عمـق المتاهـة والإحسـاس العميـق بالـذل والمهانـة فـي مجتمـع يتجـرد مـن آدميتـه يقـدم علـى ابتـكار أنـذل الطـرق لقتـل أحلامنـا والتنكيـل بهـا مـا يشـعرنا بالانكسـار، بينمـا تشـيّع جنـازة سـنين التعـب دون جـدوى لأيـام تـواري الثـرى.

الحيـاة مدرسـة قاسـية تعلمنـا كيـف نتخلـى فـي كل مـرة عـن حـق لنـا، وكيـف نتـرك خلفنـا أمانينـا لا رغبـة إنّمـا إجبـارا لظـرف الحيـاة الظالـم، كخيـار وحيـد لمواصلـة العيـش دون حيـاة.. تلـك التـي تنقلنـا بيـن فتـرات ولا تنتهـي دون أن تقتـل شـيئا بداخلنـا.

تحلّلنـا مـن كل حلـم، لنمضـي فـي حيـاة خاليـة لا هـمّ لنـا فيهـا سـوى انقضـاء الأيـام فـي عالـم أغـدق علينـا بـكل أنـواع الفقـد، ليضطرنـا للتنـازل عـن مـا نريـد فـي مجتمـع ناجـح فـي إفشـال الآخريـن، هـؤلاء المحبطيـن يعيشـون علـى الفسـاد ومذهبهـم الكلاسـيكي يرفـض أيّ تغييـر.

*****

تمضـــي السّنـــــوات..

كانـت قـد انقضـت قرابـة الثـلاث سـنين منـذ دخلـت رودينـا الجامعـة، كانـت تحـاول الحفـاظ علـى المرتبـة الأولـى كعادتهـا، احتياجاتهـا وأمّهـا الـت زادت بعـد أن كبـرت شـهد وقمـر وتفاقمـت، وكانـت تتألّـم لرؤيـة أمّهـا تتعب لتوفيـر القـدر الـذي لـم يعـد يكفـي.

كان قـرارا صعبـا بالنسـبة لهـا لكنّهـا اجتهـدت فـي البحـث عـن عمـل، كانـت الأيّـام تمضـي ولا شـيء جديـد.

العطلـة الصيفيـة علـى مقربـة مـن نهايتهـا ولـم تجـد عمـلا توفّـر بـه لنفسـها مـا تسـتطيع الدخـول بـه لسـنة أخـرى، فتكاليـف النقـل وحدهـا كانـت تأخـذ أكثـر مـن قيمـة المنحـة التـي تقدّمهـا الجامعـة.

بعـد بضعـة أشـهر ، كانـت فـي السـنة الرابعـة مـن سـنوات الصّيدلـة، فـي عشـيّة إحـدى الأيّـام مـرّت عينهـا علـى إعـلان مـن صيدليّـة تبحـث عـن موظفـة، كان لديـه تقريبـا سـبع دقائـق مـن نشـره، تطلّعـت إلـى السّـاعة وكانـت قـد تجـاوزت الخامسـة مسـاء، تـردّدت ثـم اتصلـت، أجابـت عليهـا سـيّدة وطلبـت منهـا الحضـور للمقابلـة.

اسـتلطفت رودينـا طبيعـة كلام صاحبـة الصّيدليـة، وقـررت مباشـرة الذهـاب، للحظـة تركـت كلّ مـا بيدهـا وأخـذت بالبحـث علـى الانترنيـت لاسـترجاع بعـض المعلومـات فهـي لا تعـرف كيـف سـتكون المقابلـة، فلـم يحـدث لهـا ذلـك مـن قبـل.

فـي صبـاح الغـد، كان موعـد المقابلـة قبيـل السـاعة العاشـرة، اسـتطاعت الوصـول فـي الثامنـة وخمـس دقائـق، كـنّ أربـع فتيـات تنتظـرن الـدور، لـم يكـن بمخيّلتهـا أن تصـادف قبلهـا، لا وقـد تكـون الوحيـدة التـي تقدّمـت دون شـهادة .

كانـت كلّ مقابلـة تسـتغرق عشـر دقائـق وكلّ مـن ينتهـي دورهـا تخـرج مبتسـمة، غيـر ذلـك لـم تكـن رودينـا الأخيـرة وقـد تقدّمـت بعدهـا ثلاثـة أخريـات، أحسّـت رودينـا باحتماليّـة عـدم القبـول، كادت تتراجـع ثـمّ تماسـكت.

دقّـت السّـاعة التّـاسعة إلّا الرّبـع وأتـى دورهـا، كانـت المقابلـة فـي غرفـة داخليّـة للصيدليّـة، تتواجـد بهـا رفـوف للأدويـة ومكتـب، جلسـت بعـد أن ألقـت التّحيـة ثـمّ بدأت.

لـم تكـن الأسـئلة تتطـرّق للتخصّـص بقـدر مـا كانـت حـول معلومـات شـخصيّة للمتقدّمــة.

حسنا إذا.. سنتصل بك في حال اختيارك، ختمت السيّدة حديثها.

ثـلاث أيّـام مـرّت ولـم يتصلـوا بهـا، كانـت تتوقّـع ذلـك بمـا أنّهـا لـم تنـهِ شـهادتها، حاولـت أن تبتعـد عـن فكـرة العمـل، تجـول فـي ذهنهـا أفـكار للبحـث عنـه فـي ميادين أخـرى، وبغيـر مقدورهـا ذلـك.

قبيـل دخـول أسـبوع آخـر، رنّ هاتفهـا والمتّصـل نفـس رقـم تلـك الصيدليّـة، أجابـت بسـرعة وهـي تشـير لقمـر الّتـي كانـت تجلـس علـى مقربـة منهـا: أششـش، لا تحدثـي صوتـا قمـر.

طلبـت منهـا المجـيء بدايـة الأسـبوع، ردّت رودينـا بالقبـول وبعـد أن أقفلـت جـال بخاطرهـا شـعور غريـب، تـردّد وخـوف وتيهـان، لا تـدري مـا الـذي سـتقدم عليـه. اسـتغرقت رودينـا وقتـا فـي التّــفكير، خاصـة وأنّ أوقـات العمـل كثيـرة ولا يوجـد مجـال للحضـور بالجامعـة، بيـن التمسّـك بفرصـة العمـل وإتمـام جامعتهـا، اختـارت خـوض التّجربـة.

◄الفصل الأول:

لـــم نلتــقِ عبـــــــثًا

بالصّدفة التقينا

"ربّ حبّ ولد صدفة"

من الصّعب أن نكتب عن شيء لم نمرّ به ولا نعرف عن مراحله شيئا خاصّة وإن كان إحساسا أنيقا كالحبّ، لكن الذي ندركه جميعا أنّنا حين نلتقي شخصا يروق لنا أو يشبه تماما أو حتى قليلا ممّا نريده، سيكون الشعور جميلا، سنحسن الظنّ بحظّنا بعدما فقدنا بعضا من الثّقة به حين وضعنا يوما على جانب من الإهمال، بعد أن أهدرنا الكثير من العمر ونحن نبحث عن من يشد قلبنا فيخيّل لنا أن الأيّام بدأت تقف في صفّنا أخيرا.

أيّام ملأى، ظروف ضدّنا، غياب الفراغ، ضياع الأماني، انتهاء الشغف فينا وتضارب دقات العمر، في وسط كلّ هذا الزحام تأتي الصدفة لتحتضننا وتغرس داخلنا بهجة طالما تمنيناها تلك التي تبقى عالقة في الذاكرة.

"لحظات اللّقاء الأوّل تظلّ باقية "

وليس أيّ لقاء، لقاء ذلك الشخص الذي هو بنظرنا مختلف ولو كان عاديّا بالنسبة للكلّ، الذي يبقى في البال، ذلك الذي نختنق في غيابه، فيكون حضوره مستحبّا دائما، الوحيد الذي نشتاق له، نفرط بالاهتمام به دون غيره ويستحوذ على الأولويّة، ذلك الذي يأتي بعد معاناة ليضمّد فينا ما تركه الفقد من جروح ويزيح ما زاده ألما، حين سكب عليه النّدم يوم صرخنا بداخلنا: أيا ليت من أحببناهم أحبّونا ويا ليت يا ليت من أحبونا أحببناهم.

نضيع في الطّرقات والمداخل نتسوّل الحبّ لعلّ الحظ يكرمنا، لكن لا أحد سيستطيع تصديق أنّك لم تحصل يوما على فرصة وضحكتك التي لا تفارقك وغرورك يعكسان ذلك.

لطالمـا كان الصّـدق فـي الحـبّ يشـتبه والسّـعادة لكنّـه كان مختلفـا مـع الأنانيّـة باتّفاقـه مـع أسـلوب المعاملـة بالمثـل لكـي يسـتمرّ.

نـادرا مـا يسـوقنا القـدر إلـى شـيء لـم يخطـر ببالنـا، يصادفنـا مـا تمنّيناه مـن زمـن بعيـد، صدفـة أجمـل مـن ألـف ميعـاد، تثيـر الهـدوء السـاكن فينـا، تشـبه مطـر الشـتّاء.

عـادة يأتـي هـذا الأخيـر بالأخبـار السـيّئة، عـدا أولئـك الذيـن منحتهـم الظّـروف دفئـا، يطلـوّن علـى زخاتـه مـن خلـف النوافـذ، هنـاك مـن تطلّ عليـه وتقسـو عليه، تسـيء إلـى مشـاعرنا مناظـر مـن يسـكن شـوارع العزلـة وارتجـاف الوحيديـن فـي بـرد الحنيـن.

لكـن أحيانـا يتسـلّل يـوم مشـرق تطـلّ فيـه الشـمس وتهدينـا نسـمة ربيـع، تمامـا هكـذا هـي الصّـدف.

***

يخفـي الجـوّ الرّبيعـي فجـأة آثـار فصـلٍ كئيـبٍ، مـرّت عليـه فاسـتهوته فـأراد قطفهـا ثـم تـردّد قائـلا فـي نفسـه: محـال لـوردة مثلهـا ليـس لهـا سـاق.

اكتفـى بمراقبتهـا مـن بعيـد فالجمـال نصيـب المتأمّليـن كمـا يقـال، كزهـرة السّـاكورا بندرتهـا تجعـل المهتّـم يجعـل مـن تفتّحهـا حفـلا يقـام كل سـنة باسـم مشـاهدة الزهـور.

عيناهـا أجمـل مـن باريـس، ترسـم الحيـاء، كلؤلؤتيـن أفلتتـا مـن السّـماء عندمـا ارتجفـت فـي لحظـات البـرق، تتقلّـص مسـافة الحنيـن بيـن رموشـها لتتعانـق فتلـد الحيـاة، وجـه دائـري سـقطت علـى وجنتهـا اليمنـى ضحكـة صنعـت بهـا الجاذبيـة فجـوة، غمـازة تلـك العلامـة النـادرة للجمـال تجعـل الشـمس تضـيء علـى القمـر

بابتسامتها وشعر أسود ممـوّج "كيرلي" ينسدل فوق كتفيها تلهو خصلاته بين حنايا يدين ناعمتان فتخلق عناقا كاملا، تنافس النّاردين في عمق سحرها لنظراتها لغة تترجم معجم البراءة.

"جميلة هي كسماء سويسرا حين تمطر"

هادئة تسافر بك لتحط في حديقة ورد دمشقيّ يصنع منه أثمن العطور وأنفسها، كأن الربيع كله التفت إليها ووسم وجهها بأزهار يزرعها الناس في أحواض منازلهم، تستحق بجدارة أن تكون أولى قائمة الزهور.

كان يقف لوحده ولعلّها كانت في استراحة ما بين المحاضرتين حين رآها لأوّل مرّة، كان تشبه ما يحبّه بكلّ التفاصيل، كجملة كتبت بالغليظ في نص الصدفة، كعنوان شعر ومفردات قصيدة ليس الكلّ يفهم معناها.

اقترب قليلا من المكان الذي تجلس فيه وصديقاتها، متعمّدا التنصّت على صوتها، ذاك الذي لا يكاد يسمع منه شيء، استحسن هدوء لسانها ولين كلماتها، يااااه... ما هذا الشّعور الذي هو باحتياج له؟ كفرحة جاءت وسط خراب.

ترى من تلك؟ ماذا تفعل في هذا الوقت؟ بالتّأكيد تغازل حبيبها، إنّه شخص مهم على ما يبدو، يحبّها كثيرا، لا.. لا إنّها وحيدة، أيعقل ذلك؟ ربّما، من يدري؟ كلّ هذه الأسئلة كانت تخطر بباله منذ رجع إلى البيت.

يكاد يمضي الليل، وتفاصيلها الملائكية تجول زوايا عقله، بالغ في التفكير، تلك المليئة بالحياة، بزاوية مختلفة، داخل حدود لا نهاية لها في الجمال، تخاطب القلوب، تتفق والجاذبية.

مـرّت سـاعات كثيـرة، دقّـت السـاعة الثالثـة ليـلا، أصابـه مـن التعـب مـا يكفـي، بالـكاد اسـتطاع النهـوض ليغلـق بـاب غرفتـه ثـم اسـتلقى لينـام متأخّـرا جـدا علـى غيـر العـادة.

مـرّت الليلـة بسـرعة، والأيّـام مملّـة وطويلـة، لـم تشـأ أن تصادفـه بهـا، رغـم أنّـه كان يتـردّد إلـى معهـد الفنـون الجميلـة باسـتمرار بينمـا كان يمـرّ بسـيّارته لنقـل صديقـه خليـل، أدرك أنّهـا زميلـة لـه بـذات القسـم، أراد سـؤاله عنهـا وفـي كلّ مـرّة كان يتراجـع.

بعد انتظار لا ينتهي جاءت الفرصة أخيرا..

فـي إحـدى أيّـام أكتوبـر الـورديّ، فـي كليّـة الفنـون الجميلـة بدمشـق، تـمّ الإعـلان عـن وجـود يـوم تحسيسـيّ للدعـم المعنـوي لمرضـى سـرطان الثّـدي، بتقديـم لوحـات تـمّ العمـل عليهـا باجتهـاد مجموعـة مـن الطلبـة، ارتـدت يومهـا لباسـا أسـود اللّـون تضـع علـى يسـار قميصهـا شـريطا ورديّـا، تربـط شـعرها بطريقـة تتّضـح بهـا ملامـح وجههـا وكان هـو فـي الموعـد، بعدمـا علـم بذلـك حيـن أخبـره خليـل أنّـه بحاجـة لإيصالـه ذات اليـوم، صـدق ظنّـه فقـد كانـت هنـاك، تسـلّل كطالـب بالمـكان برفقتـه دون أيّ مشـكلة تذكـر، كان يبـدو أنّـه يتفحّـص مـا حولـه، يبحـث عنهـا بيـن الموجوديـن فـي السـاحة، مـرّت لحظـات وتبقّـى القليـل لتبـدأ المحاضـرة دون أن يهتـم لخليـل ومـا سـيظنّه، تقـدّم ليدخـل القاعـة، أخـذ ينـزل ببـطء ليجلـس بأقـرب مـكان للمنصّـة.

يبـدو أنّ شـيئا أجبرهـم علـى التأخيـر نصـف سـاعة تقريبـا، تبسّـم بتواطـؤ لمّـا رآهـا تدخـل مـن البـاب لتلقـي جـزءا مـن التقديـم، يسـتمع إليهـا بشـرود، كانـت أوّل مـرّة ينظـر فيهـا إليهـا مباشـرة، كان يفكّـر أنّـه عليـه تـدارك هـذه الفرصـة، كان لديـه شـعور أنّ كلّ شـيء سـيمضي كمـا يشـاء.

حتّـى الآن مـرّت سـاعتين، ينظـر إلـى سـاعته فـي توتّـر ورغبـة فـي مغـادرة المـكان، فـي هـذه اللحظـة بالـذات لاحـظ خروجهـا مـن غرفـة التحضيـر تتّجـه لفتـح بـاب أمامـيّ لـم يلحـظ وجـوده مـن قبـل، سـارع بـذات الاتّجـاه، اسـتطاع الوصـول والتّحـدّث إليهـا، تمسّـك بالموضـوع كفرصـة أولـى وأخيـرة.

كان قـد تـردّد لبضـع ثـوان قبـل أن يفتـح حديثـا، لكنّهـا تجاهلتـه حيـن ألقـى التحيّـة، لـم يسـتلطف ذلـك لكنّـه أكمـل قائـلا: أردت أن أقـول لـك..

اسـتوقفته دون مبـالاة وردّت بسـطحيّة غيـر ذلـك فقـد امتنعـت، انزعـج كثيـرا لغرورهـا وتراجـع عـن مـا كان يريـد قولـه، كان شـعورا سـيّئا، تلاشـت بـه توقّعاتـه فـي ذلـك المسـاء.

***

اليـوم انتصـف شـهر ديسـمبر، كانـت ليلـة شـتاء بـاردة، أحـلام هـذه السـنة بصـدد أن تنهـار بأكملهـا، مـن سـيصدق تلـك الخرافـة التـي تقـول "أنّ الغائـب الأحـبّ إلـى قلبـك سـيعود فـي أحـد أيّـام ديسـمبر" أو تلـك التـي تقـول فـي "ديسـمبر تنتهـي كلّ الأحـلام"، تائهيـن كلّنـا بيـن الخرافتيـن.

من يصدّق؟

فقـد امتـلأ كلّ شـيء مـن حولنـا بالسّـوء، نـدور فـي عجلـة الأوجـاع، وتلاشـت الأيـادي مـن حولنـا.

انتهى كلّ شـيء ولكنّـه أصبـح أمـرا عاديـا للبعض، فتكـرار الخسـائر يجبـرك علـى تقبّـل ذلـك والتعايـش مـع الوضع.

من سيصدق..؟

وقـد كانـت تكتـب أيّامنـا بخطـوط سـوداء بـكل حـرف وخـزة حسـرة تثيـر أعمـق شـيء بالقلـب، ذاك الشـهر لا يحمـل معـه الأمطـار عبثـا بـل لأنّـه يحـنّ للامتـزاج بالدّمـوع.

من سيؤمن؟

وفـي نهايـة العـام تتهـاوى قصـور الأمانـي، يتنـازل آخـر رقـم دون أن يشـكّل لنـا فارقـا، كأنّنـا نلعـب مـع الأيـام بـورق اليانصيـب، مـا الـذي سـيكون فـي الورقـة المقبلـة؟

"اختر الحبّ لكلّ بداية..

فمن دونه تمضي الحياة عبئا ثقيلا.."

***

تهانينا ديسمبر...

لقد تحصّلت على أولى المراتب في تحطيم الشغف فينا وفقدان الأمل..

لقد استطعت تهشيمنا وتغييرنا لحال أسوأ..

لقد تغيّرت بنا كلّ السبل وتبدلت كلّ الطرق

ونحن على مقربة النهاية..

تزاحمت علينا الذّكريات وضلّلتنا الأفكار ولم يعد باليد حيلة..

لقد وصلنا إلى شفى حفر الاستسلام ولكن لم يكن استسلاما للواقع بقدر ما هو إيمان بقضاء الله.

كنت نهاية فاصلة لسنة غيّرتنا أيّامها، ضيعتنا في متاهة الأحداث وصدمتنا روايات الحاسدين..

أصبحنا لا نثق ولا نؤمن بدوام الأشياء

تلك أيّامك ضاع فيها الكثير، ودعنا وفارقنا أناسا وأحلاما وانتهى الانتظار.

والتقينا بما مضى، ومرّ شريط الذكريات ليقف دقيقة صمت ترحّما على ما ضاع منّا

وبعد أن كنّا أكثر من يسامح حين يخطئ في حقنا

صرنا نوزّعه ولا نبالي لكلّ من قال كلمة جرحتنا، كلّ من أسقط منّا دمعة أحرقت جفوننا وبكلّ ليلة نام الحزن جوارنا، كل غصّة استطاعت خنق صورنا، كلّ من واجهناه بصفاء ورده بالنّكران.

لبث الوجع فينا سنين عددا وتعوّدنا لكن..

أولئك الذين رجموا قلوبنا، استطاعوا غرس الحذر فينا، لنقدّس أنفسنا ربحناهم وتركنا لهم صحائف خاسرة.

غيرنــا النــاس وكنــت ديســمبر حجّــة.. فقــط فيــك تذكّرنــا أن الســنة مــرّت ولــم نحصــل علــى مــا نســتحق.

لكنّك كنت تكتب النهاية لكلّ شيء

طالمــا كنــت المأســاة الحقيقيــة كنــت تعــود كل مــرّة تبعثــر فينــا الشــعور... تبهرنــا فــي الختــام، تطفئنــا وقــد حاربنــا لنضــيء..

كأب توفيــت ابنتــه فــي طريــق العــودة مــن دفــن ابنــه، كنــت تخذلنــا، تدمّرنــا وتطيــح بنــا تعبــا.

***

يجبــر اللــه تعالــى خواطرنــا فــي كلّ مــرّة، يســتحيل أن يــرى شــخصا مكســورا لأجــل شــيء أراده، يــوم آخــر مضــى ليلــه ومــا اســتطاع إزاحــة تلــك الفوضــى الداخليــة لقــاء تيــم برودينــا مــرّة أخــرى فــي اليــوم الموالــي كان الطقــس كئيبــا والريّــاح قويــة، كان مــارّا فــي وقــت الظهــر، فلمحتهــا عيناهــا علــى مقربــة مــن البــاب الخارجــي، لــم يصــدّق ذلــك، حينئــذ اســتجاب مســرعا، فأخذتــه قدمــاه نحوهــا، لــم تكــن لــه أيّ فكــرة كيــف ســيباشــر الــكلام معهــا، توقّــف عندهــا قائــلا:

أهلا بك، كيف الحال؟

أجابت ولم تنظر قطّ في وجه من ألقى السلام: أهلا، الحمد لله

استدار متأففا وقال: لكن لماذا تتجنّبينني؟

سمعت سؤاله، فنظرت إليه ولم تجب

ماذا أجيبي؟ أردف مسرعا.

تبسّمت قائلة: لا أعرف عن ماذا تتحدّث.

بلع ريقه ثمّ أخبرها أنّها المرّة الثانية الّتي يحاول فيها أن يختلق حديثا عابرا كي يتقرّب منها ولا يستطيع:

اليوم استطعت الحصول على فرصة لا تحتمل التأجيل، وما أعجبني أنك بزاوية مختلفة في كلّ شيء .

استغربت ذلك فلم يتحدّث لها قبل شخص هكذا وقالت:

مجاملة منك. لم تصدّقه أبدا.

ضحك قائلا: ليست مجاملة إنّها حقيقة.

كان يودّ أن تتحدث أكثر أن تستجيب لما يقوله، كان يقول في نفسه ألغي المسافة بيننا ولا يدرك أنّه يركض وراء شيء صعب بالنسبة لها، كانت مهندسة مسافة تدرس خطواتها بدقّة تتقن فن المسافات مع الأشخاص. تحدث معها قليلا لكنّها غالبا كانت تنصت فقط، أخبرها أنّه يراقبها منذ زمن وأنها يميل كثيرا لها أو بالأحرى معجبا سرّيا بها.

ما يقلقه ويثيره في ذات الوقت أنّها إنسانة صامتة ولا تتحدّث لأيّ أحد، فقط تبتسم طوال الوقت.

وقفت بعيدة وهي تهزّ ساقها في توتّر

سألها: هل ضايقتك؟

هي: لا.. لم تفعل، في تلك اللّحظة أخذت تبحث عن هاتفها في الحقيبة واستأذنت:

- يجب أن أجري اتّصالا.

لم يكن يعتقد أنها ستنسحب بهذه السرعة، تنهّد ولم يتكلّم وبينما هي مستمرّة في مكالمتها استدار وابتعد خطوات عدّة وقال في نفسه: غبيّة كيف لم تفهم قصدي؟ مغرورة جدّا.

بعد أن أنهت رودينا اتصالها، لاحظت أنّه لا يزال هناك، اعتقدت أنّه سيعيد مضايقتها فقرّرت الرجوع لداخل الكليّة لتبقى شيئا من الوقت حتى يغادر، صعدت الدّرجات ببطء وفي مساحة تطلّ على الأسفل، جلست على مقعد، تسمّرت في مكانها في شرود عن ما حولها.

وكان تيم قد غادر.

***

مرّ اليوم وبينما هي جالسة بعد العشاء، ظلّ التفكير بصحبتها طيلة السّهرة، يغادرها برهة ثمّ يعود، لكنّ فكرة وحيدة كانت تتردّد في ذهنها:

أيعقل أنّه الشخص الذي انتظرته طويلا؟؟ لم تبد عليه سمات التسلية ولا المزاح، كان الصّدق غريبا في حديثه، قطعت تفكيرها وتمتمت في نفسها: لن أحكم عليه من مجرد مقابلة لم تتعدّ عشر دقائق.

"كلنا لديه لحظة لا تعود فيها الحياة كما كانت، لكنّنا بحاجة لبداية جديدة تشهد ولادة حياة طالما توقعناها لنتغيّر في النّهاية إلى ما نريد"

الصّباحات الممطرة

"هناك من لا يقبل الاستسلام،

لا يؤمن بعقيدة الخرافة

يعتنق جمال إشراقة الصباح."

أخبرونـا أن لا نكتـم مـا فـي قلوبنـا ولا نخبّـئ الـكلام، أن نقولـه قبـل أن يرثـه عنّـا سـارقي الفـرص ونحـن أحيـاء فنـرث نحـن المـوت انكسـارات وانهيـارات طائلـة تضـمّ إلـى أرصدتنـا.

أخبرونـا كذلـك أن نخبـر كلّ الذيـن نحبّهـم أنّنـا نحبهـم، لأنّ الحـبّ وللأسـف قـد لا يصـدّق البعـض أحاسيسـه ويحتـاج أن نتكلّـم عنـه فقـد نحقّـق أمنيـة مـا.

ماذا عن تلك الأمنيات القريبة، البعيدة؟

أيعقل أنّ الأحلام تميل للاستحالة دائما حتّى ولو كانت بسيطة جدّا؟

هنـاك أمـان الفـارق بينهـا وبيـن تحقيقهـا بضـع أمتـار، مـاذا عـن ذلـك الـذي يتمنّـى رسـالة مـن شـخص يحبّـه؟ تكبـر الأمنيـة رغـم أنّهـا لا تسـتحق أن تنعـت بذلـك، لكـن هنـاك مـن ضمّهـا فـي قامـوس أمنياتـه ويسـتغرق أيّامـا فـي الدعـاء لأجلهـا ويبخـل مـن بيـده كتابتهـا، تلـك الّتـي كانـت سـتغيّر الكثيـر بالنسـبة لمنتظرهـا ألهـذه الدّرجـة اتّسـع قامـوس الأمنيـات ليضـم مصطلحـات؛ كنظـرة، ابتسـامة، سـلام وكيـف الحـال؟

هنا.. في منتصف الأماني يقف:

من يتمزّق شوقا لشخص بعيد

من يراقب هاتفه بانتظار مكالمة بعد طول إهمال

من يشعر بالوحدة بعد انتظار طويل..

من يبكي على أيّام لن تعود.

أمّا في الحبّ..

هناك من تتقدّم به أمنيته أو يتراجع للأبد

من يقترب إلى آخر لحظة أو يخسر في الأخير بالاستسلام..

من يختار الموت ثمّ الموت مرارا ليعيش عليه بالنّهاية

وآخر ينهي كلّ شيء ولا يخوض الحبّ.

لقاء آخر..

استطاع تيم الدّخول للكليّة كما فعل في المرّات السابقة، كان يعتقد أنّ الحياة تستحقّ الإفراط في الجنون، في هذه الأثناء بينما هي جالسة لوحدها كعادتها قطع حبل تفكيرها قائلا:

مرحبا..

هزّت برأسها فوق تحت ترسم ابتسامة خفيفة، نظر إليها ثمّ سألها عن حالها: (شلونج)؟

نظرت مستغربة، تردّدت ثمّ نطقت أخيرا:

أهلا وسهلا، لكن.. أنت من بلد آخر؟؟

أنا تيم من العراق، أدرس في المعهد العالي للموسيقى.

سألته مباشرة: عراق؟ ضحكت ثمّ أردفت متعجّبة: أنت تمزح، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ من أجل أن تدرس في معهد الموسيقى؟

ضحك تيم ولم يجب.

عفوا.. آسفة، ردّت بصوت متردّد.

حدّق بها ثمّ أردف: ولم الأسف؟

لم أقصد التدخّل فيما لا يعنيني فأنا أعتذر. ردّت بلهجة

ضحك مرّة أخرى وتمتم بصوت خافت متردّد: أتمنّى أن يعنيك أتمنى جدّا.

يـا لهـذه الضحكـة، كـم يبـدو وسـيما، طيّبـا وعفويّـا قالـت فـي نفسـها، صمتـت برهـة ثـمّ اسـتأذنت فـي الانصـراف، لكنّـه اسـتوقفها:

لحظة.. لم تخبريني ما اسمك؟

أجابت بحزم: ولماذا؟

لم ينطق بكلمة وحدّق في عينيها مطوّلا، فأخفضت نظراتها نحو الأسفل.

أعاد سؤاله فأجابته: رودينا.

بابتسـامة هادئـة أخبرهـا عـن جمـال اسـمها متحدّثـا: (فـدوه، اسـمك كلّـش حلـو)، ثـمّ أردف بمزحـة طريفـة: أنـا تيـم للتّذكيـر.

شـعور غريـب انتابهـا، تلـك المشـاعر بداخلهـا بـدت مبهمـة، لا تـدري أهـي ردهـة سـعادة، تلـك الّتـي لـو أتـت سـيعجز القلـب عـن فهمهـا كأنّـه شـخص تعرفـه مـن قبـل، كان جريئـا ويسـتطيع قـول كلّ شـيء يريـده.

ارتبكـت بعـد مـا قالـه، محاولـة الهـروب اعتـذرت مـرّة أخـرى: لـديّ وقـت قليـل متبـقٍ للـدرس

ليس لديك شيء لا يزال وقت محاضرتك، لماذا تتهرّبين من حديثي؟

لم تقل شيئا وصمت يعترف أن لا مفرّ.

أتعلمين بما أشعر الآن رودينا؟

أحسـت بشـيء هزّ كيانهـا، تقـول فـي نفسـها: لـمَ يخاطبنـي باسـمي كأنّـه يعرفنـي منـذ زمـن؟ تنهّـدت ثـم ردّت بمـاذا؟

تملّكه الخجل فجأة، ثمّ قال: أخاف أن تخطئي فهمي لكن...

يكاد قلبه يسقط، خائفا من ردّة فعلها فظلّ واجما:

على أيّـة حـال رودينـا، سـررت بلقائـك لـن آخـذ مـن وقتـك أكثـر، أتمنّـى أن تجمعنـا صداقـة، بعـد أن انصـرف تيـم كأن ارتيـاح سـريع قـد سـرى بأوصالهـا، تخلّصـت مـن إحسـاس القلـق والإحـراج ذاك.

بعـد أن عـادت رودينـا للبيـت، أخـذت تسـاعد أمّهـا فـي إكمـال مـا تبقـى من أشـغاله، كانـت تسـرع فـي كلّ مـا تقـوم بـه فالأيّـام قصيـرة جـدّا وتحـاول إتمـام كلّ شـيء لتسـرق وقتـا للدراسـة.

حولّـت غرفتهـا إلـى معـرض للوحـات، بعـد أن كانـت جدرانهـا صمّـاء، تسـتطيع بمجـرّد الدخـول إليهـا اكتشـاف أنّهـا لفنّانـة، بيـن كلّ هـذا وذاك كانـت تضـع لـكلّ لوحـة عنـوان خاطـرة، مـن حيـن لحيـن تحـاول كتابـة مـا تعيشـه، تجمعهـا تحـت عنـوان "خواطـر رودينـا".

بينمـا هـي توشـك علـى إكمـال ترتيـب سـاحة البيـت، تبقّـى ربـع سـاعة لآذان المغـرب، انقلـب الطقـس وبـدأت تمطـر، وقفـت هنيهـة تنظـر إلـى السـماء لتسـقط القطـرات علـى وجههـا، بعدهـا أسـرعت نحـو الصالـة أيـن تجلـس قمـر وشـهد. الآن وقـد نـاد المـؤذّن توضـأت الأمّ زينـب ثـمّ لحقتهـا رودينـا، أخذتـا تصليـان جنبـا إلـى جنـب، وبعـد تتمّتهـا جلسـت وكتبـت لأوّل مـرّة:

"واظبـت علـى فـرض الصّـلاة فـي عمـر الصّبـا، أظنّـه الثّامنـة، مـرت سـنين العمـر كلمـح البصـر، انحيـازي للهـدوء أو كمـا يصفـه بعـض البشـر بالانطوائيـة جعـل منّـي هاويـة للفـنّ التّشـكيلي، كنـت أعتبـره أول طريـق للجنّـة.

تخطّيـت العشـرين مـن عمـري ولازلـت أشـعر بذلـك؛ فالعزلـة بلوحـة، ريشـة وأقـلام أنقذتنـي مـن أن أكـون جليسـة بيـن مقاعـد الغيبـة والنّميمـة ومراقبـة الآخريـن وغيرهـا مـن التّجمعـات النسـوية السّـخيفة.

فالعالـم جميـل كمـا ترسـمه اللّوحـات وكوننـا يزعجنـا الحديـث عـن مـا لا يعنينـا يجعلنـا نتّهـم بالتعالـي، طبعـا لـم يكـن نوعـا مـن الغرور لكنـه أشـرف سـلوكيات التكبّـر "التّرفـع عـن القيـل والقـال" لا تهمنـي تلـك الخطابـات المتكـررة "فلانـة تزوجـت طبيبـا درس معهـا، وأخـرى حامـل فـي شـهرها الثامـن، تلـك سـافرت وتلـك فاتهـا قطـار الـزواج.."

ومـا يـدور عـن خصوصيـات النـاس فمـا شـأن العالـم فـي مـالا يعنيـه. لا أهتـم لذلـك ولـن تجبرنـي تلـك الملتقيـات علـى ذلـك أبـدا.

أمّـا غيـر ذلـك فحاجتـي للانفـراد بنفسـي كانـت تعنـي أنّـي أملـك حديثـا لا يسـتوعبه أحـد غيـري، فأحيانـا نحتـاج للغربـة بعيـدا عـن ضجيـج النفـاق، كقريـة هجرهـا البشـر فـازدادت خضـرة وجمـالا، البشـر حقّـا يفسـدون كلّ شـيء.

فـي بداياتـي كنـت ضعيفـة فـي الـــدّراسة، لكـن كانـت لـديّ نـوع مـن الغيـرة اتجـاه المتفوّقيـن جعلتنـي أجتهـد حتّـى أصبحـت مـن الأوائـل، وضعـت وقتـا كبيـرا للدّراسـة رغـم أنّنـي لـم أملـك يومـا مكتبـا ألقـي عليـه دفاتـري، أو حتـى متسـعا أركـن فيـه مكتبـا، أيـام كان فيهـا الحلـم بيتـا صغيـرا، مكتـب وشـرفة.

كانـت الحيـاة فـي غيـاب أب تعـج بالفوضـى وانعـدام التركيـز رغـم كل هـذه المطبّـات التـي كانـت تبعثرنـي بطريقـة عشـوائية، تسـقطني وأنهـض، لـم يتمكّـن منّـي اليـأس يومـا كان السـقوط يدفـع بـي للنهـوض مجـدّدا.

لـم أتقبّـل يومـا فكـرة تفـوّق شـخص علـيّ، لذلـك كنـت أجهـد نفسـي كثيـرا، أدرس فـوق طاقتـي، أتجاهـل الظـروف وأحمّـل نفسـي مـا لا طاقـة لهـا بـه.

طالمـا أحببـت الأولويّـة والريـادة، طالمـا كانـت أحلامـي تفوقنـي، لـم يكـن لـديّ حلـم يـوازي منظـار عينـي كنـت ولازلـت بالغـة التّمنّـي، أحمـل أعلـى درجـات الطّمـوح، لـم أختـر يومـا أن أكـون عاديـة وتزعجنـي المـرأة التقليديّـة ذات الروتين المعتـاد..."

جلست في مكانها، أمسكت دفترها وأكملت:

ماذا لو قلت أنني تخطيت العشرين من العمر ولم يعطني الحبّ فرصة؟

لم أحظَ بقصة حبّ ولم التقي الشخص المناسب بعد،

لـم يخترنـي أحد بحياتـه، لـم أكـن محظوظـة إلـى هـذه الدّرجـة أبـدا، تبـدو وكأنهـا كذبـة لكنهـا أصـدق منـه ذلـك الـذي قـد يكـون لا حـظّ فيـه "حـبّ هـذه الأيّـام" ، "الحـب الأجـوف" بعيـدا عـن الحـبّ المحظـوظ الّـذي تداركتـه المسـافات، ذلـك الـذي يكـون خلـف الشاشـات.

تحـت مـا يسـمّى بالحـبّ الالكترونـي الـذي كسـر الحواجـز واسـتطاع أن يعبـر الحـدود ليكـون بلقـاء مسـتحيل، ذلـك الـذي يولـد بيـن مفاتيـح الكترونيـة فـي موطـن التواصـل الاجتماعـي بـأرواح قريبـة تفصلهـا أميـال، بلمحـة صـورة ونبـرة صـوت، برسـالات زرقـاء وحـروف سـوداء.

ذلـك الـذي قـد يولـد ويدفـن بنفـس الوسـيلة حيـن تكـون الصـور مزيفـة والـكلام مقتبـس والاسـم مختـرع والمشـاعر مصطنعـة، تلـك الّتـي اخفـت الملامـح وجعلـت الـكلّ يتسـوّل الحـبّ، ليقـع فـي مشـنقة عالـم يدّعيـه، ذلـك الحـبّ الأجـوف الخالـي مـن العمـق بقلـوب تتواعـد بالفـراق لا باللّقـاء التـي جعلـت مـن الحـب شـيئا سـخيفا، فأنـا لا أسـتطيع المجازفـة بمشـاعري فـي عالـم وهميّ."

(بعض من الفضفضة.. رودينا)

كانـت فـي كلّ مـرة تلقـي بمـا يجـول فـي خاطرهـا بيـن أحضـان الـورق، حيـن أكملـت تلـك الفضفضـة، لـم تسـتطع فعل شـيء بعد ذلـك سـوى أن تتخلّـص مـن التّعـب بالنـوم، قامـت بسـحب الوسـادة ومـا إن وضعـت رأسـها عليهـا غفـت. بعد حيـن حاولـت أمهـا إيقاظهـا للعشـاء ودون وعـي أخبرتهـا أنّهـا لا تريـد ذلـك فتركتهـا ترتـاح، وضعـت عليهـا غطـاءً وأطفـأت النّـور.

أمطـرت السّـماء طيلـة الليـل ولـم تتوقـف، فـي الصبـاح اسـتيقظت الأم باكـرا، حضّـرت الفطـور وبعـد أن نهضـت رودينـا بتكاسـل، أخـذت تزيـح الغطـاء عـن أختيهـا حيـن اقتـرب وقـت الذهـاب للمدرسـة.

صباح الخير أمّي، فردّت:

صبـاح النـور، لاحظـت رودينـا اصفـرار وجـه أمّهـا حيـن وجهـت نظراتهـا إليهـا، بـدت متعبـة خاطبتهـا قائلـة:

ما بك أمّي؟ أرجوك أتركي كلّ ما بيدك، لن تفعلي شيئا سوى أن ترتاحي.

لا شيء بنيّتي غير أنّ الألم بأسفل ظهري، لم يتركني أنم طيلة الليل.

تأففـت رودينـا ولـم يعجبهـا رؤيـة أمّهـا بهكـذا حـال: تعالـي ودعينـي أحضّـر قمـر وشـهد، فالحمـد للـه أنـا اليـوم لا عمـل لـديّ، تكـذب لأجـل أن تبقـى فهـي تعـرف تمامـا أن زينـب لـن تتركهـا إن قالـت الحقيقـة، كانـت كلّمـا رأت أمهـا بحالـة سـيئة اتخـذت الكـذب لأجلهـا وسـيلة.

بعد أن انصرفت أختيها نحو الإعدادية، أمضت اليوم تهتم بأمّها إلى أن تحسّنت، كانت تعود بها تلك الحالة المرضية من حين لحين مذ أن تحمّلت مسؤولية أب وأمّ، لذلك ارتبط الوضع بحالتها النفسية التي أساءت بصحتّها.

عشية يوم الخميس وحال زينب أصبح رائعا على غرار ما كانت عليه.

في الغد، بعد صلاة الجمعة، اجتمعت الأسرة الصغيرة لتناول الفطور، الفول المدمّس مضاف إليه عصير اللّيمون وزيت الزيتون والفلفل الأحمر، وقبل أن تباشرن بالأكل، نظرت رودينا إلى أمّها نظرات تعاتبها على غفلتها عن نفسها وتفكيرها الزائد الذي أنهكها، وبينما هي تسكب في صحنها قالت بنبرة ضعيفة:

سعيدة لتحسنك أمّي، لكنّك تجهدين نفسك، ولا تراعين راحتك النفسيّة، بدا وجهك شاحبا أمس.

أجابت الأمّ بابتسامة: لا عليك عزيزتي، كلّ شيء بخير.

أمّي أريد جوابا حقيقيّا: هل أزعجك ذكر أبي في الحديث مساء ذلك اليوم؟

لا.. أبدا رودينا، كل ما في الأمر لم يهن عليّ اشتياقكم له، احتياجكم له، وما يعذب قلبي أكثر...

بعدها أحسّت رودينا بالذنب لسؤالها بعد أن رأت دمعتها تكاد تفلت من عينيها وأخفتها ببسمة وقبل أن تكمل الحديث قاطعتها: لا شيء مهمّ سواك أمّي.

أجابت ضاحكة: حقّا..؟ أحسنت بالمراوغة

قالت بثقة: بالطّبع من غيرك يستحقّ؟

تنهدّت زينب برضا وراحة وردّت: آه رودينا كالوردة أنت، ليس لك شبيه.

إنهـا السـاعة التاسـعة مسـاءً، مـرّ اليـوم بسـرعة وانقضـى، نـام الجميـع مبكّـرا، أمّـا رودينـا لـم تسـتطع ذلـك، بعـد حيـن عـمّ هـدوء اللّـــيل، تصبـح دقّـات السـاعة مسـموعة، مسـتلقية تنظـر للسـقف والظلمـة دامسـة لا تـدري مـا الّـذي يشـغل بالهـا، تتشـتت الأفـكار فـي ذهنهـا، تبعثـر روحهـا.

مـرّ الوقـت وصـوت أمطـار غزيـرة يعلـو مسـامعها، أخـذت هاتفهـا لتنظـر كـم السّـاعة، تجـاوزت منتصـف الليـل بثـلاث وعشـرين دقيقـة، كان صـوت المطـر يؤنسـها إلـى أن غفـت.

تجاوز الليل ظلمته ولم تتوقف الأمطار، كانت ليلة ممطرة جدًّا.

"مازالـت فينـا بـراءة الطّفولـة، لازلنـا نؤمـن أنّنـا حيـن نسـقي قبـور موتانـا بوصـول المـاء لهـم، فنصـبّ بقـدر مـا نحبّهـم".

فـي صبـاح يـوم الأحـد، كان الجـوّ مشـرقا، اسـتغربت رودينـا رؤيـة صديقتهـا سـهى تتحـدّث إلـى ذاك الشّـاب، بعد أن لمحتهـا قالـت فـي نفسـها: لا بـدّ أنّـه يعمـل نسـخة لكلامـه مـع الكثيـرات.

أكملـت طريقهـا نحـو المـدرّج ومـا إن جـاءت سـهى لـم تقـل شـيئا ولـم تـرد سـؤالها ولا إدراج الحديـث عـن ذلـك، فرغـم أنّهـا صديقتهـا فهـي لا يمكنهـا حتّـى الاستفسـار عـن أشـياء لـم تخبرهـا هـي بهـا.

تبادلتا كلاما كثيرا كالعادة ولم تذكر سهى شيئا يتعلّق بتيم.

إحسـاس غريـب انتـاب رودينـا، شـعور بحـزن شـديد يتدفّـق بقلبهـا، تحـاول تجـاوزه ونفسـها تقـول:

سـهى أختـي ورفيقتـي وابنـة عمّـي، زميلتـي والصديقـة الأقـرب لـي، طالمـا مسـحنا دمعـة بعـض فـي كلّ لحظـة بكينـا فيهـا، سـاندنا بعـض، عشـنا وكبرنـا سـويّة، كلّ هذا جعلها تتحاشى فكرة أنّها تخفي شيئا، غير ذلك لا شيء مهمّ ولا تـدري لمـاذا انزعجـت.

كانـت سـهى تصغر رودينـا بثـلاث أشـهر، نحيفـة، ذات قامـة طويلـة، شـعر قصير أسـود وبشـرة بيضـاء، عينـان واسـعتان بلـون يميـل للخضـرة تشـبه أباهـا كثيـرا.

مرّت أيّام..

اسـتغرب تيـم تجاهـل سـهى ولمـاذا لـم تـردّ عليـه، انتابـه شـكّ أنّ شـيء أزعـج رودينـا وقـرّر البقـاء بعيـدا وظـلّ يراقـب بصمـت..

فـي إحـدى أيّـام الإضـراب الـذي أقامـه طلبـة الفنون لأجـل تحقيـق مطالبهـم، تحديدا ثانـي يـوم، كانـت السّـاعة قـد تجـاوزت الحاديـة عشـر بدقائـق خمـس، هنـاك عنـد مخـرج الكليّـة تـمّ غلـق البـاب مـن طـرف بعـض الطـلاّب لمنـع دخـول البقيّـة، كان الغالبيـة يقـف خارجـا فـي تجمّعـات، كانـت الأصـوات مرتفعـة جـدّا وكان تيـم يبتعد عـن خليـل وبقيّـة أصدقـاءه باحثـا عـن رودينـا .يقـف وحيـدا يفتّـش فـي هاتفـه تـارة ثـمّ يمشـي بيـن الجمـوع ويرجـع أخـرى، فـي لحظـة رفـع تيـم عينيـه رآهـا، كانـت تتحـدّث عبـر هاتفهـا تتقـدّم وتتراجـع خطـوات، ترفـع شـعرها المنسـدل علـى حـدود وجههـا فـي قلـق، أنهـت الاتّصـال وسـرحت للحظـات، لـم تكـد تدخـل جوالهـا بالحقيبـة إلـى أن ارتفـع رنينـه مـن جديـد فـردّت بسـرعة، كـرّرت المحادثـة هـذه المـرّة وهـي تبكـي، اقتـرب قليـلا، نظـر إلـى يدهـا رآهـا ترتجـف، جـنّ جنونـه، انتظـر حتّـى أقفلـت ثـمّ اتّجـه نحوهـا قـال بلهفـة:

أأنت بخير؟

بالكاد استطاعت الردّ عليه بكلمات متقطّعة وصوت مرتبك قالت وهي تحاول مسح دموعها:

بخير الحمد لله...

في حين بدت علامات الاستياء على وجهها في حين تأفف تيم في داخلها مجيبا:

لا يبدو أنّك كذلك، رأيتك للتوّ تبكين، أتحتاجين مساعدة؟

لم تستطع رودينا السّيطرة على الدمعة التي داهمتها وقالت منصرفة أمّي ليست بخير.

كانت ذات قلب رقيق، سريعة التأثّر وحين يتعلّق الأمر بأشخاص تحبّها، يظهر عليها التّوتر، تتغيّر نظراتها، تحاول بها إخفاء دموعها.

يئس تيم، ولم يجد خيارا أمام عينيها الممتلئتين بالدموع سوى الصّمت، خوفا من أن لو قال شيئا أفاضها.

بعد بضع ثوان اعتذرت متجهة نحو البيت، أحضرت طبيبا يعاينها وكان كل شيء على ما يرام سوى أن الإجهاد النفسي قد تسبب في خفض ضغط دمها ومن ثمّ الإحساس بالدوار الدائم، تمكّن من إعطائها دواء ونظاما غذائيّا يساعدها ونصحها بالراحة.

***

ظلّت الأمّ زينب نائمة لعدّة ساعات بعد تناول المنوّم، كانت رودينا تراقبها باستمرار وبعد عودة التوأمتين من الإعدادية أحدثتا صوتا أيقظها، فتحت عينيها ولم تعد تشعر بالغثيان والدّوار، على الأقل اختفى ذاك التّعب.

تحدّثت إليها رودينا:

أمّي، أخبريني هل تشعرين بتحسّن؟

شدّت على يدّها وقالت: أشعر بتحسن كبير

اطمأنّت لزوال تلك الحالة التي كانت تنتابها من حين لحين، رغم أن التشخيص كان يؤكد مرارا سلامتها الجسديّة، لكن ذاك الإرهاق ظل يطاردها، تخفي صمودها وتماسكها وداخلها منهار، ليفضحها في كلّ مرّة.

الآن السّاعة التاسعة ليلا، لم تنم رودينا وهي تمضي الوقت في التحضير للامتحانات، تجتهد كثيرا في ذلك وتتحمّل التعب، تغفى وتستيقظ تقاوم النوم، ذهبت لتلقي نظرة على أختيها وأمها ثمّ رجعت، جلست على مكتبها تأففت ثمّ أغلقت حاسوبها ولملمت أوراقها جانبا، سرحت واضعة يدها على وجنتها ثم بكت.

تبكي من فرط المسؤوليات الّتي باتت تحاصرها رغما عنها فقد باتت تعاني الضغط، كان من اللازم أن يأخذ ثباتها نقطة ينهار فيها بينها وبين نفسها فيفيض الكأس لتستعيد روحها من جديد، كي تستمر.

تمضي الأيّام تباعا ولا تترك من ورائها سوى الذكريات ونحن في خضمّها نتأرجح بين الحزن والفرح، استمر الإضراب بالجامعة واستغلت رودينا الفرصة بالبقاء في البيت لأجل أمّها من جهة ولاغتنام وقت للمراجعة من جهة أخرى، وقد كان لها ذلك كلّ شيء كان على ما يرام.

إلّا أنّ تيم مرت عليه عجافا، لم يتمكّن من التواصل مع سهى لعدم استلطافه لها .

لكلّ منّا حكاية..

والبدايـة الحقيقيـة كانـت بعـد أن عـادت رودينـا، هـذه المـرّة لـم يتبـقّ لتيـم أيّ اختيـار آخـر سـوى أن يستسـلم لمـا يقولـه قلبـه، ذاك القلـب الـذي يتصـل بـكل شـيء يحبّـه ودونـه يختـار التوقّـف، لكـن هنـاك أشـياء لا نجـد لهـا كلمـات بـل يجـب الشـعور بهـا وحيـن تداهمنـا الظـروف نختـار الإفصـاح..

حـدّد تيـم موعـدا مـع رودينـا فـي آخـر لقـاء لهـا بعـد أسـبوع ممـلّ أمضـاه فـي غيابهـا، طـال غيابـك وانتظـرت أن تجيبـي علـى رسـالتي وأتعبنـي التّفكيـر، صراحـة منـذ وقـت وأنـا آتـي للجامعـة فقـد مـن أجـل مراقبتـك، أفتـش فرصـة توصلنـي للحديـث وإيّـاك ولا تحـدث وكان اليـوم يمـرّ سـيئا بمقـدار الانتظـار.

تفاجأت رودينا قائلة: عن أيّ رسالة تتحدّث؟

أدرك تيم بعد سؤالها صدق توقعاته ولم يعر ذاك اهتماما وأكمل:

فـي تلـك المـرّة التـي كنـت تبكيـن شـعرت بضعـف أمـام دموعـك وقـد اعتـدت صـورة ابتسـامتك، ولـم أسـتطع فعـل شـيء حيـال ذلـك.

لم أشعر يوما بما أشعره حين أراك.

سـألتك مـرّة لمـاذا تتجنّبينـي، لـم تجيبـي، لـم يكـن ضـروري قـرأت الإجابـة فـي عينيـك. وفـي كلّ مـرّة يراودنـي سـؤال:

هل تستشعر بمراقبتي؟

تقول في نفسها: كيف لم أنتبه لكلّ هذا؟ أصلا ما الذي يريد الوصول إليه؟

كنت أريد رؤيتك لو حتّى للحظة، صدفة، تميّزك ليس عاديا

بدت هي مرتبكة لما سمعته، لم يحدث أن قيل عنها واهتم لأمرها هكذا.

هذه فرصتي الأخيرة لذا قررت مفاتحتك بالموضوع، قال تيم بعد أن اعتذر..

صدق فهد العودة حين قال: الاهتمام هو كذبتنا الأولى، لكن لن نستطيع اكتشافها بحجم ما نراها صادقة، تلقي بالعقل جانبا ويحتل القلب كلّ شيء.

الاهتمام شيء لا نستطيع إهداءه للجميع، شيء صادق نادر ويعتبر أولى براهين الحبّ، إلّا أنّه أحيانا وحدها كذبة الاهتمام رسمت بدايات الحبّ.

صمتت رودينا ثم سألته مشكّكة: وماذا بعد كلّ هذا الحديث؟
لا أعتقد أنك لم تفهمي سبب اهتمامي هذا كلّه، بعد ذلك قال تيم منصرفا أتّمنى أن يكون لنا حديث آخر.

****

كانت رودينا تقف وحيدة لبعد أمتار وكانت تسدّد نظراتها إلى تيم وبعد أن كانت تمارس التجاهل لا تعلم لمَ ذاك بالذات بدا غير عاديّ!
تيم كان شابا في مقتبل العمر بنفس سنّها، لكن لا يشبهها أبدا كان يبدو شخصا متمرّدا، جريئا، صريحا، لا يتقن فن التجاهل بينما كانت هي لا تملك شيئا من تلك الجرأة.
مرّت عدّة أيام..
وكان اهتمام تيم برودينا يزيد وخاصة حين اكتشف من تصرفاتها الخجولة أنّها لم تجرّب الحبّ قطّ، تلك الجوهرة لم يحبّها أحد ومن المفروض أن يقع حتى الجماد في غرامها.
كان تيم يتقن فن التلاعب بالكلام وكانت لها أجوبة تدمّر نواياه الأولى وتقدّم أخرى، كان تجبره على احترامها في كلّ مرّة.

رغـم أنّـه غالبـا مـا كان يحـاول العبـث بمشـاعرها، كانـت تعـرف التعامـل وكانـت مشـاعره هـو تتجـه نحوهـا.

كانـا الطرفـان يتعرّفـان إلـى بعضهمـا أكثـر فأكثـر وكان تيـم مختلفـا فـي تعاملـه معهـا، اهتمـام زائـد، ورغبـة فـي معرفـة تفاصيـل أكثـر، كانـت شـخصا موثوقـا، يرتـاح للـكلام معهـا، تشـبه الطمأنينـة بعـد انهيـار عظيـم، متفهمـة وإيجابيـة لحـدّ كبيـر، تحسـن الظـن فـي كلّ شـيء ولا تفتـح مجـالا لسـوئه، بعيـدة جـدّا علـى النّكـد، تغفـر الأخطـاء ولا تقـف عندهـا، تتجـاوز لا تحقـد، ونقـاء قلـب يشـبه الخيـال، تهتـم بالتفاصيـل إلـى حـدّ كبيـر، اجتمعـت فيهـا خصـال لا يمكـن أن تجتمـع فـي غيرهـا. أحبّهـا تيـم لعفويتهـا ومشـاعرها وأحبّتـه لذاتـه، مـع الأيّـام تطـوّرت صداقتهمـا إلـى علاقـة حـبّ مجنونـة.

"أولئك الذين يهتمون بأدّق تفاصيلنا، يستحقون العشق دون سواهم"

نسمة هواء متهوّرة

"هناك أسطورة قديمة تقول:

أنّ الغمّازات في الخدود هي عبارة عن قبلة من الملائكة،

وأخرى تقول أنّها حفرة الشيطان، ولولا العلم كنّا سنميل للأولى للطفها وجمالها"

مهمـا طالـت أيـام الغربـة لا بـدّ أن تأتـي تلـك الصباحـات الممطـرة، تعبـث بـكل الأشـياء مـن حولنـا، تنسـج لنـا أحلامـا مـن جديـد، تبعثـر ضحكاتنـا وتبـدد حناجـر صمتنـا، تخلـق لنـا فرحـة منمقـة لتكـون بتفاصيـل مختلفـة، تأتـي دون إنـذار، تـزداد بهـا ضربـات القلـب ويزاحـم التفكيـر كل انشـغال ونظـل نطـرق بـاب الصّدف، لـم نكـن هكـذا إلّا بعـد أوّلهـا.

أوّل صدفة...

فجأة

جعلتنا نقف أمام باب لم نطرقه قطّ

طريق.. كنّا فيه غرباء

حتى اللّحظة التي..

نطقنا فيها بأوّل مرحبا

ولا نعرف ما الشعور الذي..

ألغى المسافة بيننا.

وحصر مساحات الحنين.

كان تيـم مختلفـا جـدا، بالنّسـبة لرودينـا، اثنيـن جمعتهمـا الصدفـة، التـي قيـل عنهـا أنهـا خيـر مـن ألـف ميعـاد، لكـن أحيانـا تأتـي الصّـدف كعواصـف دون موعـد فتغيـر كل شـيء للأفضـل أو للأسـوأ.

أمّ تيـم طبيبـة أسـنان سـوريّة الأصـل تدعـى أمـل، ارتبطـت بوالـده الـذي تعرّفـت عليـه فـي إحـدى زياراتهـا للعـراق وظلّـت تقيـم هنـاك.

استطاع تيم البقاء عند جدّته وخالته الصغرى بسوريا أكثر من سنتين، يغتنم العطل فيها للرجوع للعراق.

اليوم وبينما كان تيم مستلق على سريره، مستسلم للتفكير، دخلت هبة خالته الصغرى تحمل كوب شاي وجلست بقربه، لاحظت أنّه يبالغ في الشرود هذه الأيّام، سألته مبتسمة:

ماذا تيم؟ ما بك؟

بخير وأنت؟

ما هذا الجواب المختصر؟ قالت في نفسها ثمّ سألته وهي تلمّح: هل تفكّر في شيء؟ ما الذي يزعجك؟

أغمض عينيه ثمّ ابتسم قائلا:

لا شيء، لا تقلقي..

أحسّت هبة أنّه يخفي شيئا، فقد كان يتبادل معها الحديث بمزاح وضحك، لكنّه على غير العادة أصبح ينفرد بالجلوس.

لمّحت له بنظراتها أنّها غير مصدّقة، ثمّ أعطته الكوب قائلة:

أمسك بحذر فهو ساخن، بالصحة والعافية حبيب خالته

ردّ متشكّرا ثم ختم قائلا: تصبحين على خير.

صمتت قليلا، ضحكت وهي تغادر الغرفة ممازحة: أيّها الكاذب.

كانت الساعة العاشرة مساءً، أمسك هاتفه، تردّد قليلا ثمّ بعث برسالة لرودينا في حسابها على موقع التّواصل الاجتماعي،

لم أرك منذ الأمس، كيف حالك؟

لاحظ بعض ثلاث دقائق قراءتها للرسالة، مرّت ربع ساعة ولم تردّ.

بعث بأخرى: ما الأمر لمَ لا تردّين؟

كتبت في خانة الرسائل بخير وأنت؟

الحمد لله..

كيف كان يومك رودينا؟

متعبا قليلا..

فعلا.. ما الذي يشغلك أنت؟

شغلت كلّ وقتي بالبيت وقسمت الباقي بين وضع بعض الرّتوش على إحدى اللّوحات ومراجعة بعض المحاضرات وأشياء أخرى..

ضحك قائلا لم أفعل شيئا سوى الرياضة والأكل.

أجابته: طبعا وما الذي سيكون؟

والتفكير بك، أردف حينها

ارتبكت ولم تستطع الردّ

ثمّ كتب: سامحيني رودينا

وفي نفس الوقت هي كتبت: أحقّا؟

كثيرا ثمّ تبعها بمعزوفة أرسلها لها من تأليفه أخبرها أنها أوّل من تسمعها.

***

" لم يكن حبّك صدفة، لا تأتي الصدف هكذا، لا تطيل السّكن فينا

الصدفة لحظة، محطة، مرحلة، تختار أيّ شيء سوى الحبّ

الحبّ نصيب وقدر تنتهي بقرار.

لـم يسـتطع النّـوم بعدهـا وأمضـى اللّيـل كلّـه مشـغول البـال، أيعقـل أن الإنسـان بسـيط لهـذه الدّرجـة؟ رغـم كلّ شـيء يظـلّ كلّ مـا يحتـاج إليـه هـو الحـبّ، الديانـة الّتـي يعتنقهـا الطّاهـرون فـي الحيـاة السـعيدة.

أمسـك هاتفـه مجـدّدا يحـاول الاتّصـال بأمّـه، الضـوء الأخضـر مقفـل، السـاعة الحاديـة عشـر إلّا دقيقتيـن، اتّصـل علـى رقمهـا، أقفلـت الخـطّ ثـمّ عـاودت الاتصـال برصيدهـا، لا تسـتغرب لذلـك فهـي تعـرف أنّ ابنهـا مجنـون قـد يتصـل فـي أيّ وقـت، طلـب منهـا أن تفتـح الكاميـرا، وقـال أنّـه مشـتاق لهـا ويريـد رؤيتهـا.. بينمـا فـي الحديـث معهـا أراد أن يخبرهـا عـن رودينـا ثـمّ تراجـع، راوده سـؤال مـا الّـذي سـيقوله عنهـا ولا شـيء يثيـر الاهتمـام.

لاحظت أمل من كلماته أنّه أراد الإفصاح عن شيء، ثمّ غيّر رأيه قائلة:

تيم ما الّذي تريد قوله؟

لا شيء أمّي.. ردّ قائلا.

ألحّت عليه قليلا: أحسّ أنّك تخفي شيئا، أتخفيه عن أمّك؟؟

بعد أن أنكر ذلك ختمت: ستأتي عمّا قريب بنيّ، اهتمّ بحالك.

(فديتك).. ردّ عليها.

فـي الضفّـة الأخـرى مـن أرض الياسـمين، ليلتهـا كانـت وفـي ذاك الوقـت لا تـزال منهمكـة فـي تلـك اللّوحـة بينمـا هـي كذلـك احتاجـت لفرشـاة مسـطحة تعينهـا علـى تكملـة بعـض التفاصيـل، فتوقفّـت لأنّهـا لـم تجدهـا كسـبب ولسـبب آخـر مـن شـدّة الإعيـاء تركـت مـا بيدهـا فركـت أصابعهـا واتـكأت تريـح ظهرهـا بقيـت مـدّة تسـأل نفسـها عـن تيـم، تبعثرهـا الأفـكار هنـا وهنـاك، كلّ شـيء كان مبهمـا بالنسـبة لهـا ثـم قالـت بصـوت منخفـض جـدّا: سـأترك الأيّـام تجيـب..

أصبحـت لرودينـا رغبـة فـي التّحـدّث إلـى تيـم، أن تكـون صديقـة لـه ومعرفـة المزيـد عنـه، لكنّهـا اختـارت الوقـوف فـي المنتصـف بيـن مـا يريـده قلبهـا ومـا تمليـه الأيّـام، كانـت مـن النّـوع الـذي يخـاف البدايـات، لا تتـرك مجالا دون مسـافة، تلـك المسـافات الّتـي نتركهـا بيننـا وبيـن الأشـخاص، سـتحافظ علـى ودّ العلاقـات، والبعـد الجميـل يزيـد فـي عمقهـا.

***

في مساء الغدّ، بشكل غير مصدّق وجدت نفسها تلقي التحيّة على تيم:

مرحبا، كيف الحال؟

أجابها بعد أن رفع رأسه في دهشة:

ماذا أفعل غير أن أكون بخير في وجودك؟

دائما يغلب في كلامك المجاملات..

أدارت وجههـا شـمالا مـن خجلهـا ضاحكـة بهـدوء، وإذا بنسـمة هـواء متهـوّرة ترفـع بخصـلات شـعرها، تضـيء علـى تلـك الغمـازة علـى وجنتهـا اليمنـى مـا زاد جمالهـا عمقـا.

أخذتـه نظراتـه لهـا ووجهـه ضاحـكا كأن الحـظ اليـوم بجانبـه، لـم تكـن نسـمة هـواء بقـدر مـا كانـت نسـمة حـبّ.

كمسـافرين اختلطـت حقائبهمـا بالخطـأ، أخـذ كلّ منهمـا حقيبـة الآخـر دون انتبـاه ووجـد كلّ منهمـا نفسـه يفتّـش فـي أغـراض الآخـر وتفاصيلـه.

مـرّت أيّـام وليـال طـوال والاهتمـام بتفاصيـل مـا تحملـه الحقائـب يزيـد شـيئا للوصـول إلـى صاحبهـا، العثـور عليـه مـن بيـن كلّ النّـاس، ليصبـح اثنيـن تجمعهمـا تلـك التفاصيـل، يتقاسـمان الأحاديـث والضحـكات وبعـض مـن الحيـاة.

تلـك المسـافة المتّسـعة باتـت قريبـة جـدّا.

كأن يمسـك بـك شـخص عاجـز علـى الوقـوف وجـدت رودينـا الثقـة تلـك فـي الإمسـاك بتيـم، كانـت تسـتحق قلبـا ضاحكا وكان السـبب فـي ذلـك، بعد أن كانـت تعتبـر نفسـها عاديّـة، أصبحـت محـور اهتمـام أحدهـم، مختلفـة بالنسـبة لـه، يسـأل عنهـا، يلحـظ شـحوبها، دائـم الاقتـراب سـاعات الضجـر، يكتـرث لسـعادتها، يشـتاق لهـا، يفتقدهـا، يبحـث عنهـا بيـن أيامـه ويحفـظ عـن ظهـر قلـب تفاصيلهـا، شـخص يبـوح لهـا ويثـق بهـا وكلّ أفعالـه توحـي للحـبّ.

الحـبّ؟؟ لا لا لاا.. الأمـر ليـس بتلـك السّـهولة لرودينـا، حتـى أمـام تيـم رغـم أنّـه كان يعاملهـا بـكلّ ودّ، مـع أنّ نظراتـه، تصرّفاتـه كان لا يملؤهـا سـوى الاحتـرام تجاههـا .

كانـت الصديقتيـن دائمتـا الرفقـة، لكـنّ تغيّـر سـهى المفاجـئ جعل رودينـا تسـتغرب مـا كلّ هـذه التّصرفـات؟ وتفتـش فـي نفسـها عـن السـبب، فـي ذات المسـاء قـرّرت مفاتحتهـا بالموضوع:

تعالي سهى لنجلس ونتكلّم، خاطبتها برفق.

كأنّ وجهها اصفر، حاولت إخفاء ذلك وبعد هنيهة جلست قائلة: نعم

نظرت إليهـا رودينـا وسـألتها مباشـرة: مـا بـك سـهى؟ لاحظـت أنّ تصرّفاتـك بـدت غيـر عاديـة، أصبحـت تتجنّبينـني دون أسـباب أذكرهـا

هزّت كتفيهـا فـي لا مبـالاة وقالـت فـي بـرود: ألا يمكـن أن يرتـاح الشـخص مـن..

ثـم صمتـت ولـم تكمـل الجملـة غيـر أنّهـا كانـت واضحـة

تفاجـأت لهـذا البـرود، لـم تـرد إسـاءة التّفكيـر لكـن كانـت تحتـاج جهـدا نفسـيا لتحمّلـه، سـاد الصّمـت بينهمـا، ثـمّ باشـرت رودينـا فـي الانصـراف قائلـة: علـى كلّ

حـال طـاب مسـاؤك وأظهـرت عـدم الاكتـراث إلّا أنّهـا فـي تلـك الليلـة لـم يغمـض لهـا جفـن، أحسّـت بضيـق لا تعـرف سـببه وكأنّ مـا قالتـه سـهى يزيـد مـن قلقهـا ومـا لـم تقلـه يضعفهـا أكثـر، تحيّـرت ممّـا يحـدث أهـو سـوء فهـم بينهمـا أم أنّ الصداقـة فـي وقتنـا الحالـي أيضـا تحـت سـيطرة النّصيـب؟

مـرّ أسـبوع ومازالـت رودينـا منـذ ذلـك اليـوم تبصـر ناحيـة صديقتهـا الوحيـدة لعلّهـا تحادثهـا هـذه المـرّة، تعمّـدت سـهى لحظـة رؤيتهـا رفـع صـوت ضحكتهـا، ونظـرت إليهـا وإذا بدمـوع خفيفـة تسـري منهـا، تـكاد تفلـت فاسـتدارت نحـو يمينهـا محاولـة الهـروب بهـا بعيـدا، أيـن لا يسـتطيع أحـد فضحهـا ، مضـت بهـدوء وكتمـت كلّ شـيء فـي قلبهـا.

لا تـدري لـمَ كانـت تشـعر بالحـرج مـن الانضمـام لزملائهـا، ربّمـا خوفـا مـن ردّة فعـل تبديهـا سـهى، فقـرّرت اعتزالهـم فـي تلـك الأيّـام.

مـن جهـة أخـرى كأن اللـه بعـث مـن يطبطـب علـى تعبهـا، يضمّـد مـا تفعلـه حـوافّ الأيّـام الحـادّة مـن جـروح، كان تيـم شـخصا منحـه اللـه لهـا فـي الوقـت المناسـب.

مـرّت سـاعات النّهـار بسـرعة، ومنـذ وصولهـا إلـى البيـت لـم تغـادر الغرفـة، كانـت الدمـوع تـكاد تفلـت منهـا، تدخـل الهـواء إلـى رئتيهـا، تحـاول إخفـاء انزعاجهـا، غيّـرت ملابسـها ولملمـت شـعرها وبقيـت جالسـة علـى كرسـيّ مكتبهـا، تغـادره كلّ بضـع دقائـق نحـو المـرآة لتتأكّـد مـن عـدم ظهـور شـيء علـى وجههـا، لكـن بعـد مـرور أقلّ مـن سـاعة دخلـت زينـب الغرفـة، فقالـت رودينـا:

أهـلا أمّـي، كيـف حالـك اليـوم، تحادثهـا وهـي ترتّـب ملابسـها كـي لا ترفـع رأسـها، لـم تنتبـه الأمّ لشـيء ثـمّ أجابتها:

ككلّ يـوم بنيّتـي، الحمـد للـه.. بقيـتِ علـى غيـر عادتـك فـي غرفتـك منـذ مجيئـك، ظننـت أنّـك متضايقـة مـن شـيء، حاولـت الحفـاظ علـى توازنـهـا وابتسـمت فـي مـرارة وهـي تقـول: لا تقلقـي أمـي كلّ شـيء بخيـر ثـمّ لـم تسـتطع تمالـك نفسـها فضحهـا إحساسـها المرهـف.

ارتعبـت الأمّ وهـي تسـتمع إلـى صـوت ابنتهـا المختنـق مـن العبـرة وأمسـكتها مـن يدهـا بلطـف:

ما الذي جرى يا عزيزتي، قابلت والدك مجدّدا؟؟ أخبريني..

ـ لا، ليس كذلك..

سـهى البنـت الوحيـدة الّتـي تشـاركت وإيّاهـا المآسـي وأيّـام الضّيـق ومـا لنـا غيـر ذلـك، لا أعرفهـا اليـوم، تتجاهلنـي دون سـبب، أحـاول فهـم السـبب منهـا ولا تتكلّـم. ـحسـنا روديـنـا، التمسـي لهـا عـذرا ربّمـا تمـرّ بشـيء جعلهـا كذلـك. لا عليـك أمّـي سـأصبر عليهـا، أكيـد كمـا تقوليـن.. ردّت روديـنـا وقـد ارتـاحـت قليـلا مـن الضيـق الـذي كان بقلبهـا وهـي تقـول فـي نفسـها: أنـا وسـهى صديقتيـن منـذ الطفولـة، كنّـا دائمتـي الاتفـاق، لا يمكننـي التعايـش مـع التغيّـر الـذي طـرأ عليهـا، ثـمّ تأففـت وهـي تـردّد:

ستخبرني ما بها فيما بعد.

ظنّـت الأم لوهلـة لأن السـبب طليقهـا، فقـد كانـت روديـنـا ورغـم بعـد والدهـا عنهـنّ، عندمـا تشـتاق لـه تذهـب لرؤيتـه، كان يملـك محـلا للملابـس الرجاليّـة فـي إحـدى الطرقـات فـي نواحـي دمشـق فـالأب يبقـى كذلـك رغـم كلّ مـا يفعلـه وفـي غيابـه أيضـا سـتبدو الأيّـام ناقصـة والحيـاة غيـر عادلـة. و فـي آخـر مـرّة أخذهـا الحنيـن إليـه، نظـرت إليـه مـن بعيـد وقـد غـزى الشـيب شـعره، ولمـا دخـل المحـلّ

ذهبت تبحث عنه فقابلها بسؤاله:

ما الذي أتى بك؟

تمتمت في توتّر: لست أدري..

إذا؟ لا يوجد ما تفعلينه هنا

أحسّت آنذاك ببرودة لاذعة تجري في عروقها، بلعت ريقها بصعوبة، استدارت وتجمّدت نظراتها في الفراغ للحظة، ثمّ تقدمت خطوات في انكسار نحو باب الخروج ولم تنطق بكلمة.

كانت ردوده من قبل لا تختلف عمّا فعله آخر مرّة، تشعرها بالخجل والانكسار والضعف.

ما نعرفه أنّ البنت من دون أبيها يكسر خاطرها، كيف هو الشّعور حين يكون نفسه من يكسره؟

الأب الذي يجدر أن يكون أوّل حبيب في حياة البنت.

***

تمضي الحياة بسرعة وكلّ يوم كان يشهد على الضّحكة المليئة بالبكاء، على كل احتياج يخفيه اكتفاء على كلّ تنهيدة في الخفاء، على كلّ أمنية خذلت ونفثت بكلّ برود على الرغبة في الاستمرار.

مرّت السنين وغيّرت أرقام العمر، كان صعبا تجاوزها في غياب سند، لكن قد يزرع الله لدى البعض قوّة في الضعف.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً، بينما كان تيم يمسك بآلته الموسيقية (القيثارة)، يلعب عليها بأصابعه ببطء شديد، يتوقف أحيانا ويشرد في التفكير فمنذ اقتحمت عالمه، أصبحت الدقائق ساعات، بعد حين بعث لها برسالة:

أيمكنني أن آخذ القليل من وقتك؟

لـم تجـب علـى الرسـالة، مـرّ وقـت طويـل ولـم ترهـا، كان يتفقـد ذلـك طيلـة الوقـت، أحسّ ببعض الضيـق أو ربّمـا غلبـه القلـق.

فـي ذاك الوقـت اسـتلقت رودينـا علـى سـريرها فـي إنهـاك، ولـم تسـتطع منـع أفكارهـا التـي تقودهـا إليـه مـن التسلّل، تتـردّد دون توقـف، انتبهـت للحظـة أنّهـا أصبحـت تفكّـر فيـه كثيـرا، تتسـاءل مـا الـذي يفكّـر فيـه ولمـا كلّ هـذا الاهتمـام الـذي جعلهـا تثـق فـي نفسـها وقـد كانـت لا تسـتطيع الوثـوق مـن قبـل فـي أحـد. كان خـوف البدايـة يسـيطر عليهـا مـن حيـن لآخـر مـن جهـة ومـن جهـة أخـرى تتمنّـى فـي داخلهـا أن يكـون شـخصا أقـرب إليهـا.

شـاردة وذهنهـا يصـبّ كلّ الاحتمـالات، كانـت رودينـا تحظـى بسـاعات للبقـاء وحيـدة فـي آخـر اللّيـل، تعمـل فيهـا علـى التفـرّغ للصـلاة، إتمـام لوحـة، قـراءة شـيء الدّراسـة أو الكتابـة، بيـن ذلـك وذاك ترتـاح وتعـود لمـلء فراغهـا.

مـرّ وقـت ولـم تـردّ، فأرسـل تيـم برسـالة أخـرى هـذه المـرّة علـى رقمهـا، فجـأة لاحظـت إضـاءة هاتفهـا الـذي تضعـه علـى جانـب وسـادتها، بيـن ظلمـة الغرفـة، فتحـت الرسـالة فـي تثاقـل قـرأت نصهـا:

رودينا، أنت مستيقظة؟

شـعور غريـب سـرى فيهـا، لـم تسـتطع الـردّ فقـد كان الوقـت متأخـرا، كانـت متعبـة..

أرادت أن لا تظهـر أنّهـا لـم تنـم بعـد، لكـن بعـد هنيهـة اسـتوقفها قلبهـا وكأنّ شـيئا شـدّها لتـردّ، أرادت تقديـر ذلـك الاهتمـام، تحدّثـت ممتنّـة علـى سـؤاله وأنهـت الحديـث بينهمـا بسـرعة.

مرّت شهور..

ثـمّ تتابعـت الأحاديـث واللّقـاءات بينهـم وقـد كانـت ترفـض الاعتـراف لنفسـها بالتعلّـق وكان يبـدو عليهـا التأثـر فـي كلّ مـرّة تنتابهـا الغيـرة.

كان الاهتمـام متبـادلا، هكـذا كانـت بدايتهمـا متشـابهة، لحظـات العفويـة والصراحة استطاعت تمديد العلاقـة، تلـك الّتـي لـم يعرف أحد منهمـا سرّ بدايتهـا.

رقـيّ كلماتهـا وبسـاطتها فـي التعامـل، تفكيرهـا بشـكل إيجابـيّ، حسـن الظـن وفضولهـا، جعلـت تيـم يشـطب كلّ أخطائـه ويمحـو مضيعـة الوقـت مـن حياتـه، كانـت معرفتهـا بالنسـبة لـه كمكافـأة الحيـاة لـه لمراجعـة النفـس، تغيّـر كثيـرا واسـتطاعت هـي فعل ذلـك، فقـد كانـت الوحيـدة التـي تسـتمع إليـه، تسـأله عـن التفاصيـل وتسـتوقفه عندهـا، تهتـم لسـعادته وتحـاول منـع حزنـه، تمـدّ يدهـا لحظـات ضيقـه، تعـرف نقـاط ضعفـه، المختلفـة التـي جعلـت مـن صفـاء نيتهـا ممـرّا غيـر مزدحـم إلـى قلبـه.

مرّت سنة على الصدفة..

وقـد زجّهـا قلبهـا فـي مـأزق لـم تحسـب لـه حسـبانا، كان شـخصا مولعـا بالموسـيقى، تقلّصـت المسـافة بينهمـا مـع مضـيّ الوقـت وعكـس أول لقـاء بـدا تيـم متزّنـا رغـم أنـه كان يحمـل علامـات الجنـون، مـرح يتقـن حسّ الدعابـة، عفـويّ يـروي التفاصيـل دون خـوف أو تملّـق، بجوهـره قلـب طيّـب وحنـون، ذلـك جعلهـا لا تكتـرث لأخطائـه وعيوبـه إذ كانـت جنـون، جـرأة وتمـرّد.

ومـا أيقـظ مشـاعر الحـبّ اتجاهـه، ثقتـه بهـا وإحساسـها أنـه شـخص يعرفهـا وتعرفـه منـذ زمـن، رغـم أنّهـا كان تجبـر كلّ مـن يعرفهـا علـى احترامهـا إلّا أنّـه مـن أوّل حديـث معهـا شـعر بالارتيـاح والطمأنينـة فـي حضـن طيبتهـا.

في النهاية، بدأت حياتها عند لقائه وقد كانت تشبه الحياة بمقلتيه.

كانـت رودينـا تتعب جـدّا فـي عملهـا مقابـل دراسـتها فـي الجامعـة، لـم تسـتطع إكمـال شـهادة الصّيدلـة، لكـن رغـم ذلـك كانـت تتقـن التخصّـص والعمـل فيـه، اسـتطاعت باجتهادهـا كسـب ثقـة سـيدة العمـل، بعـد سـنة تمامـا أصبـح عملهـا دوريّـا وأصبحـت تتقاضـى راتبهـا بالسـاعات بحضـور زميلـة لهـا، فاسـتطاعت الرجـوع للجامعـة غيـر أنّهـا اختـارت التسـجيل فـي كليّـة الفنـون التشـكيلية بدمشـق آنـذاك.

عملهـا كصيدلانيـة مكنّهـا مـن تحسـين وضعهـا المـاديّ وكانـت تسـتعمل الـذكاء للموافقـة بينـه والتخصّـص الـذي لـم يكـن جديـدا عليهـا، حـبّ الطفولـة والهوايـة التـي سـاندتها أوقـات الفـراغ.

والصدفـة مدهشـة، تيـم أتـمّ دراسـته فـي كليّـة طـبّ الأسـنان، غيـر أنّـه يقـول: لـو عـاد بـي الزمـن للـوراء لمـا درسـت طـبّ الأسـنان، لكنّـه كان اسـتجابة لرغبـة والدتـي.

بينمـا كان عملـه يختلـف تمامـا عـن ذلـك، كان يسـاعد والـده فـي المقاولـة وظـلّ علـى تلـك الحـال عنـد قدومـه سـوريا، اشـتغل مـع خالـه المقـاول أيضـا. وسـجّل لدراسـة الموسـيقى هـو فـي السـنة الثالثـة بينمـا رودينـا مقبلـة علـى التخـرج.

يوسـف الأخ الوحيـد لمريـم مقيـم بجنـوب دمشـق، زوجتـه حنـان مـن الشّـام ولـه ثلاثـة أطفـال بينهمـا بنـت.

كلاهمـا ولـج عالـم الشـغل فـي سـن مبكـر، صدفـة أخـرى رغـم اختـلاف السـبب هـي دفعتهـا الظـروف السـيّئة وهـو الفرصـة المتاحـة بسـهولة.

أغار عليها

"الغيرة ثاني براهين الحبّ"

كجنـدي يدافـع عـن وطـن لا يملـك فيـه مسـكنا، هنـاك مـن يدافـع عـن شـعوره، يزعجـه كونـه يمنحـه لشـخص لا يشـعر بـه، يحزنـه أنّـه لا يشـاركه ضحكتـه، حديثـه، حزنـه.

ذاك الشـعور بالاحتـراق، حيـن يقتـرب الجميـع ممـن يحـبّ سـواه، شـيء يمنعـه عـن الاقتـراب رغـم أنّـه كل مـا يتمنـاه.

الشـعور بالضيـاع فـي دوامـة الوقـت دونـه، كأنّـك تركـت قلبـك وأشـياءك فـي مـكان مـا بيـن يـدي شـخص مـا ومجـرّد سـلامه لغيـرك قـد يشـعل عـود الغيـرة، فتغـدو ضعيفـا أمـام مـن تحـبّ.

فتسـتطيع الغيـرة هنـا أن تجبـرك علـى ردود أفعـال حيـن تصـل لذروتهـا، فتاتـي دون تفكيـر ولا حسـابات ولا ترتيـب للبـوح ولا تتـرك مجـالا لإخفـاء الضعـف كتصرفـات عفويّـة بغريـزة محـبّ

وحدها تلك الردود تعتبر تنازلا ليحظى الشخص بمن يريد.

لكن..

فكـرة أن هنـاك شـخص يراقبـك، يعـرف تفاصيلـك، يحـاول مـن أجلـك دافئـة جـدّا ولا يسـتطيع الـكلّ الظفـر بهـا، سـوى أصحـاب الورقـة الرابحـة فـي لعبـة الحـبّ.

مـن بيـن ذاك الـكلّ هنـاك أشـخاص رغـم ندرتهـم ورغـم مـا يسـتحقونه مـن حـبّ واهتمـام وبـكلّ تفاصيلهـم المميّـزة لـم يجـدوا قلبـا يأويهـم.. أصحـاب الحـظ القليـل، الصادقـون جـدا.

تلـك التفاصيـل التـي لا يمكـن لأي كان ملاحظتهـا تلـك التـي لا ينتبـه لهـا أحـد ولـو حفظناهـا لهـا قـوّة فـي منـح أي علاقـة الحيـاة

الاهتمـام المـادّة الأولـى لإثبـات المحبّـة، وكمـا أنّ لـكل وطـن قانـون أعلـى فـي موطـن الحـب الغيـرة دسـتوره، الـذي ينـص بـكلّ أنانيـة علـى "أنـت لـي وحـدي". فعـلا أن يحبّـك ذات الشـخص الـذي تحبّـه معجـزة، نسـتطيع تخيّـل جمـال ذلـك الشّـعور، وأن يغـار شـخص عليـك شـيء فـي منتهـى الحـبّ الـذي بمقـدوره أن يرجعنـا إلـى زمـن الطفولـة حيـن يتوسّـد مسـاحات البـراءة، وداد تلـك اللّحظـات، تلـك العفويّـة تسـتحق الإكـرام.

قـد تكـون الغيـرة وعـدا لمـا قبـل الاعتـراف، الوعـد بـأن نجعـل أمـلا بـأنّ القـادم يحمـل الكثيـر مـن السّـعادة، والخـوف منـه قـد تفضحـه الـردود.

***

"الغيرة فضيحة المحبّ"

بداية شهر جديد..

"كنـت أمـارس الدعـاء للحصـول علـى أبسـط الأشـياء، كان طريـق نجاتـي الوحيـد مـن مخـاوف المسـتقبل، عندمـا حصـل الطـلاق بيـن والـديّ كنّـا صغـارا، أو علـى الأغلـب كانـت أختـيّ مجـرّد أجنّـة، لـم أكـن أعـرف معنـى حـدوث أمـر كهـذا، لكـن مـع مـرور العمـر أدركـت أنّـه نجـاة لأمّـي مـن إهانـة.."

تحدّثـت رودينـا طويـلا فـي الموضـوع وكان تيـم ينظـر إليهـا بتمعّـن ومـا إن تجمعـت العبـرات فـي عينيهـا قاطعهـا قائـلا:

أليست لديك نسخة منك؟ ألقي بها في كلّ مكان أمرّ به.

أخفضـت نظرهـا ولـم تتكلّـم. لحظـة أرجـوك، قـال تيـم وهـو يمـدّ يـده نحـو قيثارتـه، رفعها ووضعها بين أحضانه وأخذ يداعب أوتارها برفق ، ابتسمت رودينا متجاوزة عبرتهـا وهـي تسـتمع إليـه وفـي ذلـك شـيء غريـب، ربّمـا حنيـن، ربّمـا عتـاب..

تطلّعت إليه وهي تحاول قراءة ما يخفيه ثمّ أزاحت بصرها عنه وأخذتها اللحظات نحو الشّرود إلى أن انتبهت له يقول ضاحكا:

- أنا أكلّمك رودينا، هل تسمعينني؟ أين سافرت بك الدّنيا؟

رمقته ثمّ قالت مغيّرة الموضوع: ليت كلّ شخص يعيش كما يستحقّ

- مجنون لأنّي تعلقت بإنسانة مثلك، ردّ بصوت خافت.

- لـمَ؟ تساءلت ضاحكة، فأجابها: رقيقة، مميّزة، كعثرة وقعت بها فتغيّر المكان حولي.

مثّلت تجاهل كلامه ثمّ استمرّ الصّمت بينهما ثوان، قد يكون لها نفس الشعور لكنّها لن تفصح عنه هذا مؤكّد، كان بودّها الاعتراف له بأنّه حلمها الذي كان ضائعا، وأنّه استطاع بلحظة أن يوقظ فرحة كانت تغفو بداخلها، كطوق نجاة من الدّموع، في حين أنّه لم يتردّد لحظة في إخبارها أنّها جوهرة.

-هل أنت بخير رودينا؟

- في الحقيقة، مرتاحة جدّا.

" إلى اللّذين اغتنموا الفرصة ليزرعوا الفرحة فينا، الدّنيا فرص وستجزون عنّا بما يسعدكم"

***

أربعة أيّام بعد..

كانت رودينا تشعر أن تيم الوحيد الذي جلس بجوارها ومنع الحزن الذي كان يتآكل داخلها من إكمال طريقه، ملأ مساحة الفقدان حولها ووضع شيئا من السعادة بين يديها.

بـذات الوقـت اختلطـت الأمـور علـى تيـم وبـدا قلقـا وباسـتطاعته التفاعـل علـى أبسـط الأشـياء، اقتـرب موعـد مغادرتـه ولا يسـتطيع ذلـك.

فـي هـذا الوقـت مـن منتصـف النهـار كانـا مجتمعـان فـي كافيتيريـا بالجهـة الخلفيـة مـن المـكان، فـي حيـن أخـذ الحديـث مسـاره أخبرهـا تيـم أنّـه سـيغادر سـوريا، أخـذت نفسـا عميقـا قبـل أن تسـأله:

متـى ولـمَ؟ سـتذهب فـي زيـارة؟ ابتلـع ريقـه ببـطء وهـو يلامـس لحيتـه بيـده، اسـتدار نظـره يمينـا ولـم يـرد بسـبب ردّة فعلهـا المتوتّـرة، ثـمّ..

تغيّـرت ملامحـه فجـأة حيـن انتبـه لوجـود شـخص يحـدّق برودينـا دون توقّـف علـى تلـك الطاولـة بمقربـة البـاب، اسـتطاع تمالـك نفسـه ثـوان ثـمّ احـدث ردّة فعـل غيـر متوقّعـة: أزاح الكرسـيّ الـذي كان جالسـا عليـه واتّجـه إليـه، أمسـكه مـن قميصـه وأخـذ يتحـدّث إليـه بصـوت مرتفـع، جعـل الـكلّ ينظـر إليـه، بـدا غاضبـا جـدّا، ثـمّ بعـد تدخّـل أحدهـم تركـه وعـاد لمكانـه. تسـمّرت رودينـا فـي مكانهـا وهـي ترتجـف، لـم تـره بمثـل هـذا الانفعـال مـن قبـل ثـمّ نطقـت:

مـاذا تيـم، لمـاذا سـاءت حالتـك فجـأة، مـا الـذي فعلـه ذاك الشـخص؟ أتعرفـه؟ كفّـي عـن أسـئلتك ردّ بغضـب.

اسـتوت فـي وقفتهـا وبـاءت بالانصـراف، اقتـرب منهـا قائـلا: آسـف، لكنّـه اسـتفزّني بنظراتـه إليـك..

لـم يكـن لتصرّفاتـك تلـك أيّ مبـرّر ردّت عليـه وهـي تحافـظ علـى خطواتهـا، حاولت الحفـاظ علـى هدوئهـا، احتفظـت بموقفهـا فـي عنـاد، التفتـت إلـى شـمالها وباشـرت بالمغـادرة وبقليـل مـن القـوّة مسـحت دمعتهـا ونظـرت إليـه بحـزن، فـي حيـن أمسـكها مـن يدهـا وبنبـرة هزيلـة قـال:

أنـا آسـف، آسـف ردّد تيـم، أفلتـت يده بهـدوء وأكملـت مسـارها.

فـي المسـاء بينمـا كانـت رودينـا جالسـة تسـترجع مـا دار بينهمـا مـن كلام، فـي حيـرة وخـوف ممّـا حـدث، وصلتهـا رسـالة منـه يقـول: أنـا آسـف، كلّ محـاولات الابتعـاد عنـك فشـلت، أخشـى جنـون الغيـرة، لا تحزنـي مـاذا أفعل لكـي تنسـي؟؟ لبثت تفكّر لدقائق قليلة ثمّ أجابت: حسنا كلّ شيء بخير، انس ذلك.

"الاهتمام ربيع العلاقات"

تقول رودينا:

يـوم اعتـرف لـي بحبّـه، لسـت أعـرف أكان مـن المفـروض أن أفعـل ذلـك أيضـا، إخفائـي، كبريـاء الكتمـان وتأجيلـي لأشـياء قلتهـا فـي غيـر وقتهـا، فـي زمـن تجـاوز الآخـر فيهـا لحظـات الانتظـار، أليـس غلطـة فـي حـقّ نفسـي لكـن..

قلتهـا بطـرق أخـرى حيـن كنـت أفقـد القـدرة علـى النّطـق، باحتـواء اهتمـام، خـوف، اطمئنـان، انتظـار، مسـامحة وتجـاوز، تفقّـد، تفضيـل، اشـتياق ودعـاء، تجـاوزت التّفاصيـل وحفظـت تفاصيـل التفاصيـل، كتبتهـا ورسـمتها كان صدقـي بمـا أفعلـه دون أن أتحـدّث عنـه.

"قد تجبرنا السّعادة على خوض حرب من أجلها"

لأننا نستحق..

عـاد فصـل الخريـف مجـدّدا ولـم يكـن بطبيعتـه المعتـادة ولـم ينثـر أوراقـه بيـن أحضـان الشـوارع، لا يبـدو خريفـا أبـدا ذاك الفصـل الـذي يحتـل مرتبـة أخيـرة فـي قلبـي، قـد تسـألونني لمـاذا؟ هـو ليـس محببّـا إلـيّ لمـا يكسـو الكـون بحلولـه مـن كآبـة، فصـل تتسـاقط فيـه الأحـزان بعد أن تعصـف بالذكريـات ريـاح الحنيـن الـذي قـد تـؤذي كل مـا حولهـا تكسـره، ترميـه بعنـف وتسـقط بـه أرضـا بالمـوازاة لا أسـتطيع الوثـوق بأشـخاص يحبّونـه فقـد يشـبهونه فـي التمـرّد والشـحوب والأذية.

ترى من يتألّم أكثر؟

الشـجرة حيـن تفقـد أوراقهـا بعد أن حاولـت بـكل فروعهـا إمدادهـا بالحيـاة للحفـاظ عليهـا؟ أم أنّ الخاسـر الوحيـد بعيـد عـن تلـك التـي كانـت تقـاوم السـقوط، الأوراق التـي استسـلمت وقـررت مـع أوّل خطـأ ارتكبتـه ظـروف الطبيعـة أن تتهـاوى؟

برأيـي مـن يمـدّ مـن عمـره لغيـره مسـتحيل أن يريـد فقدانـه، لا تختـار الغصـون التعـرّي واختـارت الأوراق التخلـي عـن مـن كان يرفعهـا، لتنـدم حيـن تدوسـها الأقـدام.

ما بال أسلوب الطبيعة يروي لنا أساليب الحياة؟

***

كان الجـوّ بـاردا جـدّا هـذا المسـاء لذلـك لـم يبـقَ لوقـت طويـل فـي الخـارج، جلـس فـي البيـت وحـده وبـدأ التفكيـر يهاجمـه، يقـول فـي نفسـه: طـوال حياتـي تعـوّدت أن أخبّـئ كلّ شـيء بداخلـي ولا أخبـر بـه أحـدا، كلّ الأوراق الّتـي كتبـت عليهـا عقوبـات الحيـاة والخيبـات اليوميـة وكلّ شـيء مشـابه لذلـك لـم يرهـا غيـري.

لـم تطـرق روحـي يومـا بابـا لكنـك فتحـت لـي واحـدا بعفويـة، لـم أخبـرك عـن الأشـياء التـي أحبّهـا بـل تعرفـت عليهـا مـن خلالـك، طالمـا لامسـت كلماتـك، مواسـاتك وضحكتـك كلّ مـا بداخلـي..

كان شـعوري قبلـك يشـبه مـا يعانيـه نـزلاء السّـجن وكنـت أنـت لحظـة إطـلاق سـراحي مـن حيـاة مملّـة وحيـدة، أشـيائي لـم أسـتطع جمعهـا فجمعتنـي وإيّاهـا، أصبحـت ملجـأ تتعـرى أمامـه روحـي لتعـرف الراحـة والهـدوء بعـد ضجيـج دام سـنين، وأصبـح قـرار البقـاء بجـوارك..

قاطع شروده نداء خالته هبة:

تعال لنتناول العشاء سويا تيم. أعادت بصوت مرتفع: تيم، تيم

ـ سمعتك خالة أتاها قائلا.

وضعت الأطباق على المائدة مخاطبة إيّاه: هيّا اجلس

كانـت جدّتـه نائمـة فهـي لا تسـتطيع تأجيـل العشـاء لهـذا الوقـت بمـا أنّهـا تقـوم قبيـل صـلاة الفجـر ولا تعـود للنـوم، نظـر إلـى السّـاعة بيـده كانـت تشـير إلـى التاسـعة وتقريبـا ثلاثيـن دقيقـة، كان يـأكل ببـطء وصمـت فسـألته هبـة: ليـس لديـك شـيء تقولـه تيـم .

فردّ متفاجئا: بشأن ماذا؟

أجابته: أيّ شيء ببالك، أخبرني ما أخبار رودينا؟

شـرب كوبـا مـن المـاء ولـم تكـن هبـة قـد أنهـت جملتهـا وقـال: أتخيّـل ردّة فعلهـا لـو عرفـت عـن اسـتحالة رجوعـي سـوريا.

أنـت فـي بدايـة سـنة جامعيـة جديـدة عليـك إتمامهـا، علـى الأقـلّ أكمـل شـهادتك، نصحتـه هبـة.

ماذا أفعل؟ ستقرّر الأيام فيما بعد، رودينا إنسانة نادرة لن أتركها لغيري.

ختمت: أحيانا لا نستطيع لوم أحد سوى أنفسنا.

لـم تسـتطع قـول شـيء بعدهـا سـوى الاسـتماع إليـه وإنهـاء عشـائهم بسـرعة، انصـرف تيـم بعـد مـا أعادهـا وضعـه للذكـرى

كان مـن الصّعـب المـرور علـى الجـرح، يـوم ارتكـب الحـبّ جريمـة بحقّهـا، حيـن أحبّـت شـخصا لـم تسـتطع الحيـاة جمعهـا بـه، يامـن كان شـابا يصغرهـا تقريبـا بثـلاث سـنوات وأشـهر قليلـة، مـن السـويداء بجنـوب البلـد.

هبـة أحبـت درزيـا، وكان الرفـض وفـق لتعاليـم التقاليـد عارضـا أمـات كلّ شـيء إلاّ مـا بداخلهـا للأبـد.

هـذا مـا كانـت الاحتمـالات تقولـه لكـن بعـد سـنة تقريبـا مـن انتهـاء علاقتهـا تـزوّج يامـن مـن ابنـة عمّـه ثريّـا التـي كانـت تعيـش وحيـدة يتيمـة الأبويـن.

إنّهـا مؤامـرة الحـبّ، تنتظـر وصـول الشـخص لأعلـى قمتـه ثـم تعيـده إلـى نقطـة البدايـة ليـس أبـدا كمـا كان، يعـود منهـكا أو ميتـا بعـد الفـراق..

للفراق سمعة سيّئة لا أريد التحدّث عنها أكثر فقد قلت ما يكفي من مآسيه.

ماذا عن تيم ورودينا؟ هل يخطّط الحبّ لذلك وقد ضاقت السبل مبكّرا؟.

بعـد أن أنهـى تيـم عشـاءه خـرج ليتمشـى قليـلا، كانـت الريـاح بـاردة والمطـر يتسـاقط رطبـا بقطـرات خفيفـة، فتراجـع وجلـس بمـكان قريـب مـن بيـت جدّتـه، أمسـك هاتفـه وفتـح الرسـائل علـى البريـد الواصـل، قـرأ مـا كتبتـه: (حسـنا كلّ شـيء بخيـر، انـسَ ذلـك.)

أراد التحـدّث إليهـا، فاتّصـل لكنّهـا لـم تـرد رغـم أنّهـا كانـت متّصلـة علـى حسـابها فـي موقـع التواصـل الاجتماعـي وتسـاءل فـي نفسـه: الوقـت ليـس متأخّـرا ولا أظنّهـا نائمـة لمـاذا لا تـردّ؟ أحسّ ببعض الضيـق بعد أن عـاود الاتّصـال ثـمّ تفقّـد حسـابها لا تـزال غيـر موجـودة، سـوء التفاهـم الـذي جـرى بينهمـا جعلـه يظـن أنهـا تتجاهـل اتصالاتـه..

بعد حين أراد معاودة الاتصال فأقفل الخطّ، ازداد توتره وجلس مطوّلا لوحده في تلك الظلمة إلى أن تعب وغادر متجها لغرفته، دخل بهدوء ولاحظ أن هبة لا تزال مستيقظة وباب غرفتها مفتوح، تسلّل بنظره إلى الداخل ولم تكن هناك وإذا به يرى نور المطبخ مشتعلا، فلمحها تجلس على طاولة المطبخ تضع حاسوبها المحمول أماها مبعثرة الأوراق من حولها، لم تكن منشغلة في عملها بقدر ما كانت شاردة التفكير.

تراجع تيم نحو غرفته التي كانت على الجانب المقابل للمطبخ ولم يتحدث بشيء، رغم إحساسه أنّه أعاد ذلك المساء خصوبة جروحها.

كانت هبة أستاذة فيزياء بالثانوية وفي نفس الوقت كانت تتم دراستها في طور الدكتوراه، كلّ هذه الانشغالات كانت تشغلها عن المكوث في الوجع، تقدّم لخطبتها أكثر من شخص وكانت لا تطيق سماع ذلك، كجيش مهزوم كانت تخاف مواجهة أخرى.

***

في الباكر استيقظت رودينا، أرادت رؤية السّاعة على هاتفها فوجدته مغلقا، بقيت مستلقية على سريرها تنظر إلى السقف حينا من الوقت ثمّ نهضت بعد أن ناد المؤذن لصلاة الفجر، أنارت الغرفة، لمحت الساعة، كانت تشير إلى السادسة صباحا إلّا عشر دقائق، كانت الظلمة لا تزال مخيّمة، وصلت هاتفها بالشاحن، أدّت صلاتها وبعدها باشرت في بعض التّرتيبات.

مرّ الوقت بسرعة وبعد أن أتمّت تحضير نفسها أخذت هاتفها وأغراضها وضعتها بحقيبتها واتجهت نحو الصّيدلية، كانت الثامنة صباحا، نصف ساعة هي المدّة التي تستغرقها للوصول للعمل، بمجرّد دخولها أخذت تساعد زميلتها بتنظيف الرفوف ووضع الأدوية في مكانها، تقومان بذلك حين تقل الحركة بهكذا جوّ.

بعدها في وقت الفطور تذهب نحو الجامعة لتأخذ الدروس، كانت المحاضرات قليلة بالمقارنة مع السنوات الماضية ربّما لأنّها سنة التخرج، بالعادة ينتظرها تيم فهو يحفظ توقيتها لكنه يكن موجودا يومها، تفقّدت المكان للحظات تبحث عنه بعينيها، أطالت النّظر ولم يكن هناك، توتّر حالها قليلا لأنه لم يتّصل حتى.

بعدها بلحظات التقت بزميلتها التي تواعدت معها للقاء أمام المدرّج، قامت بتصوير الدروس كالعادة عندما يكون لديها دوام عمل، تحدّثتا قليلا، كانت آية تحبّ المزاح في الكلام وكانت رودينا تحبّها جدّا.

لماذا لا تبقين في العمل وتدعينني أمرّ عليك، خاطبتها آية.

ردّت عليها رودينا: بما أنّني أستطيع المجيء فلن أتعبك، هي كذلك فرصة للخروج من الضغط اليومي وتعرفين لا مجال للحديث أثناء العمل براحة كما نفعل الآن.

أجابتها ضاحكة: طبعا معك حقّ، على الأقل لا نكتم ضحكتنا.

آية كانت في عمر الثّانية والعشرين، فتاة مرحة، قصيرة الطّول، شعر طويل غالبا ما تلملمه جانبا بضفيرة، أمّها وأبوها يشبهانها في المرح، لها أخ مصاب بمتلازمة داون هو الآن في عمر التّاسعة، تعيش في منزل بسيط على مقربة من الصّيدلية التي تعمل فيها رودينا، ما جعلها تتعرف على عائلتها قبل أن تعرفها.

بعد أن أتمّت ما جاءت لأجله، اتّصلت بتيم وهي في طريقها للخروج فردّ وبصوته استياء:

أخيرا اتّصلت..

كيف حالك تيم؟ سألته رودينا

حسنا.. ماذا تريدين؟ تعمّد تيم قول ذلك.

فـردّت فـي حـرج بصـوت منخفـض: أعتقـد أنّـي اتصلـت فـي وقـت غيـر ملائـم، خفـت عليـك فقـط، علـى أيّ حـال إلـى اللّقـاء. انتظـرت أن يقفـل الخـطّ هـو.. بعـد ثانيتيـن أقفـل.

ثـمّ بعـد ذلـك لاحظـت بعـد أن قامـت بالتفتيـش فـي هاتفهـا لاحظـت وجـود اتصـالات عديـدة منـه علـى قائمـة الرسـائل، لـم تنتبـه لهـا ولا لهاتفهـا حيـن كان مغلقـا، فبعثـت برسـالة قائلـة:

تيـم الـذي بيننـا أكبـر مـن هـذا، لـم ألاحـظ اتصالاتـك، فقـد كنـت متعبـة و..، بينمـا كانـت تكتـب ذلـك تعثّـرت وهـي تنـزل الـدّرج، فوقعـت جالسـة، ضغطـت علـى زر الإرسـال قبـل أن تكمـل.

وصلتـه فـردّ مباشـرة برسـالة صوتيّـة: آه رودينـا أنـا عاجـز عـن التحكّـم فـي غيرتـي، لا أتحمّـل بعـدك، كلّ هـذا يجهـد نفسـيّتي.

أرهقـت رودينـا نفسـها كثيـرا هـذه الأيّـام، فقـد كانـت تحـاول إعطـاء وقـت لتيـم بيـن العمـل والدراسـة، عندمـا عـادت إلـى البيـت قامـت بتحضيـر العشـاء وبعـد أن أكملـت ذلـك جلسـت منهكـة وبعدهـا قطعـت المسـافة بيـن المطبـخ وغرفتهـا بجهـد كبيـر، كانـت تبـدو شـاحبة، للحظـة أحسـت بوخـز مؤلـم فـي جانبهـا الأيمـن أسـفل البطـن وهـي تشـدّ بكفّهـا مـكان الألـم دخلـت الغرفـة وجلسـت فـي فراشـها وأخـذت تتنفـس ببـطء.

بعـد دقائـق تلاشـى الوجـع تمامـا، اسـتعادت أنفاسـها وهـي تحمـد اللـه وكأنّهـا وعكـة صحيّـة مـرّت وانتهـت بسـرعة غيـر متوقّعـة.

أوركسترا الشّوق

"أما بعد...

بيننا المسافة تدمّرنا، وما نكتمه يخنقه التفريط

ما لم نقله، لم نصرّح به، ساهم في تمديد تلك المسافة،

باغتنا التّعب.. أليس كذلك؟؟

دفنّا في عزلتنا على عجل

خوفا من أن تطلع روائح الشّوق منّا

لفت رقابنا حبال الكبرياء ومخالب الأنا ."

كتبت غادة السمّان: "ابتعد لتصير أقرب فالالتصاق عتبة الفراق، لا حبّ بلا مسافة"

وكتبت أحلام مستغانمي "الحبّ هو ذكاء المسافة، أن لا تقترب كثيرا فتلغي اللّهفة ولا تبتعد طويلا فتنسى"

لذلك في الحبّ يجب ترك مسافة أمان تملأها الثّقة "مسافة البقاء"

لا الابتعاد أكثر ممّا يجب فيصبح القرب صعبا لحظات الاحتياج، فتمنعنا عزّة النّفس من طرق الأبواب، ولا القرب أكثر من ذلك فيفرض التعلّق الشّديد نفسه ويصير البعد موتا على قيد الحبّ فيصعب إكمال الطّريق في غياب من نحب.

كتبت رودينا...

في غيابك..

أعاني من شوق شديد وفرط حنين وضعف في الاستمرار، شاردة الذهن، يتكلّمون حولي وأضيّع معظم الحديث، دائما أطلب إعادة الكلام، يضطرّ أن يعيد المتكلّم حديثه مرتين وثلاثا..،

فيلفت عدم تركيزي انتباه الجميع،

لا أتذكّر المواقف الّتي تمرّ بي، لا أتذكّر شيئا سواك،

صوتك، صورك، وحروف اسمك..

أعاني من ضيق ولا أستطيع التعبير عمّا بداخلي، ليس لأنّي لا أريد..

ولكن لا أعرف كيف؟ ولمن؟

يداهمني الضّياع فأجد أنّ الحياة مملّة

أختار الجلوس وحدي، ليتني أعرف ما بي.

تتبعثر أفكاري ويشتّتني الحنين ولا أريد سوى اللّجوء إلى وجهة آمنة.

أين تشرق الشّمس الّتي لطالما عهدتها..

من مشرقك أنت..

(من خواطر رودينا)

كان بمقـدور رودينـا إخفـاء تعبهـا عـن الجميـع وداخلهـا يطمئنهـا أنّ كلّ هـذه الأيّـام سـتمضي وتصبـح شـيئا تضحـك عليـه حيـن تذكـره، مرحلـة الطفولـة كانـت قاسـية عليهـا لكـن الإيمـان بـأن الموازيـن سـتنقلب يومـا كان يطبطـب علـى كتفهـا كلّ مـرّة.

لكنّها لم تعرف يوما كيف تخفي وعكة الحنين..

لا أحـد يعـرف أنّ تلـك التفاصيـل الصغيـرة التـي قـد لا يحسـب لهـا حسـاب، ككلمـة صباحيّـة تبقيـك سـعيدا طيلـة اليـوم هـي وحدهـا التـي تسـتطيع أن توقـظ نـار الشّـوق حيـن تغيـب.

أتتذكرين رودينا؟

ردّت: ماذا تيم؟ ثمّ بقيت تستمع إليه بصمت.

فـي أوّل حديـث أردت فيـه الاقتـراب منـك تجنبتنـي، شـعرت بضيـق فـي تلـك الليلـة، تكـرار ذلـك منـك لـم يزدنـي سـوى إصـرارا لمعرفتـك، حاولـت عدّة مـرات وكنـت تبخليـن لكنّـك أحسـنت صنعـا لأنّـك جوهـرة، نظراتـك الإيجابيـة كانـت تخفـي بريـق حـزن، أحببـت ابتسـامتك الدائمـة مـع الجميـع، كانـت تنتابنـي غيـرة حيـال ذلـك وطالمـا وددت أن تكـون لـي مثلهـا، فـي طريقـي إليـك الـذي كان صعبـا لـم أسـتطع أن أحمـل غيـر باقـة حـبّ لا أدري.. شـيء مـا بروحـي كان يقـول أنّـك قـد تسـتحقين أكثـر مـن ذلـك.

حين كنت أسألك ما الحبّ في هذه الحياة أجبتني في ارتباك، سأخبرك لاحقا، بعد ذلك نسيت الموضوع، لم أسألك بعدها ولم أرد ذلك لأنّي أدركت الإجابة، رأيت في عينيك جوابا كافيا، فقلت لمَ أبحث عنه وقد وجدته؟

بعد مدّة من الحديث سألها ألن تقولي شيئا؟

أجابته وهي تتلعثم تختنق بالذي لم تقله: لقد قلت كلّ شيء، ترددّت للحظات ثمّ أضافت: قد تكون تيم أجمل ما يمكن أن يحدث لي.

بالمناسبة.. أنت كلّ الذي حدث، حبّك غير مشروط، عفويّ، هدية تفاجئنا بها الحياة مرّة واحدة .

اسمعيني سأخبرك عن شيء، تعرفين أن قدومي سوريا لم يكن له هدف غير الهروب من طبيعتي والديّ المتسلّطة وركضهم وراء الأموال، لكن أصبح عليّ التفكير بالرجوع لبعض الوقت، لم يعد بإمكاني البقاء دون مستقبل واضح.

في بداية الأمر كان بالنسبة لرودينا أمرا عاديّا، ولم تعرف ما تقوله غير الإجابة ب: طبعا ستفعل ما يناسبك.

لقد كان يوما آخر ثقيلا أليس كذلك؟ حسنا.. لقد مرّ ومضى غدا سيكون أخف ثقلا.

شيئا فشيئا يخيّم الصّمت بالشوارع، قد لا ينام الجميع ويغادر اللّيل بعد ساعات طوال، لكن حتما ستشرق الشمس من جديد.

سيغادر عمّا قريب.. هذا الذي كان يقوله، على أيّ حال لا أظنّ أنّه سيتراجع.. ها هي هنا تمارس عملها والأفكار السوداويّة تطرق ذهنها.

كان الجـوّ رديئـا، فـي ذات الصّبـاح أختـار تيـم الذهـاب للجامعـة كآخـر يـوم لـه هنـاك، توجـه مباشـرة ليقـدّم مـا تطلبـه الإدارة مـن وثائـق لتوقيـف السـنة الجامعيّـة، فـي حين انتهائـه مـن ذلـك بينمـا هـو ينـزل إلـى الطابـق السـفليّ نحـو بـاب الخـروج أخذتـه النظـرات إلـى كلّ مـكان حولـه، تباطـأت خطواتـه وهـو يـودّع الأماكـن، تقدّم بضـع أمتـار ليصل إلـى المخـرج، توجّـه نحـو كليّـة الفنـون، وبعد دخولـه تمشـىّ قليـلا ثـمّ وقـف فـي منتصـف السـاحة، تنحّـى جانبـا وجلـس علـى المقعـد الـذي شـهد علـى أوّل حيـث بينـه ورودينـا، تبسّـم علـى مضـض وبعينيـه أنيـن،

حتـى الأماكـن التـي كانـت تجمعنـا بمـن نحـب سـتترك شـوقا لا يأتـي سـوى بعـد مغادرتهـا..

ثـمّ بعد مـدّة غـادر المـكان الـذي كان يرتّـب فيـه الحـبّ متـكأه، كانـت البدايـة ولكنّهـا بـدت وكأنّهـا تحمـل الكثيـر مـن ملامـح النّهايـة، ركـب سـيارته التـي كان يركنهـا علـى مقربـة، متّجهـا للعمـل فـي منتصـف الطريـق اسـتدار وغيّـر وجهتـه، اتّصـل برودينـا للقائهـا، بعـد وصولـه إلـى الشـارع أعـادت الاتصـال بـه قائلـة: لا مجـال للخـروج الآن تيـم لـديّ عمـل كثيـر.

سـأكون هنـاك علـى بعـد عشـر دقائـق علـى الأكثـر. ردّ وهـو يوقـف سـيارته فـي شـارع قريـب واجتـاز مـا تبقـى مشـيا علـى الأقـدام، بينمـا هـو يتحـدّث إليهـا وضعـت هاتفهـا فـي جيبهـا وهـي تقـدّم لإحـدى الزبائـن توضيحـا عـن جرعـة المهدئـات وكيفيـة اسـتعمال المضـاد الحيـوي الـذي قدّمـه الطبيـب فـي الوصفـة.

بينما كان يستمع إليها وهي منشغلة، كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر صباحا، أجابته: ماذا سنفعلّ لم يتسن لها إتمام جملتها، قاطعها: لا بأس.. يبدو أنّك منشغلة، سأتّصل بك فيما بعد أضاف قبل أن يقفل.

انزعجت رودينا لذلك وبعثت برسالة بعدما أنهت ما كان يضغط عليها من عمل كتبت: كنت في أمسّ الحاجة لرؤيتك، لكن لم يكن لديّ وقت.. آسفة. لا عليك سنلتقي غدا، ردّ مباشرة ثمّ أضاف أحبّك.

***

جميلة جدّا تلك الخرافة الإغريقية القائلة بعيدا عن الحقيقة: "أنّ البشر في الأصل كانوا بأربعة يدين وأرجل ورأسين لكن زيوس كبير الآلهة فصلهم عن بعضهم وإلى اليوم كلّ إنسان يبحث عن نصفه الآخر"، فعلا الكلّ يبحث عن ذاك الذي يشبهه، يحبه، يهتم به، يحفظ تفاصيله، لا تمضي أيّامه من دونه، لا يطيق بتر نفسه عنه، يخاف عليه من الألم، يكون كافيّا ويبادله نفس الشعور ويكتمل بوجوده...، شيء صعب، قد تمضي حياتك ولا تجده، قد تجده وتظن أنّه كذلك لكنّه لن يبخل بهجرك أو يكرمك بالبقاء.

بعد مضيّ ساعات عديدة من ذلك دخل تيم البيت في وقت متأخّر من الليل كان منهكا وتائها كالعادة من دون أن يثير أيّ ضجة، أطفأ نور غرفته استلقى على سريره وأسند رأسه على وسادته ينظر إلى السقف، يتوسّل النوم أن يزوره وقطع أميالا في التفكير في كل خطوة يصادف فيها رودينا، كان يتوه في تلك المسافة الهائلة، مجرّد صدفة في مكان ما فتحت له باب الحبّ على مصراعيه لشخص صنع أحداثا معه، يشاركه تفاصيل يومه، يبحث عنه من بينها، يثق به يخشى أن يؤذيه:

شخص في طريقك إليه وجدت طريقك إليك..

الذكريات السعيدة مؤلمة..

ماذا؟

حسـنا.. إنّهـا أكثـر وجعـا حيـن تمضـي دون رجعـة، تلـك السـيّئة مرورهـا قـد ينسـينا مرارتهـا، قـد لا تؤلـم ذكراهـا مثـل لحظـة حدوثهـا برغـم مـا حفرتـه فينـا مـن شـعور مميـت لا تعـود مؤلمـة حيـن تغـدو وراءنـا.

لـذا للوقـت تأثيريـن: قـد يميـت وقـد يحيـي ذكـرى، ففـي مهجـع غـرف النّسـيان كان المشـرّدون فـي شـوارع الذكريـات يفتشـون مـا تبقـى بجعبتهـم مـن الصّـور ليسـدّوا حنيـن قلوبهـم وينهـوا ليلتهـم مضطجعيـن علـى وسـائد الماضـي.

برأيـي الشـيء الوحيـد الـذي نحتاجـه بالحيـاة، هـو بذلـك القـدر مـن الذكريـات التـي خبأتهـا لنـا الأيّـام فـي صنـدوق الأحـداث القديمـة، تلـك التـي لـن يحـدّد قيمتهـا سـوى الـذي عاشـها كيفمـا كانـت.

يستحق النسيان حين يكون كاملا جائزة نوبل، لكنه لن يكون.

أتسـاءل اللّحظـة: لمـاذا يمـارس الحـبّ لغـة الاضطهـاد والتعسّـف و لـمَ لا يوجـد قانـون يعاقـب اللاإنسـانيين فيـه؟

سؤال فضفاض...

سـنترك الإجابـة للعرافـات، لعلّ فناجيـن القهـوة تلـك تخطـئ كعادتهـا، مـن يـدري قـد تقـول أنّ الأشـياء السـيّئة سـتدوم ولا نصدّقهـا نحـن كالعـادة، ونمضـي فـي أمـل.

اسـتدار تيـم إلـى الجانـب الأيمـن متنهّـدا ثـم تمتـم: أعطيتنـي اهتمامـا وثقـة قـد يعيشـان معـي للأبـد رودينـا..

لـم ينـم تيـم تلـك اللّيلـة، مـع إشـراقة الصّبـاح الباكـر اعتـدل فـي جلسـته، حضّـر كـوب القهـوة وضعـه علـى جانـب مـن الطاولـة وأخـذ قيثارتـه، فـي ذات اللحظـة استيقظت رودينـا علـى رنيـن هاتفهـا، كان الوقـت مبكّـرا جـدّا المتصـل تيـم، خـلال ردّهـا علـى المكالمـة سـمعت عزفـه، كانـت المعزوفـة تشـبه تلـك التـي سـمعتها منـه أوّل مـرّة، أحسّـت بشـيء داخلهـا ذلـك الإحسـاس البـريء للحـبّ العفـويّ مهمـا كبـر يظـلّ كالطفـل دائمـا يبكـي، يسـتنجد شـيئا مـا، أحـدا مـا..

يبكي خشية أن ينطفئ، يبكي ولا يدري لم؟

ربّمـا خشـية أن يفقـده ولا يلقـاه أبـدا فبعـض الأشـياء توقـظ شـعور الخـوف مـن أنّهـا لـن تتكـرّر.

استوت رودينـا، اقتربـت مـن المـرآة ترفـع شـعرها، تسـتمع مبتسـمة، كانـت بضـع دقائـق مـن الخيـال حيـن أكمـل تيـم أردف ضاحـكا: اعتبريهـا مفاجـأة مجنونـة، تتعبيـن طـوال اليـوم، أردت تحسـين نفسـيتك مبكّـرا.

دائما تفعل ما لا يخطر بالبال. ردّت ببهجة.

لو كان هذا بالفعل يسعدك سأفعله دائما.

قـال تيـم واعـدا إيّاهـا، للحظـة لـم تسـتطع الـردّ، لا تعـرف مـا تقولـه ثـمّ قـال قبـل أن يقفـل الخـطّ: سـنلتقي فيمـا بعـد.

اليوم وبعد انتهاء موعد اللّقاء مع تيم تقول رودينا:

حيـن أخبرنـي أنّـه سـيغادر بذلـت جهـدا كبيـرا كـي لا أظهـر انزعاجـي، سـألني حيـن تغيّـرت ملامحـي مـا بـك؟ فقلـت: أنـا مرتاحـة لا تقلـق بشـأني ثـمّ ابتسـمت فـي مـرارة حيـن قـال: سـامحيني..

حاولـت تجاهـل مـا قالـه، أرعبتنـي الكلمـة، أعـرف أنّهـا طالمـا اقترنـت بالفـراق فقلـت فـي نفسـي إنّـه ليـس شـيئا كهـذا خاصّـة بعـد أن أردف بعدهـا سـتكون سـفرة صغيـرة وأعـود، وكأنّ دموعـي التـي كادت تنزلـق أزعجتـه فلملـم مـا تبعثـر مـن روحـي رغمـا عنّـي.

فنظـرت إليـه بمزيـج مـن الخـوف والارتيـاح وقـد أمسـك بوتينـي مطمئنـا: أعـدك لـن تفـرّق بيننـا المسـافة، لـن أتخلّـى عمّـن أعـادت إلـيّ الحيـاة. لبرهـة راودتنـي فكـرة أنـه يكـذب بشـأن السـفرة، رمقتـه بنظـرة اسـتهزاء ثـمّ قلـت بغضـب: أيعقـل أنّـك تمازحنـي؟ أو ربّمـا غيّـرت رأيـك وتجـرّب ردّة فعلـي؟ لـمَ أجرّبـك؟ سـأغيب لفتـرة وسـنتواصل دائمـا بعـد هـذا قلـت بتـردّد متـى؟ كـرّرت بصعوبـة متـى موعـد ذهابـك؟

أجاب بصوت منخفض: خلال أسبوع.

إذا سـمحت يكفـي. تمتمـت ثـمّ أخـذت بالانصـراف وأنـا أحـزم أغراضـي، تجمّعـت العبـرات فـي عينـي، اعتـرض طريقـي بهـدف إعاقتـي مـن التقـدّم، اقتـرب ورمقنـي بنظـرة طويلـة وقـال بصـوت واثـق: لا أتخيّـل حياتـي مـن دونـك.

تـروي رودينـا أنّهـا أخـذت بنظراتهـا بعيـدا كـي لا تفضحهـا دموعهـا وقالـت محدّقة فـي عينيـه: لـو أنّـك رحلـت أينمـا رحلـت، اقتربـت أو ابتعدت حتّـى وإن غادرتنـي لـن تغادرنـي.

كانت لحظة ولادة الحنين...

فـي نهايـة النهـار، انفـردت رودينـا بالجلـوس وحيـدة علـى المائـدة بسـاحة البيـت، أعـدّت شـايا وأخـذت دواء حيـن أحسّـت بصـداع فـي الـرأس بمجـرّد أن عـاودت التفكيـر فـي الموضـوع، تأفّفـت فـي ضيـق وهـي تتمتـم:

إذا كان هـذا الألـم الموحـش أصابنـي منـذ أوّل يـوم، مـاذا عـن بقيّـة الأيّـام والسّـاعات والدّقائـق وكلّ ثانيـة ونبضـة؟

***

لـم يذهـب تيـم للمعهـد مـن وقتهـا، لكـن حتـى اللحظـة لـم يتوقـف عـن رسـائل الهاتـف والاتصـال بهـا، فطالمـا كانـت تتفقّده، تسـأل عنـه، تهتـم لتفاصيـل كلّ يـوم تمـرّ بـه، تقـف عنـد كلّ ضيـق يصيبـه لتفتـح بـاب ضحكـة.

"صعوبة التّخلي عمّن نحب ليست أبدا ضعفا"

يـوم، اثنـان، ثلاثـة وأسـبوع.. آخـر ليلـة لتيـم بسـوريا، بعـد أن أتـمّ توضيـب أغراضـه وسـاعدته هبـة فـي ذلـك، تحـدّث فـي المسـاء مطـوّلا لرودينـا. تلـك اللّيلـة كانـت غريبـة، هادئـة، تزايـدت نبضـات قلبـي بشـكل مفاجـئ بعـد أن زاد خوفـي وقلقـي بشـكل مرعـب، لقـد مـرّ الأسـبوع بسـرعة وغـدا سيسـافر. قالـت رودينـا

فـي هـذه اللّحظـة بالضبـط كاد تيـم يغلـق عينيـه لينـام، وصلتـه رسـالة: ينبغـي أن أخبـرك بشـيء، تشـوّش تفكيـره حيـن قرأهـا فـردّ بسـرعة: مـاذا رودينـا؟

بعـد ثـلاث دقائـق مـن التـردّد كتبـت: تيـم... اعلـم أنّـي أحببتـك دائمـا، وسـأظلّ كذلـك.

ردّ برسـالة صوتيـة: لـن أبتعـد طويـلا وأنـت اعلمـي أنّـك كلّ شـيء. كأنّهـا كلمـات عنـاق، ثـمّ تـاه فـي أروقـة الشـوق ذاك المولـود مبكّـرا.

السـاعة نفسـها، المـكان علـى مقربـة والإحسـاس مشـترك، أنهـت رودينـا تواصلها بقولهـا: اتّصـل بـي فـي طريقـك إلـى المطار.

كانت كلّما اقتربت منه راودها خوف الفقدان.

لمَّا تفرغ تيم، تحرّك باتجاه غرفة هبة، كان الباب مقفلا، وقف على العتبة للحظات ثمّ تراجع، أراد أن يخبرها بشيء وبعد ذلك أحسّ أنّه سيضايقها.

أطفأ النّور ولم يستطع النّوم، بعد ساعة من الزّمن تناول مهدّئا، كان عليه أن ينام بعض الوقت من أجل السّفر.

بهدوء، كانت رودينا تتمّ لوحة ترسمها بالرّصاص، استغلت كلّ طاقتها إلى أن استنفذتها وتعبت.

مرّت اللّيلة تعزف بدقاتها على أوتار القلوب في مسرح الشّوق..

في الصباح أخذ يوضّب ما تبقّى من أغراضه، اتّفق مع خليل لمرافقته، خلال طريقه في الوصول إلى المطار اتّصل برودينا ليخبرها، لم تتمالك نفسها هذه المرّة وفضحتها عبرة البكاء فقال:

لا تبكي رودينا، اتفقنا؟ لا تبكي أبدا، الواحدة ظهرا، موعد إقلاع الطائرة، سأتواصل معك طيلة الوقت.

"لا يتجرأ الشّوق على دموع النساء مازحا"

معجب الشمري

في أقل من خمس وأربعين دقيقة تقريبا، وصل تيم رفقة صديقه إلى مطار دمشق الدولي، لحظات مرّت في المطار، تمادت سرعة الدقائق..

الآن السّاعة الواحدة وأحد عشر دقيقة، بلغت الطائرة أوّل ارتفاع لها، بينما يجلس تيم في مقعده بالطّائرة أخذ هاتفه ونشر صورة على صفحته الخاصة وكتب أوّل ابتعاد وشوق مميت.

رأت رودينا الصوّرة، أخذت تحدّق بها ثمّ امتلأت عيناها بالدّموع وبعد تنهيدة يتبعها نفس طويل بعثت برسالة تقول فيها:

سأراقبك طوال الرّحلة

ستعاود الاتّصال بي في كلّ لحظة

كتب: أعلم جيّدا أنّك ستفعلين ذلك، ليقول بعدها: اشتقت إليك فعلا، وكلّ يكابد الشّعور نفسه.

استمرّ تيم في الحديث وإيّاها ولم يغب عنها طوال الرّحلة، كانت تشعر بالطمأنينة حينا وبالرغبة في البكاء حينا آخرا، كأنّ شيئا ما كان يعيدها إلى الوراء لا تعرفه.

***

عشرون مارس بأربيل العراقيّة، عند وصول تيم لم يكن يحسّ بالتّعب، كان والداه بانتظاره، لبث معهم ذلك اليوم وبصباح الغد حاول الاتّصال بأصدقائه والتّواصل معهم.

رائد صديق مقرّب، سعد كثيرا برؤية تيم واقف على عتبة محلّه بمخرج الشارع أين يقيم، لم يتحدّثا مطوّلا وأخذا موعد لقاء للتجوال مساء بأربيل.

رجع تيم إلى البيت، حاول القيام ببعض الأشياء وبعدها الإفطار رفقة أمّه، غير أنّ كلامها كان مقتصرا على العمل فقط متناسية التفكير به كابن كان بعيدا عنها.

بعد مضيّ ساعات قليلة، تمكّن من الخروج ورفيقه، كان يوم بداية الربيع بينما كان بسيارة يقترب من الحيّ أين عائلة رائد، على إحدى المداخل الضيّقة كاد يصطدم بامرأة فصاح زوجها ماسكا يدها: أنا شعندي غيرها؟

توقـف معتـذرا ثـمّ للحظـة اسـتوقفته كلمـات رودينـا حيـن قالـت مـرّة أنـت كل الأشـياء التـي أحبّهـا، تبسّـم وأمسـك هاتفـه لرؤيـة صورتهـا.

كان الوقـت ظهـرا وكان اليـوم ربيعيـا، دافئـا بصمـت نـاعـم كان الجميـع يتأمـل الشـارع أيـن كان النـاس يحتفلـون بألبسـة وإيقاعـات تقليديّـــة، كان احتفـالا ببداية الربيـع أو مـا يسـمّى عنـد الأكـراد بالعـراق "النـوروز".

كان الجـوّ مبهجـا وسـط المدينـة، بالنّهايـة لـم يسـتطع التواصـل مـع رودينـا اليـوم، لانشـغاله مـع لقـاءات أصدقائـه، فـي حيـن كانـت هـي تمضـي الوقـت ذهابـا وإيابـا فـي مسـاحة الغرفـة تقضـم أظافرهـا قلقـا، تحـاول الاتّصـال تبعث برسـالة ولا يـرد.

تعال قليلا

"العتاب ثالث براهين الحبّ

بعد الاهتمام والغيرة، الذي طالما خسر أمامه"

مـن منّـا لا يسـعى لمـا يريـد؟ أعتقـد أن الكثيـر كذلـك وطالمـا كنـت تلـك التـي تريـد شـيئا مـن كلّ شـيء، أحـاول للوصـول إلـى البعـد عـن الاعتياديـة لكـن سـتواجهنا تلـك العواقـب التـي تخضـع لقانـون الظّـروف، فكنـت كلّمـا ضاقـت علـيّ الأرض وتهـت، فـي كلّ مـرّة كنـت أسـقط بسـببها، كنـت أصيـب وأخطـئ فـي ذات الوقـت، كنـت أصيـب حيـن أسـجد، وأقـع فـي الخطـأ حيـن تفلـت منّـي أسـئلة:

لماذا يا الله؟

لماذا أنا؟ وماذا فعلت لأحصد كلّ هذا الألم والفشل والضّياع؟

كنت أعاتب الله...

لـم يكـن بنيّتـي أبـدا عـدم الرّضـا علـى حكمـه وأقـداره، لكنّـه كان وجهتـي الوحيـدة، يقينـي أنّـه الوحيـد الـذي يعـرف مـا بداخلـي، الأوحـد الـذي يـدرك مـا يحملـه قلبـي، كان يدفعنـي لذلك.

لا أنكـر أنّهـا غلطـة أن أعاتـب اللـه، لكـن أقسـمت لـه أنّـه عتـاب حـبّ، ذاك الـذي لا خسـران فيـه كنـت أعتـذر كثيـرا، أطلـب الغفـران بعـد ذاك البـوح فأسـميته وداد العتـاب لأنّ كلّـه حـبّ.

ذلـك وإن تغيّـرت وجهـة العتـاب لغيـره فقـد تحتمـل الخسـران، فالعبـد لا يسـتطيع رؤيـة مـا بداخلـك، قـد يخذلـك وتفقـد أشـياء كالكرامـة وعـزّة النّفـس، كأن تصطـدم بمواقـف لـم تكـن فـي الحسـبان، وقـد تسـمع كلمـات قـد تغيّـرك، ستحسّـن مزاجـك لكنّهـا غالبـا ستسـيئه، فقـد لا يتـرك الحبيـب الوفـيّ مجـالا للغيـاب ولا للعتـاب.

وحدهـا الكلمـات تنقلنـا مـن عالـم لآخـر، تعبّـر عنّـا وتجسّـد مـا يجـول فـي قلوبنـا مـن مشـاعر متضاربـة، تلـك الكلمـات فـي العتـاب قـد تكمـل طريـق الحـبّ، تزيـل كلّ مبهـم وتوضّـح كلّ سـوء فهـم..

لكن من جهة أخرى قد تنهي كلّ شيء، خاصة حين يمحو حروفها الصّمت وتضحى الحروف ذبيحة الكتمان.

(أن تبقى..)

غالبا تكون آخر جملة يقولها شخص يقاتل للبقاء معك.

تتالت الأيّام، استقرّ عمل تيم مع والده في المقاولاتية، كان يمضي ساعات النّهار بين البنايات رفقة مهندسين وعمال البناء وغيرهم، العمل يختلف تماما عن دراساته، بالرغم من ذلك كان سريع التأقلم، وكان لطيف التعامل وعمّاله.

في الضفّة الأخرى، رودينا على مقربة بثلاث شهور على التخرّج وإنهاء السنوات بالفنون الجميلة، تستطيع التّوفيق بين العمل والدّراسة والمسؤولية، ولا يزالان على تواصل، لم يكفّ تيم عن إيداع كلّ تفاصيله التي يعيشها يوميا بين دفتي قلبها، أين كان يجد عناوين الراحة والطمأنينة.

مساء أمس كانا يتحدّثان ولم يتذكّر أنّه عيد ميلادها، كانت تبتلع الضيق في ضحكة مزيّفة، نسي الجميع ذلك ولا يهم غير أنّه انتهى اليوم وجاء آخر ولم يتذكر وانتهت معه لهفة انتظار بريء.

رغم ذلك تجاوزت ذلك بعتاب ودود قائلة:

تيم... البارحة عيد ميلادي لم تقل شيئا.

حقّا.. لمَ لم تخبريني؟

نسيت ذلك، سامحيني رودينا.. ردّ برسالة.

لا عليك... أجابته

كلّ سنة وأنت بخير، قال تيم.

لم تستطع الردّ، لتظهر انزعاجها صمتت فكتب:

رودينا، أين أنت؟ انزعجت؟

يلاحظ أنّها تقرأ الرسائل ولا تردّ، فاتّصل بها وقال: لم لا تجيبين؟ آسف

ثمّ ردّت: يكفي، لم يعد مهمّا.

زفر في ضيق وبعد أن أتمّ كلامه أغلق وبعث رسالة: أحبّك جدّا رودينا، تذكّري دائما.

ابتسمت رودينا في توتر ولم تملك إجابة، أرسل بعدها: لا شك أنّك كذلك، فردّت بضحكة: لا أبدا، ما يحمله الحبّ أقوى من القدرة على الإفصاح.

ضحك تيم قائلا: تعانقين الخجل دائما، وأرسل صورة له بمكان العمل، كانت بالنسبة لها رؤيته تعويضا عن حادثة الأمس المزعج.

أن تبقى..

أن تبعثر تفاصيلي الرّتيبة

وتجمع شتات روحي

أن يلاحقني اهتمامك

وتواجهني كلماتك المكتومة

أن أمتلك نظراتك المجنونة

وتختارني مرآتك حين نقابلها سويّة

أن أكون البداية، النهاية وما بينهما

أن تسافر باتّجاهي، وتسير على الوعد، نفس اللّهفة، نفس الحبّ.

أن لا تتعثّر بشيء في طريقك إليّ.

أن تبقى لي.

(من خواطر رودينا)

استفاق حين طرقت باب غرفته أمّه، رغم أنّه لم ينم حتّى ساعة متأخرة من اللّيل، كان عليه الذهاب إلى العمل.

بينما كانا يتناولان فطور الصباح تحدّثت أمّه:

تأتي لقاء للعيادة، لتستفيد من الخبرة.

تملّكه القلق فجأة ولم يظهر ذلك ثمّ قال:

ليكن.. لم عليك قول ذلك؟

لا تخطئ فهمي، أجابت مسرعة.

لاذ تيم في صمته وهو يستمع إليها:

لقاء فتاة عاقلة ومثقّفة وواعية، ثمّ قاطعها قائلا:

حسنا.. ليس من شأني. سأذهب.

لا يزال لديك بعض الوقت، تيم.

ثم استوت واقفة وأكملت: لا مقصد لي من ذكرها فقط خشيت عليك من الألم الذي كنت تعيشه.

على الإطلاق، ردّ مبتسما.. تلاشى كلّ شيء.

قالت: غير أنّها لم تتزوّج.

سأل: لماذا؟

ردّت وهي تقترب منه: القصّة طويلة، الآن دعنا في موضوعك، هل زال إرهاقك النفسي؟

أمّي لم تطاردين أخبارها؟

قاطعته: لا أبدا.

باتجاهه نحو الباب، ابتسم رغما عنه واستدار قائلا: يخطئ المرء أحيانا في حقّ نفسه وجميل أن يتدارك ذلك.

يبدو أنّ الغصّة في قلبه ليست هيّنة. اقتربت منه وهي تربت على كتفه وهمست بحنان: سيعوّضك الله بنيّ.

حرك شفتيه بكلمة إن شاء الله وكرّرها ثمّ استأذن ومضى. خلالها كان والده قد باشر في الأعمال الّتي كانت تنتظره.

وبظروف كتلك التي تعانيها رودينا من كلّ أنواع الانشغالات، اتّصلت بتيم يقودها قلبها المشتاق، حين ردّ اعتذر لانشغاله، تمكّنت في تفهّم ذلك حينما سمعت ما يدور من ضوضاء في عمله.

بعد أقل من ربع ساعة بعث برسالة: ادفنيني حيث أكون قريبا منك، أحبك.

حين قرأتها شعرت بمزيج من الحبّ والخوف، كثير من الرغبة والحاجة إليه، إحساس بالأمان غريب.

مرّ اليوم..

لم أستطع أن أهاتفك قبل إتمامي للعمل، أرسلت لك رسالة أخرى ربّما لم تنتبهي لها، وأنا كنت سأعاود الاتّصال بك حين آخذ مكاني.

- هل قلت شيئا؟ سألته مجيبة.

ردّ بنفيٍ: لا.. لا شيء أردت أن تعرفي فقط.

سؤال عن الحال وتفاصيل اليوم، وبينما كان الحديث يحيد عن مساره الأول قال تيم:

أتذكّر أول مرة لمّحت لك عن حبّي، توقعت أن تسأليني شيئا.

مثل ماذا؟ أجابت.

أتعرفين؟ لطالما آمنت يا رودينا أنّ علاقة الحبّ التي تبعدها المسافة علاقة مستحيلة، ولا أعتقد أن هناك من يغامر ويخوض التّجربة، لأنّها لن تكون بالعمق حين تكون على مقربة من الحبيب، ما بيني وبينك خيّب ظنّي، زاد حبّي بابتعادي عنك. تكلّم معها بصدق.

خفق قلبها يعاتب الشّوق لمَ البعد؟ وأجابته بأنّ الذي يخالجها شعور أكبر.

الحبّ ديانة يعتنقها الطّاهرون، الشوق قبلتها والعتاب فريضة تؤدّى بعد ركن براءة الانتظار، لكن فيه لا نختار كلّ شيء بملء إرادتنا.

صادفت مرّة على اليوتيوب فيديو بعنوان أشخاص يقرؤون أكثر الرّسائل المؤلمة التي كتبها غرباء، فأخذني الفضول لمعرفة بعض منها، كتبت إحداهنّ:

توفّيت أعزّ صديقاتي في حادث سيّارة، كلماتي الأخيرة لها كانت: "لا أريد أن أراك مجدّدا"

ثمّ كتبت: سوف تستمر بمطاردتي لبقية حياتي، أتمنّى لو أنّها أدركت في لحظاتها الأخيرة كم كانت تعني لي وكم غيّرت حياتي للأفضل.

أعتقد أنّ الجميع سيذهب لمشاهدة الفيديو، قبل ذلك أرجو أن تبقوا سأكمل شيئا: كان ذلك

بالنسبة لي شعورا أكثر من سيّء وتأنيب ضمير مدى الحياة، لكن أحيانا يخطئ المرء دون دراية، يردّد كلمات لا يقصدها حقّا، فالغضب رفيق سوء قد يلحق الضّرر بالقلوب دون رغبة منها بكلمات قد يتكرر صداها، حين تصدم مسامعنا.

غيـر تلـك التـي قـد تتـرك حزنـا، قـد تتـرك كلمـات أثـر البلسـم بالـروح، تقـول رودينـا كنّـا كلّمـا تحدثنـا يقـول فـي ختامـه: هـلّا بقيتـي بعـد.
فيقف قلبي في مكانه يأبى الذهاب .

من أقسى الهدايا التي تقدّمها الحياة، أحباب بعيدين عنّا.

لقـاء، خطيبـة تيـم السّـابقة، كانـت العلاقـة بينهمـا حـبّ مـن طـرف واحـد، درسـا معـا فـي طـبّ الأسـنان، غيـر أنّ معرفتهمـا ببعض كانـت قبيـل ذلـك. أمـل صديقـة مقرّبـة لوالدتهـا المتوفّـاة، أصغر ابنـة بعد دنيـا المقيمـة مـع والدهـا بتركيـا، لمـار ورائـد المقيمـان بمنـزل والدهـم بأربيـل.
لـم تتجـاوز خطوبتهمـا الأربعـة أشـهر، وفـي يـوم اتصلـت قائلـة دون تـردّد وبعـد أن كانـت تبـدي عـدم اهتمامهـا بـه:
تيم، افهم لا أستطيع إكمال طريق لا أريده.
كانـت آخـر الكلمـات التـي أطرقـت مسـامعه، واجههـا بصمـت بعدمـا أهـدر مـا يكفي مـن كبريائـه، كان مـن الصّعـب اسـتمرار القلـب فـي الرّكـض وراء مـن يهينـه، لا قـدرة لـه علـى فـرض نفسـه، لذلـك أحيانـا يجـب خيانـة القلـب واللّجـوء إلـى العقـل.
واجـه تيـم تلـك النّهايـة بقـوّة غيـر أنّ خطبتهـا بعـد مضـيّ أسـابيع مـن صديقـه يونـس كانـت أشـدّ ألمـا مـن ذلـك.
يغدو الصّمت رفيقـا عزيـزا حيـن لا تعـود الكلمـات كافيـة، فأحيانـا لا تتّفـق حـروف الأبجديـة حيـن يقـوى علـى بعثرتهـا الألم.

مـرّت أيّـام وقـرّر تيـم الابتعـاد والانشـغال بشـيء آخـر، فالحيـاة مهمـا توقفـت بنـا، لابـدّ أن تسـتمرّ لأجـل شـيء مـا، ربّمـا لأجـل أنفسـنا.

لكـن يبـدو أنّـه كان للقـاء نصيـب مـن قسـوة الأيّـام، فقـد تربّـت دون أمّ مـن عمـر التّاسـعة، ووالـد غائـب علـى الـدّوام بحكـم العمـل.

مرّت أشهر..

تحدّثت لقاء مع يونس:

كفاك غموضا، تجعلني أحاول تحليل كلّ تصرّفاتك.

قرّر يونس أن يتحفّظ عن ذلك:

أووف لقـاء مـا الغمـوض الـذي تتحدّثيـن عنـه؟ ردّ منزعجـا ثـمّ قطـع الاتصـال وهـي تتكلـم.

اسـتيقظ فـي تلـك الليلـة مـن النّـوم عـدّة مـرّات قلقـا، لـم يفكّـر يومـا أنّـه سـتأتي عليـه أيـام كهـذه، لـم يسـتطع التحكّـم فـي دمعتـه.

يقـول: ولـم أشـعر بنفسـي بعـد آخـر فحـص، تهـت وضاقـت وشـعرت للحظـة بانتهـاء كلّ مـا أردت أن أعيشـه، تركـت دفاتـر الأمنيـات جانبـا، وصـرت لا أطيـق أيّ شـيء، أصبـت بالتعاسـة رغمـا عنّـي، قسـوة الأحـداث أجبرتنـي علـى مزيـد مـن الفشـل.

كان سـؤالها: أخبرنـي مـا الأمـر؟ مـا بـك؟ يتكـرّر كلّمـا تواصلـت وإيّـاه، وكان يقـول:

امنحيني بعض الوقت لأهدأ، أكابد بعض الضغوطات.

استمرّ الوضع كذلك وبعد مدّة قصيرة قرّر الانفصال عنها، لم تكن نفسيّته تسعه، برأيه اختيار أن يبقى السبب مجهولا أحسن خوفا من ردّة فعل قد تؤلم أكثر.

افعل ما شئت فأنت ملاقيه، هذه الجملة اشملت شعور لقاء، حين صدمها يونس دون أن يذكر مبرّرا لذلك، رغم ذلك كان من الواضح من تصرّفها أنّها لا تريد النقاش بالموضوع، ولم تسأل عن التفاصيل المتعلّقة بذلك.

"بعيدا عن الفضولية في حياة النّاس، البحث عن تفاصيل أعزّ النّاس جزء كبير من الحبّ"

مكان يونس كنت شكرتها على حفاوة الإهمال.

في مساء يوم آخر، في إحدى الأماكن العامّة، كان يجلس يونس يتناول بيده فنجان قهوة على مقعد بجانب الطّريق رفقة أحد من أصدقائه، لمحه تيم بينما كان مارا من ذات الطريق، أوقف سيارته على بعد بضع أمتار وقام بالتّحديق، هذا يونس؟ متسائلا مع نفسه.

بقي هنيهة وبعد أن انصرف جليسه ذهب باتجاهه يمشي بخطوات بطيئة، مدّ يده للمصافحة قائلا:

مساء الخير، كيف حالك؟

رفع رأسه متفاجئا: أنا بخير الحمد لله، منذ فترة طويلة لم نلتق تيم، عرفت أنّك غادرت أربيل.

نعم.. ردّ تيم ثمّ أردف: لم تسمح لنا الفرصة للقاء خلال زياراتي لكن... ثمّ لمّح:

المعذرة يونس، لقد تغيّر شكلك ونزل وزنك كثيرا.

استدار يونس ووجّه نظراته بعيدا، تنهّد ثمّ ردّ مبتسما ابتسامة بائسة:

لـم أفكّر فـي يـوم كهـذا. صمـت قليـلا وأردف بصـوت منخفـض: لا عليـك صديقـي، تـزداد الضغوطـات مـع العمـر.

معك حقّ.. أجاب تيم غير مقتنع بكلامه.

لمَ لا تجلس؟ دعاه يونس مُفْسِحا له المكان جانبا

كنت مارّا من هنا عبثا أحببت أن أسلّم عليك، أنا مستعجل قليلا.

كان يبدو على يونس اليأس، رغم محاولته لإخفاء ذلك. ختم تيم حديثه:

انتبه إلى نفسك صديقي.

هزّ يونس رأسه ببطء ثم قال بهدوء:

الله يكتب لنا الخير، سنلتقي ويكون لنا وقت آخر للحديث بإذن الله.

إن شـاء اللـه. أجـاب تيـم منصرفـا نحـو سـيّارته، بمجـرّد ركوبـه مسـح علـى وجهـه ثـمّ تمتـم: كـدت لا أعرفـه، تـرى مـا الـذي جعلـه هكـذا؟ عسـى أن يكـون خيـرا

قبـل موعـد العشـاء بسـاعة، أخبـر تيـم أمّـه عـن يونـس، قـال أنّـه كان غريبـا، ردّت أمـل فـي نفـي:

لـم تسـمح لـي الفرصـة بمعرفتـه وجهـا لوجـه، لكـن مـا أعرفـه أنّ انفصالـه عـن لقـاء كان برغبـة مفاجئـة منـه منـذ خمـس أشـهر تقريبـا.

غريب.. ردّد تيم في حيرة

ليكن، سأستفسر الأمر من لقاء

لا أمّي.. انسي ذلك، ردّ مسرعا.

كان تيم متعبا للغاية، لم يستطع الجلوس مطوّلا مع والديه، غادر الصالون نحو غرفته، حاول مشاهدة مباراة كرة يد، لكنّ عقله كان شاردا، تتزاحم الأفكار عليه دون أن يعرف مسارا محدّدا لها.

في ذات الوقت استغربت رودينا لعدم ظهوره طيلة اليوم، حاولت الاتّصال به لكنّه لم يلحظ ضوء شاشة هاتفه فقد أغفي عليه، انتابها خوف في حين كان لا يردّ على اتصالاتها.

***

كانت تحبّه لكنّها لم تفعل شيئا لتحارب معه، الحياة مليئة بأولئك الذين يحبّون الأشخاص فقط حين يكونون مصدرا لسعادتهم، لكن ما ذنبهم حين يكون الألم نصيبهم؟ سيكون شيئا رائعا لو وجدنا حياة خالية من الألم.

خمس أشهر قبل الآن..

كان يوما أكثر من سيّء بالنسبة ليونس، المفاجآت لا ترحم، بينما كانت تمرّ عليه فترات من الإرهاق الشّديد، كان يحاول إشغال نفسه حتّى لا يضايقه التفكير، وحين ينتهي ذلك ينتظر الليل كي يأتي ليبقى وحيدا بعد أن ينام الجميع، ليخلع قناع الابتسامة المبتذلة ويتواجه وجها لوجه مع التّعب، اليأس، والانهيار يقضيه بين اليقظة والنّوم، رغم كلّ محاولاته عقله مزدحم، يستيقظ في الصباح بعد معركة وينتظر رسالة من لقاء ولا يجد، يتّجه للدوام كطبيب عيون بقدرة عجيبة على التحكم في الصراعات بداخله.

يقول يونس: في تلك اللحظة التي أمسكت فيه الفحص وأدركت إصابتي بمرض خبيث "سرطان القولون"، بقيت في مكاني، أعدت قراءته مرّات عديدة، لم أحسب حسابات أن ذاك الألم بذات العضو قد يبالغ في التطوّر

هكـذا، قـد يؤذينـي إلـى هـذه الدّرجـة، شـعرت حينهـا وكأنّ حربـا نفسيّة اندلعت بداخلـي، ضاقـت الأرض مـن حولـي تقطّعـت أنفاسـي وبـات الهـواء علـى غيـر عادتـه يخنقنـي، أحسسـت أنّ شـيئا ثقيـلا يمـرّ علـى قلبـي ليتـرك آثـارا للضيـق بـكلّ مـكان، وقعـت عاجـزا فـي سـاحة الصّدمـة.

أمضيـت الليلـة تلـك واقفـا بالمنتصـف، لا المـوت تأخذنـي وتكـون طريقـا لنسـيان هـذا الغبـن، ولا الحيـاة تتركنـي دون كسـري مـرارا، تتالـت اللّيالـي كذلـك وأنـا أبـذل مجهـودا لإخفـاء دمعـي ووجعـي.

فـي خامـس يـوم، قـرّرت إخبـار عائلتـي بذلـك وكنـت أسـتجدي الحـروف والكلمـات لكـي لا تظهـر ضعفـي، الثّامنـة مسـاءً.. جلسـت بينمـا كانـوا مجتمعيـن، بهـت لونـي، تنازلـت عـن صمتـي فجـأة وتحدّثـت.

انـهيار والدتي ودمعة أخي محمّد دعتني لتمالك نفسي وادّعاء اللّامبالاة.

مـرّت أشـهر واليـوم أتمنـى لـو تعـود ليلـة واحـدة مـن تلـك اللّيالـي قبـل إصابتـي، لـم أسـتطع إخبـار والـدي الـذي كان طريـح الفـراش فـي مرحلـة متقدّمـة يعانـي نفـس المـرض فـي رئتيـه يقـاوم منـذ مـدّة.

كان والـد يونـس إنسـانا محترمـا وهادئـا جـدا، متقاعـد مـن منصـب إطـار فـي شـركة عسـكرية منـذ ثـلاث سـنوات بعـد أربعـة أشـهر مـن أصابتـه.

فـي كلّ مـرّة كان الفشـل يلـفّ محاولاتـه بالنسـيان، فينتهـي بـه الإحبـاط منزويـا في ركنـه اللّعيـن، ينفّـذ عليـه مؤامراتـه ولا يتـرك لـه سـبيلا للنجـاة منـه، يتسـلّل إلـى قلبـه شـيء مـن الحنيـن فيصيبـه التوتـر، أحيانـا يتهـوّر ليقـدم علـى إرسـال رسـالة فـي بريـد لقـاء، صـوت بداخلـه يشـجعه، لكـن سـرعان مـا توقظـه آخـر صفعـة تلقاهـا حيـن غـادر مـع الشـيء الضئيـل مـن الأمـل، يخطـر علـى بالـه سـؤال:

كـم كانـت سـتكلّفك رسـالة؟ كنـت أعلـم أنّنـا سـنفترق ولـو بقيـتِ، لكـن لـم أتوقّـع أنّـك سـتكونين مدهشـة بالقـدر الكافـي الـذي أنهـك أفكاري ومشـاعري وملامحـي، لـم يخطـر ببالـي أنّـك عظيمـة التّخلـي ولـم تفكّـري فـي لحظـة مـدّ يـد الشـفقة علـى الأقـل، لـم تمثّلـي حتّـى ذلـك، كانـت صراحتـك بالغـة الأنانيـة وموجعـة حقّـا، لكـن قـد تمنحنـا الحيـاة وجعـا كطريقـة نجدهـا لنسـيان وجـع آخـر، تمنّيـت حينهـا لـو لـم يكـن لنـا لقـاء فـي الحيـاة.

أحيانـا السـقوط يوقعنـا علـى حقيقـة بعـض البشـر، يكـون مؤلمـا حيـن نصطـدم بأحبّـاء يجعلوننـا ندعـو علـى أيّامنـا بـأن تمـرّ وتنتهـي.

لـم يكـن تيـم يعلـم بالوجـه الآخـر للحيـاة الّتـي يعيشـها يونـس، لكـن الـذي عرفـه بعـد أيّـام أخـرى أنّ الـذي أصابـه شـيء لا يسـتطيع تصديقـه، خاصّـة وأنّ وعيـه كان أوّل مـا يمنعـه مـن ذلـك، هـو شـخص طالمـا كان ناجحـا فـي ميدانـه، طمـوح، مـدرك ولا يقـدم علـى الخطـأ، لا يسـتطيع إيـذاء شـخص خاصـة نفسـه.

بيـن كلّ تلـك الأمـور الجديـدة التـي حصلـت، كانـت رودينـا فـي الضفّـة الأخـرى مسـتاءة لغيـاب تيـم دون أن يـردّ عليهـا، تحـاول جمـع أجوبـة لتسـتطيع التّكفّـل بحيرتهـا، تفكّـر بطريقـة مهلكـة وتتـآكل مـن فـرط الخـوف.

في مساء ثالث يوم، قرأ رسالتها في بريده الوارد وأجاب:

أعتذر انشغلت كثيرا هذه الأيّام.

حيـن قـرأت الرسـالة اسـتاءت لذلـك البـرود والحجّـة غيـر المقنعـة، فهـي كانـت رغـم انشـغالها تتواصـل وإيّـاه، تجاهلـت رسـالته ثـمّ اتّصـل بعـد هنيهـة، كانـت تبـدو منزعجـة:

أتتجنّبني تيم؟ ردّت مباشرة ثمّ صمتت.

لا أبدا رودينا كيف يخطر ببالك شيء كهذا؟

أيّا كان الحمد لله أنّك بخير. أجابت وفي صوتها عَبرة.

أرجوك لا تنزعجي رودينا، كما قلت لك انشغلت بعض الشيء، هذا ما حدث..

أشعر أنّي أخطأت بحقّك ولم أنوِ شيئا كهذا إطلاقا.

أجابت: لا أعتقد ذلك.

أعرفك جيّدا، قولي ما تكتمينه في صدرك ولا تدعيني أتألّم لأجلك، كان يحاول إنهاء سوء الفهم.

ثمّ أردف: لا أدري حقّا بما أراضيك، لكن لن أسمح بإيذائك ولن أغفر لنفسي ذلك.

تجاوزت رودينا وغيّرت الكلام بعد أن قالت: أحبّك كثيرا وأخاف عليك كثيرا ولا أعرف كيف أتصرّف حين تغيب وتصبح كلّ الأفكار السوداء تداهمني، لا أستطيع إكمال يومي دون الاطمئنان عليك، دون سماع صوتك، دون وجودك.

فهمت.. ردّ متأسفا.

أجابته: أتعرف تيم؟ سكت ولم يردّ، كرّرت تيم، تيم..، تلحظ شاشة هاتفها تهتف، لم يقفل، تيم..

ثمّ أجاب نعم، تأففت لمَ تتلاعب هكذا؟ فردّ ضاحكا: اشتقت لسماع اسمي منك.

خفق قلبها في خجل، تردّدت ثمّ غيرت الموضوع.

بعدما أتمّ حديثه معها، جلس بمفرده يردّد بداخله كيف وصل الحال بيونس لتعاطي المخدّرات، كان غريبا بالفعل ، لم يخبره أحد لكنّه لمحه في ركن من الشّارع يمسك بذاك الكيس الصغير من عند مروّج، يفتحه، يأخذ بعضا منه ويستنشقه، يخبئه في جيبه في تردّد ونظراته إلى ما حوله تشير إلى خوفه من شيء يقول في نفسه لا أستطيع إحراجه بالسؤال خوفا من ردّة فعل ولا أستطيع الاستفسار من قريب فأفضحه، في هكذا أمر هو مجبر على غضّ تفكيره واستبداله بالدعاء له.

بعد أشهر من مرضه، رفض تيم العلاج الكيميائي، ذلك الألم الذي كان يصيبه أمسكه عنوة نحو عادة سلبية، استطاع أحد الرفقة استغلال وضعه ووضعه في سمّ المخدّرات، في البداية كان يحصل على جرعات تنسيه ألمه إلى أن أصبح مدمنا يلجأ إليها كلّما استصعب عليه تحمّل الألم الذي ينخر صدره.

كيف يتجرّأ البعض على كلمات، تتسبب في تدمير السّلام الداخلي للآخر ليسهر على مرارتها ليال طويلة وينامو هم مرتاحي الضمير؟ كيف يستطيعون مواجهة الوجع بوجع؟ طبعا لن يشعر بك أحد سواك.

اعتقد تيم أنّ سبب انفصاله عن لقاء هو ذات السبب، في حين كانت هي لا تجهل حقيقته لمّا أخبرها محمّد بنيّة أنّها قد تستطيع التخفيف عنه كأكثر شخص قريب إليه، غير أنّ المتوقّع لم يحصل، ممّا جعل يونس ينزعج بكشف ما أراد إخفاءه خوفا من خذلان كهذا، فيما بعد أدرك أنّ شقيقه كان يبحث له عن اهتمام لا مشروط كي لا يشعر بالحرج في طلب ذلك بطريقة ما تجعله يحس بالشّفقة.

تفاجـأت لقـاء فـي ذلـك اليـوم باتصـال محمّـد، فهـو لـم يسـبق لـه ذلـك، لـم تصدّقـه فـي بدايـة الأمـر قائلـة:

أتمزح؟ أنت تعرف ما الذي تهذي به؟ ردّت في توتر.

ردّ بصـوت حزيـن: كيـف أمـزح بموضـوع كهـذا، لكـن عديـنـي، لا تقولـي أنّـي أخبرتـك، حالتـه النفسـيّة سـيّئة لذلـك يتكتّـم حاليّـا عـن الموضـوع.

لـم تسـتطع لقـاء حبـس دمعتهـا، لـم تكـن تنتظـر شـيئا كهـذا ولا أحـد كان كذلـك، أمسـكت هاتفهـا كـي تتصـل بـه ثـمّ تراجعـت حتـى تسـتطيع تمالـك نفسـها.

بمـرور الأيّـام كانـت فـي تواصلهـا معـه شـيء مـن الشّـفقة، لكنّهـا كانـت تفـي بالغـرض علـى الأقـل، رغـم أنّـه كان يجـدر بهـا الأكثـر، بينمـا كان يونـس يعانـي الضّيـق اتخـذ قـرارا، اسـتجابت لـه بـكلّ أنانيّـة.

في طيّ الغياب

"نحن الّذين تعوّدنا على الوحدة،

على مرور الأيّام دون أن يسأل عنّا

لا نعاني كثيرا..

أنتم الّذين تعودتم الانتظار

تموتون الآن"

مـا نعرفـه غالبـا أنّ الأمنيـات تأخـذ وقتـا طويـلا كـي تتحقّق، ربّمـا سـنة، سـنتين، أكثـر أو عمـرا كامـلا.. تسـتولي علـى وقـت كاف كـي تفقـد الرغبـة فيهـا أو تحتـاج معجـزة وقـد تبقـى معلقـة للأبـد، لكـن منّـا مـن قطعـت أناملـه مـن فـرط التّمسّـك، تعبـت روحـه مـن الركـض وراءهـا، شـابت أيّامـه ونسـي أن يعيـش، تخلّـى عـن حيـاة كان الكثيـر يسـتغلّ كلّ لحظـة بهـا وكان هـو ينتظـر شـيئا مـن الحيـاة ليكملهـا بـه، فـي هـذه المسـاحة الواسـعة مـن أصحـاب الأمانـي الرفيعـة، الأكثـر حظّـا جـزء وصـل فـي أوّل الطريـق، يليـه جـزء أنهكتـه المطبّـات وفقـد لهفـة الانتظـار، آخـر يقضـي عمـرا يحـاول، وأخيـر فقدتـه الحيـاة دون أن يحقّقهـا، لا أقصـد شـيئا سـلبيا لكنّهـا حقيقـة عالمنـا العربـيّ، يركلـك للـوراء كلّمـا نهضـت ورميـت بخطـوة، تلـك الّتـي تعـادل تعـب سـنين بعـد محـاولات ليسـت بالهيّنـة. هنـا قـد لا تسـتحق الحقـوق لقـب أمنيـة، لكنّهـا وللأسـف هـي كذلـك قـد يضـمّ قامـوس الأمنيـات فـي مجتمعاتنـا مصطلحـات غيـر متوقّعـة كغطـاء ومسـكن.

قـد يمـوت غالبيّـة التّعسـاء علـى ذلـك وطوبـى لمـن عاشـوا علـى أمـل ثابـت، رغـم رؤيـة أسـمائهم علـى قائمـات المقصييـن مـن السّـعادة.

كتبت رودينا خاطرة بعنوان، جملة قد تضمّ إلى القاموس السّابق:

اتّصل أرجوك..

يداي تؤلماني من التّـــشبّث

قدماي تعبتا من الوقوف والانتظار طويلا

أخبرتني أنّك لا تجيد الغياب

ولا تترك يد عزيز عبثا

بالمناسبة أنا أيضا..

قرّرت التّمسّك بك وإن تعرّضت للأذى

طالما بحثت عن فرصة لإسعادي

وبالمقابل استهلكت طاقتي للحفاظ عليك

صرّحت أنّ حياتك كانت فوضى قبلي

وانتهت أيّامي الرتيبة بغيابك

لم أتوقع غيابك

والآن...

لا شيء في مكانه الصّحيح والنبض تغيّر

مقيّدة تحت تأثير الوحدة

وقلبي يكاد ينطفئ

في نهاية غيابك.. عد

لايزال الوميض يجيبني

لايزال ضوؤك يهمس لقلبي

لايزال بعيدا لكن..

لا زال يناديني..

***

قد يختفي أهم شخص من حولك حين تكون في أمسّ الحاجة إليه، قد لا يقصد ذلك وقد يبالغ إحساس الفقد في صدرك وقد تكون حقّا ذا حظّ قليل، حتما سيكون مؤلما لو كان متعمّدا وما أصعب أن لا تعرف السبب في حدّ ذاته.

عـام يمـرّ وكلّ شـيء يـزداد سـوءا يـا قلبـي، مـن كان يظـنّ أنّ كلّ شـيء سـيتغيّر بيـن يـوم وليلـة، القـدر غالبـا مـا يبـدع.

جلسـت لقـاء إلـى جانـب أمـل، علـى طاولـة الفطـور، بالمقابـل تيـم ووالـده، لا يعـرف لـمَ اسـتدعتها أمّـه لمنزلهـم وبينمـا كانـت هـي تتطلّـع إليـه فـي ترقّـب حـاول إظهـار الثّبـات وإخفـاء انزعاجـه، تنهّـد بينمـا كان يعـدّل جلوسـه ثـمّ سـألها:

كيف الحال لقاء؟ أرى أنّك ضيفة عندنا ثمّ ألحق كلماته بنظرة استهزاء.

بينمـا كانـت تفـرك يديهـا فـي توتّـر، تطلّعـت إليـه متفاجئـة مـن تصرّفـه وردّت:

بخيـر وأنـت تيـم؟ علمـت مؤخّـرا بعودتـك.

هزّ رأسه وقد اعتلت ثغره ابتسامة مبتذلة ولم يجب.

لـم يعـد يـدري كيـف يزيـل بقايـا تلـك المـرارة، تنفّـس بعمـق بعـد أن تنـاول كـوب مـاء ثـمّ اسـتأذن بالانصـراف قائـلا: بالصحّـة والعافيـة عليكـم.

ضحكـت أمـل وهـي تحـاول إيجـاد كلمـات ترتّـب بهـا الموقـف ثـمّ أردفـت: لـم لا تجلـس بنـيّ؟

قاطعهـا محـاولا السـيطرة علـى أعصابـه: تذكّـرت أنّ لـديّ موعـد وقـد تأخـرت، ثـمّ قـال فـي نفسـه مـا الـذي تحاولين فعلـه أمّـي؟

أمّـا عـن لقـاء فحـدّث ولا حـرج، كان داخلهـا يصـرخ بالنّـدم، تمنّـت لـو أنّهـا لـم تخذلـه.

ولأوّل مـرّة تواجهـا بعـد سـنين انفصـال، بعـد أن طعنـت كبريـاءه، لكنّـه كان قويّـا بعدهـا ومضـى واقتنـع بعدهـا أنّهـا كانـت خطـأه الأكبـر.

بينمـا اندفـع خارجـا هروبـا مـن إلحـاح والدتـه، مكالمـة هاتفيّـة فـي وقتهـا مـن رودينـا أعادتـه إلـى هدوئـه فهـي نقطـة ضعفـه التـي يشـعر بحضورهـا بالعجـز

أمـام كلّ مـا هـو سـيّء، والتـي أدرك بهـا أنّ أفضـل مـا فعلـه هـو الاسـتمرار فـي الحيـاة وعـدم تحريـك الرّمـاد الـذي تركـه الماضـي.

"مـن قـال لـك أن الحيـاة تمنحـك فرصـة وحيـدة لا تتكـرّر، حدّثـه أن مـن أوجدهـا لديـه خزائـن فـرص"

بينمـا كانـت تـراه الشـخص الـذي دخـل حياتهـا، فـي حيـن لـم تكـن تنتظـر ذلـك، الـذي تتفـق معـه فـي تفكيـره، الـذي اسـتطاع اكتشـاف أعماقهـا، يعـرف مـا يـدور بخاطرهـا قبـل أن تفصـح، لا يملّ مـن شـكاويها المتكـرّرة، يشـجّع طموحهـا ويفهـم نبرتهـا ويحتـوي دمعتهـا وينشـر بيـن ثنايـا روحهـا الاطمئنـان والثقـة.

لطالمـا كنـت أراه هديّـة عظيمـة وغيـر متوقعـة مـن حياة جديـدة بدأت به، الشّـخص المناسـب والحقيقـة المطلقـة، الصفحـة الوحيـدة في روايـة الحـبّ الأزلي.

كان يـوم عطلـة، لـم يكـن لتيـم أيّ موعـد كمـا قالـه لكـن يبـدو أنّـه كذلـك ولكـن علـى بعـد مسـافة، تلـك التـي يملؤهـا الحضـور، المحبّـة، الصـدق والأمـان..

تحدّثـا مطوّلا كأنّهمـا يسـدّدان أقسـاط الأسـابيع الماضيـة، خلالهـا كانـت تبعـث لـه رسـما مطابقـا لـكلّ صـورة ينشـرها علـى موقـع التّواصـل الاجتماعـي، تصوّرهـا وتتركهـا علـى درج فـي مكتبهـا تحفـظ كلّ حافّـة منـه ملامحـه. أخبرهـا أنّهـا كانـت هـي أجمـل لوحـة صادفهـا وأجابتـه أنّـه الوحيـد الـذي تحفـظ تفاصيـل وجهـه عـن ظهـر قلـب.

تحدث تيم قائلا: ليتني أعرف.

أيّ أمنيـة أنـت رودينـا؟ لـو بقيـت أبحـث فـي صنـدوق الأمانـي طويـلا لمـا اعتقـدت وجـود واحـدة مثلـك..

أرجوك كفى مجاملة، ردّت بسرعة.

لم يدع لها المجال لتكمل وكرّر بجنون: اشتقت إليك جدّا.

تحاول في كلّ مرّة انتهاز الفرصة لتسأله متى تعود؟

ولا تستطيع مستسلمة للخجل، بينما يخنقها انتظار حديثه عن ذلك.

حتى الآن مرّت أكثر من ستّ ساعات،

عند رجوع تيم إلى البيت اتّجه نحو غرفة أمّه بخطوات واسعة، أراد التحدّث معها بشأن ما حدث، لكنّها فتحت الموضوع، تطلّعت بعمق، أمسكت يده وهي تقول بصوت منخفض:

لا بأس تيم لا تلمني، لم تكن لديّ نيّة في إزعاجك بذلك.

تنفس ببطء وقبل أن ينطق قاطعته: هي ابنة مريم أعز صديقاتي لا أستطيع تجاهلها، عدم اتفاقكما يوما لا تعني أنّها لن تكون في حياتي، طالما أحببتها كابنة لي.

يقول في نفسه: لست أفهم لما لا تستطيع أمّي رؤية ذاك الكمّ من الأنانيّة فيها، ثمّ أجابها: يمكنها التواجد في حياتك أنت فقط أمّي لكن لا ترغمينا نحن على ذلك.

أعلم وحيدي، ردّت وهي تجلس، تنهّدت ثمّ أردفت وبريق الدمع في عينيها تبرّر في لطف: لكن.. لقاء بالنّسبة لي كانت عوضا من الله، في نفس الأسبوع الّذي أخبرتني فيه الأخصائيّة أنّي لا أستطيع الحمل مجدّدا، بعد أن فقدت أختك في بطني وقد عاشت في رحمي ثمانية شهور، يوم انتهت أمنية إنجاب أخت لك. "

تالا" كان سيكون اسمها، وهي تمسح دمعة تنزل جلس بجانبها ثمّ قال: أمّي، أرجوك ثمّ اقترب يضمّها وهي تربت عل كتفه بيمينها ابتسمت ثمّ

أكملت: في ذلك الأسبوع توفيت مريم بحادث سيّارة، في تلك الأيّام احتلت مكان قلبي كومة ألم، بعدها.. أبقيت لقاء معي عدّة أشهر وكانت بعمر التّاسعة، أحببتها جدّا.

أغمض عينيه في استسلام، أمسك على جبهته ثمّ أردف:

حسنا.. أمّي، أعتذر، افعلي ما يريح قلبك..

لا تقلقي لا تفكّري أنّني أنزعج منك أبدا، تأكّدي من ذلك، قال ذلك فيما كان ينهض من مكانه.

في تلك اللحظة نادته: تيم، أحضّر لك شيئا تأكله؟

ابتسم قائلا: حقّا لم آكل شيئا، لكن لست جائعا، سأرتاح قليلا في غرفتي.

عقب ذلك، بقي في غرفته يداعب أوتار قيثارته بطريقة سلسة، إلى أن استجاب لوالده وهو يطلبه لترتيب بعض الملفات الخاصّة بالعمل، جلسا في صالة البيت، تبادلا أطراف الحديث لمدّة، ثمّ اقترح تيم على والده بأن يقوم بذلك لوحده، فأجابه:

نعم... بالتأكيد. أحسنت، فكرة مريحة، لكن استعجل بذلك، لا أحبّ تأجيل شيء كي لا تتراكم ونشعر بالضغط.

أومأ برأسه في موافقة ثمّ أردف:

لا عليك، ستكون جاهزة صباحا، ثمّ جلس متفرّغا لإتمام ذلك، بينما كان كذلك بعث برسالة لرودينا:

أتمّ عملا، لا تنامي، انتظريني أودّ الحديث معك.

أجابته بعد حين: لا تتأخّر.

ابتسم يردّد بداخله: أعرف قوانينك العنيدة،

وكتب: حسنا.. سأكون متفرّغا بعد نصف ساعة.

تجاوزت السّاعة الثانية عشر ليلا ولا يزال تيم منشغلا، انتظرت رودينا ثمّ تمتمت: لم يبق سوى ساعات قليلة على موعد الدوام، لن أبقى أكثر الكلّ نائم.

وضعت رأسها على الوسادة وأغمضت عينيها، بينما هي تسحب الغطاء على كتفيها اهتزّ هاتفها أجابته بصوت ناعس: لا يمكن الحديث الآن، الوقت متأخّر تيم.

ردّ قائلا: ما رأيك أن تبقي قليلا؟ رجاءً

آه وتسألني تيم، تعرف رأيي تماما، غدا نتكلّم.

فأجاب ضاحكا: اشتقت إليك، سأتصل بك باكرا، أحبك.

ردّت: اشتقت إليك أيضا، حسنا تصبح على خير.

"تجاوزت بك الحبّ ولازال البعض يتجادلون، أيوجد بالفعل ما يسمّى حبّ؟"

***

أكثر من خمس وعشرين سنة قبل الآن..

بعد علاقة دامت سنة من أوّل لقاء بتركيا، تزوّجت أمل واستقرّا بمحافظة أربيل العراقية مسقط رأس زوجها بعد فترة عادت للدراسة بالتسجيل في كليّة الطّب، في بداية الأمر أحسّت بالغربة في الوسط فقد كانت السوريّة الوحيدة آنذاك، تعرّفت على مريم عن طريق زوجها فهي أحد قريباته، زوجة ابن عمّه، وهو يعرف أنّها بذات الكليّة، تواصل معها لتكون بجانبها خاصّة وقد كان يسافر بكثرة من أجل العمل، اتّفاقهما في التفكير جعلهما مقرّبتان

مـن بعضهمـا، كبـرت الصداقـة بينهمـا مـع الأيّـام والمواقـف.

كانـت مريـم فـي نفـس الكليـة بقسـم مختلـف "قسـم طـبّ الأطفـال"، تخرّجـت بعدهـا بسـنتين، وتمكّنـت مـن فتـح عيادتهـا الخاصّـة، لكـن اسـتمرّ الوصـال بينهمـا وكانـت سـندا لهـا وتمكنّـت مـن التأقلـم بالبلـد بفضلهـا.

كانـت مواقفهـا اتّجاههـا بالنسـبة لهـا جميـلا تقـدّره لهـا مـا اسـتطاعت، تعاملـت معهـا كأخـت حقيقيّـة، واليـد التـي مـدّت لهـا فـي حيـن كانـت تجمـع بيـن الدراسـة والأمومـة، كانتـا ملجـأ لبعضهمـا فـي الحياة.فـي يـوم الحادثـة السـيّئة قالـت أمـل: "لـم أسـتطع حتّـى توديعهـا، فقدتهـا غـدرا."

توفيـت وهـي أمّ لثـلاث أطفـال قبـل أقـلّ مـن خمـس عشـر يومـا مـن عيـد ميلادهـا الثّانـي والأربعيـن.

أنـاس كهـؤلاء نلتقيهـم صدفـة ليؤكـدوا لنـا أنّ الصداقـة والحـبّ والوفـاء لا تقـاس بالسـنين، هـم رزق يأتـي كهديّـة إلهيـة لقلـب يسـتحق، يصنعـون جميـلا فينـا ويرحلـون دون إنـذار، يغـادرون ومازلنـا بحاجـة لهـم.

المكان/ دمشق.

نهايـة الشـهر، كانـت رودينـا تمـرّ بأيّـام ليسـت بالسـهلة، اختلـت موازيـن الحيـاة حولهـا، وذلـك البيـت الـذي كان مهجـورا مـن قبـل ولـم يرغـب أحـد يومهـا العيـش فيـه، حينهـا كان ملجأهـم لسـنوات متتاليـة، إلـى اليـوم تعشـن فيـه مـن دون أن يحسـب حسـابا لأمـر كهـذا، بـأن تقـدّم لهـم مهلـة سـنة للخـروج منـه مـن قبـل ورثتـه.

سنة؟ يـا لهـا مـن رحمـة منهـم، لكـن أليسـت فـي يومنـا هـذا تمضـي بسـرعة؟ كيـف؟ وأيـن؟ وإلـى أيـن؟ أسـئلة تحاصـر رودينـا وأمّهـا ربّمـا قـد أمضـت عقـدا مـع المفاجـآت السـعيدة كهـذه.

حسنا.. أشـعر أحيانـا أنّـه علـيّ اسـتبدال بعض الكلمـات، لكـي لا أظهر تلـك الدّرجة مـن السّـوء، التقـت نظراتهمـا حيـن آتاهمـا الخبـر، لكـن لـم يكـن يسـعهم سـوى للرضـا، فمهمـا كانـت الأمـور تسـير علـى مـا يـرام إلاّ أنّ هنـاك أشـياء تسـرق اسـتمرارية ذلـك وتطفـو لتصنـع مطبّـا، مشـكلة، مجـرّد التفكيـر فيهـا صعب.

غالبـا الأخـت الكبـرى تسـتطيع حمـل المسـؤوليّة كأمّ ثانيـة، لا أدري قـد تكـون رغبـة منهـا أو فرضـا عليهـا، لكـن أؤكـد أنّ الحيـاة ستقسـو عليهـا بعبء كهـذا إن كانـت دون سـند، فالمـرأة مهمـا كانـت قويّـة سـتضعف فـي غيـاب الرّجـل.

تبعثـرت كلّ مخطّطاتهـا آنـذاك ورغـم ذلـك كان تيـم الشّـخص الوحيـد الـذي يرتّـب روحهـا حيـن تنسـى آلامهـا بجانبـه، ربّمـا هـو الاحتيـاج، السـبب الـذي جعلهـا تتعلّـق بـه أكثـر، تضـمّ اسـمه فـي كل دعـاء، صـار أهـمّ أمنياتهـا فـي نفـس الوقـت الـذي أدمـن هـو اهتمامهـا المختلـف، خوفهـا الدّائـم، محاولاتهـا الدّائمـة لإسـعاده، تلـك الّتـي تحفظـه عـن ظهـر قلـب بالنسـبة لـه كانـت تجمـع كلّ شـيء، تـدرك فـنّ التعامـل بإيجابيّـة، صاحبـة الملامـح المختلفـة بابتسـامة وبهجـة طفلـة رغـم مـا تعانيـه، مسـامحة كامـرأة تجـاوزت ألـف نكبـة لتصـل لهـذا القـدر مـن العقلانيّـة، عنيـدة لا تتراجـع، هادئـة تسـتفزّ نبضـات القلـب، لسـان ليّـن يسـتطيع إقناعـك أنّ العالـم جميـل، لا تبالـي للعيـوب، لا أحـد بإمكانـه التّصديـق بوجـود مخلـوق مثلهـا، "لكنّهـا وجـدت" والمؤكّـد أنّهـا لا تتكـرّر.

فـي آخـر محادثـة قبـل غيابهـا، بينمـا كانـت تجلـس علـى الكنبـة تشـرب فنجـان قهـوة، رنّ هاتفهـا، بالتأكيـد هـو المتّصـل، ردّت مسـرعة وكان يبـدو بصـوت متعب، أخبرها أنّـه صداع نصفـيّ منـذ الأمـس، انزعجت كعادتهـا بهكـذا وضـع واستمرّت فـي الـسؤال عنـه طـوال اليـوم، ردّة فعلـه هـذه المـرّة كانـت سيّئة علـى قلبهـا حيـن ردّ فـي توتّـر:

أليس لديك انشغال غيري؟ أنا بخير..

لـم تعـرف حينهـا بمـا تـردّ، سـكتت لحظـة ثـمّ ردّت بهـدوء: آسـفة لأنّـي خفـت عليـك، كـرّرت آسـفة ثـمّ أقفلـت الخـطّ.

صـرخ ليسـتوقفها: انتظـري لا.. لـم يكمـل جملتـه وقـد أقفلـت، تعكّـر مزاجهـا بتلـك المعاملـة وحاولـت مسـك نفسـها لكـن الأمـور تراكمـت فبكـت حيـن لـم يعـاود الاتّصـال، كانـت تقـاوم دمعتهـا، لملمـت شـعرها ثـمّ غـادرت غرفـة لتجلـس برفقـة أختيهـا، كانتـا منشـغلتين بلعبـة علـى اللابتـوب، سـحبت كرسـيّا دون إحـداث صوت وضعتـه بالقـرب مـن قمـر وضعـت يدهـا علـى كتفهـا وشـاركتهم فـي ذلـك، بينمـا كـنّ كذلـك دخلـت زينـب الغرفـة تخبرهـا بخروجهـا لشـراء بعـض الحاجيّـات، رافقتهـا رودينـا لتغلـق البـاب وراءهـا، وبعـد انصرافهـا اتّجهـت نحـو غرفتهـا، أفرغـت خزانـة ملابسـها، تعيـد ترتيبهـا بذهـن شـارد.

فـي اليومين الماضيين ظـلّ الحـال كذلـك، تتفحّـص هاتفهـا بين انشـغالاتها تتوسّـل رسـالة عابـرة، بيـن العمـل والتخـرّج والتفكيـر تقضـم أظافرهـا قلقـا، اصابهـا الإنهـاك مـن كلّ هـذا فطلبـت إجـازة فـي العمـل تسـتطيع فيهـا اسـترجاع نفسـها قبـل أسـبوع كامـل مـن التّخـرّج، حصلـت علـى موافقـة صاحبـة الصيدليّـة وأعطتهـا ثـلاث أيّـام إضافيـة، فـي تلـك اللّيلـة أحسّـت بالفقـد فاستسـلمت للشّـوق فبعثـت

برسـالة فـي بريـده كتبـت: مـن الواضـح أنّـك لا تريـد الحديـث معـي ولا حتّـى سـؤال.

بعـد سـاعة مـن انتظـار ردّ وصلـت رسـالة علـى بريدهـا، كانـت مـن سـهى، تتواصـل معهـا بشـأن أخـذ موعـد بالجامعـة، بعـد أن أتمّـت المحادثـة قالـت بصـوت خافـت: افعـل ذلـك، اتّصـل تيـم.

كانـت السّـاعة قـد تجـاوزت الثّامنـة مسـاء، بعـد أن قـرأ رسـالتها كانـت متصلـة منـذ سـاعتين، اتّصـل بعدهـا مباشـرة ، ابتسـمت حيـن رأت رقمـه وتباطـأت فـي الـردّ، وضعتـه صامتـا، عـاود الاتّصـال فـردّت عليـه، كان يظـنّ أنّهـا غاضبـة منـه فقـال: لـم أتعمّـد أذيّتـك كنـت غاضبـا حينهـا..

لكـن لمـاذا لـم.. كانـت تباشـر بسـؤاله لكنّهـا تراجعـت قائلـة: حسـنا انـس ذلـك، أخبرنـي كيـف كانـت أيّامـك؟

ردّ: فـي الحقيقـة سـيّئة دونـك. تحدثـا ولـم يلحظـا مـرور أكثـر مـن سـاعة علـى ذلـك.

تتالـت تلـك الأيّـام واليـوم حفلـة التّخـرّج، أشـرقت الشـمس دافئـة صباحـا، بطلّـة أنيقـة قابلـت المـرآة وضعـت شـيئا خفيفـا مـن مسـاحيق التجميـل وأسـدلت شـعرها، ارتـدت حـذاء بكعـب عـالٍ، رافقتهـا أمّهـا وقبـل أن تغـادر البيـت كانـت ترسـل سـلاما ليتـم فـي تلـك اللّحظـة وجدتـه يكتـب: يـوم موفّـق رودينـا.

بالنسبة لها استطاع تخفيض نسبة كبيرة من التوتر حين تذكّرها.

تقلّصت تلك الأحاديث الطّويلة بعد ذلك، كانت ردود تيم المسرعة، اختفاءه المستمرّ دون مبرّر كان يؤلم رودينا، ففي الوقت الذي صار بالنسبة لها متنفّسا بعد أن اشتدّ التعلّق صار الغياب مؤذيا، ما أثار في قلبها غيرة تحاول كتمها، حاولت تجاهل ذلك وما كان يغيّر شكّها معاملة تيم إذ كانت بحذر شديد خوفا من أن يكسر شيئا بينهما.

استمرّ الوضع كذلك فسألته مرّة: لم التغيّر تيم؟

تأخّر بالردّ ثم أجاب بلا مبالاة: لا، لم تفكّرين بهذا؟

لا تسأل كالعادة وتحاول الابتعاد، لا تهتم، بم تفسّر ذلك تيم؟ سألته هذه المرّة بانزعاج.

لكن كان من الواضح أنّه لا يصدق بكلامه، يحاول الهروب من الإجابة، يتحدّث على غير طريقته، لم يكن تيم أبدا، لم تفهم ما الذي يجري..

تحمّلت ذلك وحاولت التّماسك لأيّام وما إن باتت كرامتها تنزلق في وحل المذلّة ابتعدت.

شهر تقريبا والتّفكير يهلكها، تدور أسئلة في ذهنها دون أن تلقى لها إجابة، بثالث ليلة من رمضان هذه السّنة كان متّصلا على موقع التواصل الاجتماعي بعدما انتظرت قبلها شيئا منه، أخذت تكتب رسالة ثمّ تراجعت، تعالت وتيرة التوتّر خوفا من ردّ بارد، تركت هاتفها على جنب ودخلت غرفتها لتصلّي، أطالت في ذلك وبينما رفعت رأسها لتنهي صلاتها، رفعت يديها بالدعاء ثمّ سقطت ساجدة باكية.

مرّت دقائق وانخفض توتّرها وبلحظة مجنونة أرسلت رسالة فهو لا يزال متّصل كتبت: كيف حالك؟

دقيقتان بعدها ردّ: آه رودينا، بخير، كيف حالك أنت؟ ما هذا الغياب؟

وضعت يدها على فمها مستغربة من إجابة كهذه ونفسها تقول: أهذا تيم الذي أعرفه؟ لا مستحيل .

وردّت قائلة: بخير الحمد لله.. بعد ذلك قرأ الرسالة ولم يردّ، هكذا كانت حروفه مختصرة، أحسّت رودينا بقبضة قويّة تؤلمها، شعرت وكأنّ أنفاسها تتصاعد لكنّها حاولت التّماسك مجدّدا.

***

في الطّريق إلى حيث لا يدري أتكون منجية أو فرصة وحيدة، غادر يونس متوجّها إلى تركيا للعلاج بعد أن وقف بجانبه أخوه ليتعافى ممّا زاد في محنته، استطاع أهله الوقوف لإقناعه بالحياة من جديد.

ثالث يوم بعد العيد، كانت تلك أوّل ليلة له بمستشفى علاج السرطان بتركيا، بعد إجراءات الفحص تبيّن أنّه قد تأخر عن ذلك، لكن لم يخبره الطبيب المختص بذلك قائلا:

عليك بالأمل، ستشفى، نفسيّتك الجيّدة هي القوّة الّتي ستساعدك.

بعد ذلك تقدّم للفحص لدى أخصائيّ نفسي، تلك المقابلة الّتي استطاع بها استرجاع بصيص أمل، تغيّرت أشياء كثيرة منذ ذلك، كان وجوب استئصال الجزء المصاب مستعجلا، تمّت الجراحة بعدها بيوم استغرقت قرابة الثلاثة ساعات وكان على يونس البقاء بالمستشفى أربع أيّام قبل بدء العلاج الكيميائي رفقة علاج يصفه طبيب الأورام.

الساعة الآن تشير إلى السابعة، استيقظ من النّوم متعبا، لبث في مكانه نصف ساعة ثمّ نهض من فراشه ببطء، قام بروتينه الصّباحي وبعد التّأكد من كلّ شيء يحتاجه غادر الفندق.

وصل قبل موعد أوّل حصة لأخذ جرعة الكيميائي بنصف ساعة، بينما يجلس على إحدى المقاعد بجانب غرفة العلاج، رنّ هاتفه ردّ مسرعا:

ألو، أمّي كيف حالك؟

بخير وأنت كيف حالك؟ أين أنت الآن؟ ستأخذ علاجا اليوم؟

بلى لديّ، أجابها بهدوء.

آسفة بنيّ، لم أوقظك فقد خذلني المنبّه، أنت الآن لوحدك في بلد آخر، أعرف أنّك متعب ولا تستطيع الاستيقاظ، أنا حقّا آسفة.

لا أمّي، لا داعي لكلّ هذا.. سنتحدّث لاحقا، عليّ أن أقفل الخطّ.

تبّا لمن لاحظ عتمتك فغادرك، في وسط كلّ هذا الزّحام كان وحيدا، لم تستطع تلك الّتي اختارها تحمّل نوبات حزنه المفاجئة وتقلّبات مزاجه، كيف وقد تخلّت في بداية السّقوط، كان في كلّ ليلة ينام على وجعين، تؤلمه تلك الأشياء ولا يقوى على إخبار أحد أو لم يجده حتّى.

اعتاد الغفو من شدّة الألم، لكنّه استقبل العالم اليوم بابتسامة، يبدو أنّه صعب رسمها لكنّها ستكون أوّل وعد اتّجاه نفسه، قد يستطيع بعدها للملمة شتاته وتجاوز عزلته.

إرهاقه الشديد، الغثيان، سقوط شعره وحواجبه وتغيّر وجهه نحو الشحوب أثناء هذه الفترة جعله يخفي ذلك عند اتّصال أهله بحجّة تعطّل كاميرا هاتفه تارة وبسبب انشغاله تارة أخرى.

مرّت أشهر عدّة، تجاوب جسمه مع العلاج وبدأ بالتعافي، كان شيئا صعبا لكن لم يكن مستحيلا، تلك الفترة استنزفت منه طاقته، لكن اليوم بدأ جنون المرض يهدأ.

غربــــــــاء

"غريب الوطن قد لا يبقى على ذلك ويعود..

وغريب الروح كيف يعود؟

قـد لا تعـود الـرّوح حـرّة بعدمـا اعتقلـت فـي تفاصيـل شـخص تحبّـه، غيـر أنّ اهتمامهـا الزائـد وتشـبّثها المفـرط لـن يمنـع أحـدا مـن الرّحيـل.

سـلاما علـى الرّاحليـن بعيـدا، الذيـن يعلّقـون الأسـباب علـى الظـروف، الماكثيـن فـي الـرّوح كجـروح..

لا يسـتطيع غـدرك شـخص لا يعرفـك وقـد لا يهمّـك ذاك الغريـب أبـدا، سـيؤذيك الأعلـم بنقـاط ضعفـك، حزنـك ودرجـات انهيـارك، عمّـا يؤلـم قلبـك ويتعبـك، ذاك الـذي آمنتـه قلبـك فخـان،

طالمـا كانـت المواقـف كفيلـة بذلـك، تـأكل كلّ مـن كنّـا نعتبرهـم أوفيـاء، غيـر ذلـك فعلا بعـض الأمانـي لا تبـدو مسـتحيلة، لكنّهـا لـم تكتـب لـك، غريبـة عـن أقـدارك.

أمّا بعد..

البعيـد عـن الوطـن، مغتربـا قـد يأخـذ تذكـرة الرجـوع ولـو طـال الزمـن سـيعود إلـى ذات الأرض ومهمـا كان الوضـع سـيبقى بـذات الهويّـة.

وغريب الروح؟

أيّ تذكرة؟

وإلى أين؟ وكيف؟

وكم ستدوم؟ وهل ستسمح بذلك؟ وكيف سيعود؟

فالزمن قد لا يسامح الأخطاء في حقّها

والأيام لا ترحم الآهات التي أحرقت ما بداخلها

لن تغفر على كلّ غفوة في لحظة اشتياق

ولن تسكت على كلّ دمعة كانت تغطّيها الضحكات

ولا على الهروب بها نحو النسيان في حضور الذكريات

سينتقم القلب كذلك..

وستدفع ضريبة كلّ دمعة

سينتقم الوجع بوجع آخر

سينتقم للرّوح، سيؤذي من قهرها، من أحرق جفونها، مسح ضحكتها باع فرحتها وأسكنها الآلام..

كل من رماها في بئر العزلة كي لا تعود

كي تبقى غريبة للأبد..

لتقتنع بذلك وتشتري تذكرة التغيّر.

"يولد الحبّ غريبا وقد يموت كذلك"

ماذا لو كتبنا كلّ الوعود المقطوعة بيننا وقمنا بطباعتها وتحويلها إلى كتاب، ستختار أنت العنوان لا شكّ أنّه سيكون: "وعود في سلّة المهملات"

برأيي أسوأ النّاس على الإطلاق ناكرو الحبّ، لما يسبّبه من ثغرة يعيش عليها الطرف الآخر فاقدا للثّقة، حين يغدو لا يصدّق وعدا وخائفا دوما من الخذلان، خشية نكران آخر يستهلك عافيته، من سوء اختيار جديد.

منهم من فقد ثقته بعدما أهدرها في موضع لا يستحق وغدا يعيش دونها، يحرم نفسه، يطارده الشكّ، يدخله في ممرّاته الضيّقة ليخبره:

"إيّاك أن تنسى الأذيّة"

مرّت ثمانية أشهر على ذلك، كان يونس لا يتّصل بأهله إلاّ نادرا، عندما حسم موضوع بقائه في تركيا كان واثقا من إيجاد عمل باجتهاده، فمن خلال مقابلة عمرها نصف ساعة بإحدى إدارات المستشفيات الخاصّة الكبرى بإسطنبول تمّ قبوله ليكون زميلا هناك.

قبـل أشـهر كان يخشـى فقـدان حياتـه وعلـى الرغـم مـن شـدّة كلّ مـا مـرّ بـه انتهـى..

ندمـا يولـد فينـا الألـم نتوقّـع أنّـه لـن ينتهـي، وحيـن يمـرّ يصبـح ذكـرى نحتفـي بهـا ويعيـد إيقاظنـا مـن جديـد، يقـول يونس:

"لازلـت أذكـر كـم كان كلّ شـيء مظلمـا، عنـادي ورفضـي للاسـتمرار بالحيـاة بعد خطـأ عاطفـيّ كان جنونـا، قـد لا أسـتطيع التّحـدث عـن هـذا خجـلا، لكنّـي عجـزت حيـن كنـت المريـض، فقـد لا نسـتطيع تضميـد جراحنـا ونحـن الضّمـاد بالنسـبة للكثيريـن..

أذكـر كيـف كنـت مصابـا بالحـبّ، أظـنّ أنّ صحتـي تقهقـرت بوجـوده وليـس كمـا يعـرف عنـه أنّـه قـوّة، لا أدري قـد أكـون مخطئـا ولربّمـا هـي فرصتـي الفاشـلة ولا علاقـة لهـا بفلسـفة الحـبّ، لقـد عتـق قلبـي فـي آخـر لحظـة واطمئـنّ.."

على مرّ الحبّ..

اليـوم هـادئ والشـمس دافئـة، كانـت لقـاء متحمّسـة وفـي الوقـت نفسـه كان تيـم يشـعر بالقلـق، تائهـا، بمـزاج غيـر واضـح وغـدا يـوم خطبتهمـا بعـد عـودة العلاقـة بينهما .

قبـل أربـع أشـهر تقريبـا، دعـاه والدهـا الـذي عـاد إلـى أربيـل بعـد نوبـة صحيّـة، كان يبـدو يومهـا علـى حافـة مغـادرة الحيـاة، بمجـرّد وصـول تيـم جلـس بجانبـه علـى السّـرير، بعدمـا فتـح عينيـه فـي عجـز وجّـه حديثـه لتيـم مشـيرا بإصبعـه نحـو لقـاء إذ كانـت تقـف جانبـا، قـال بملامـح ضعيفـة:

اقتـرب ابنـي، تطلّـع إليـه بهـدوء وأخبـره بصـوت خافـت: أريـد منـك طلبـا واحـد لـو مـت، لقـاء أمانـة برقبتـك.

وجّـه تيـم نظراتـه للقـاء للحظـة ثـمّ خفـض رأسـه قائـلا: لا تقلـق، سـتكون بخيـر، لـمَ هـذا الـكلام الآن؟ بقـي علـى ذلـك يحادثـه ويطمئنـه لحيـن مـن الوقـت وبينمـا لاذ بالانصـراف، رفـع والـد رودينـا سبّابتـه، حينئـذ لمحـت سـهى ذلك وعلى غيـر دراية بمـا تفعلـه ألقـت نفسـها بجانبـه لتمسـك إصبعـه، تردّد وهـي تبكي: لا أبـي، لا أبي .. سـمع تيـم مـا قالتـه فتراجـع تيـم خطـوات للخلـف أزاح يدهـا وهـو يخفـض عينيـه فـي أسـف: لا لقـاء، لا تريديـن أن يتشـهّد؟ تمنعينـه؟

ردّت تعتصر بكاء: لا أريد أن يموت، تصرخ: لا، لا، لا..

ما وعدنا الله بالحياة، ردّ تيم في ضيق.

دقائـق قليلـة بعدهـا فـارق الحيـاة، وضـع تيـم يـده علـى رأسـه وشـعر بالعجـز لمـا رآه مـن جـوّ محـزن.

انتهـى العـزاء ومنـذ ذلـك المسـاء وهـو يـرى أنّ كلّ الممـرّات ضيّقـة، لا قـدرة لـه علـى فعـل شـيء، لـم يخطـر ببالـه مـا يحـدث أبـدا حينهـا قـال: لا أعـرف حقيقـة مـا شـعرت بـه آنـذاك، لكنّـه كان أكثـر مـن الخـوف، محاولـة هـروب واستسـلام فـي نفـس الوقـت، كان كلّ شـيء يتضـارب بداخلـي، نـار كلّمـا حاولـت إطفاءهـا زاد لهيبهـا، لـم يفهـم أحـد سـواي آلام حيرتـي.

أمّـا النّصيـب قـد ينتصـر دائمـا، قـد لا يكفـي الحـبّ أحيانـا وقـد لا يكـون الرّحيـل مـن اختيارنـا، قـد تقـدم الحيـاة علـى لحظـة واحـدة، موقـف غيـر متوقّـع لتغيّـر طريقـا أو ربّمـا حيـاة.

***

على حين غرّة سمعت رودينا صوتا بداخلها يقول عليك معرفة السّبب، هناك شيء يحدث، كانت نفسها هي الّتي تتحدث، تطرح أسئلة دون جواب، في كلّ يوم ترتقب قدوم اللّيل لتبالغ في النّوم، لتخمد بركان الخوف وتوقف التّفكير الذي يلازمها على الدّوام.

أحاديث مختصرة وأيّام تذهب كما تأتي، هل كلّ شيء على ما يرام؟ سألها حين تحدّث معها باتصال هاتفيّ في تلك اللّيلة، في نهاية يوم خطبته.

سكتت قليلا وقالت بهدوء: لا أبدا.

أردف مسرعا: أصغي إليّ رودينا، لمَ كلّ هذا؟

آسفة تيم لكن غيابك يؤرقني، يؤلمني، لمَ لا تسأل عن أحوالي؟

قاطعها مردّدا: آسف، آسف، لكن أنا كذلك بحاجة إليك في كلّ لحظة.

- إلى متى ستبقى هكذا؟ تظنّ أنّي لم ألحظ تغيّرك؟ أجابت بصوت عالٍ

- لا، لم أتغيّر.. قال نافيا، ثمّ أردف بحزم: لن أحبّ غيرك رودينا.

ارتبكت وقالت محاولة الهروب من كلامه: أيعقل هذا؟

أطرق متلعثما: لا أملك قلبا يحبّ غيرك، لا تلوميني حين أنشغل عنك رغما عنّي..

كانت تصغي باهتمام لما يقول، تلك كلمات أحسّت بعدها بشيء من الاطمئنان، لاحظ صمتها المستمرّ فأردف:

لابد أنّك تسمعينني؟

أجابت: طبعا، لم تقل غير كلمة واحدة، لتظهر أنّه ليس باستطاعتها تصديقه، كان يبدو متردّدا ويحاول السيطرة على ذلك ثم أكمل حديثه، بينما كانت ضائعة في وساوسها تقف أمامها لتضعها في حالة حرجة من الارتباك والإحباط.

هنـاك أشـياء ليتهـا لـو بقيـت مبهمـة، كـي لا نختنـق بـذات المـكان الـذي كنّـا نتنفّـس فيـه، كـي لا تختـرق أشـعة الألـم أوردة الأمـل فتزعـج عتمـة قلـب كان يغفـو متوسّـدا حبًّـا.

كان تيـم يعاملهـا برفـق كـي لا تكتشـف شـيئا، خوفـا مـن أن يكسـر شـيئا بداخلهـا، خشـية أن تصـاب بخيبـة، بينمـا كان شـعورها يصـرّ علـى وجـود شـيء مـا.

يومان بعدها..

بينمـا كانـت تجلـس علـى كرسـيّ فـي العمـل لتأخـذ وجبـة فطـور، فجـأة انتابهـا فضـول لدخـول صفحتـه علـى التواصـل الاجتماعـي، تفحّصـت كل صـورة، وكان فـي آخـر واحـدة نشـرها قبيـل ثـوان قليلـة يضـع خاتمـا فـي بنصـره ووضـع يـده يتعمّـد إظهـاره، وضعـت مـا تأكلـه جانبـا وأخـذت تقـرأ التعليقـات كان كلّهـا صادمـة مـن بينهـا فتـاة يضـمّ حسـابها عبـارة: حبيبـي تيـم.

مضـت نصـف سـاعة تسـمّرت ولـم تسـتطع التحـرّك مـن مكانهـا، فـي دهشـة مـن الـذي يحـدث، جسـمها يرتجـف، داخلهـا يريـد الصّـراخ، للحظـة تهـدّد عقلهـا بالجنـون.

شـعور الغـدر لا يرحـم ، يشـبه المـوت بطريقـة بشـعة، حاولـت الحفـاظ علـى تماسـكها، غيـر أنّ ملامحهـا كانـت تفضـح كلّ شـيء، تخنقهـا العبـرة، تريـد الدمعـة النـزول وتمسـكها بشـدّة، مـرّ الوقـت وقلبهـا يـدقّ بعنـف، تواصـل العمـل بتوتّـر، يمضـي الوقـت بتكاسـل ليزيـد الطيـن بلّـة، تنتظـر لحظـة يختفـي بهـا كلّ مـن حولهـا، فـي خضـم كلّ هـذا الضغـط اقتـرب وقـت الانصـراف.

السـاعة الرابعـة والنصـف، تناولـت معطفهـا وخرجـت فـي عجـل، شـعرت بالغثيـان فـي الطريـق وعنـد وصولهـا البيـت تنهـدت ثـمّ أخرجـت مفتـاح البيـت،

كانـت تبـدو بمـزاج سيّء، لكـن نفـت ذلـك حيـن سـألتها أمّهـا وتحجّجـت بتعـب فـي العمـل. دخلـت غرفتهـا وأغلقـت البـاب وفتحـت التلفـاز بصـوت عـال واستسـلمت للانهيـار، كانـت تبكـي بمـرارة..

تقـول رودينـا: شـعرت حينهـا أنّـي غيـر قـادرة علـى مواصلـة العيـش، دمـار بداخلـي لـم يتـرك مسـاحة للتّفكيـر بذلـك.

اضطجعت علـى السرير ولـم تفعل شيئا منـذ أن عـادت غيـر العزلـة، لـم يكـن لهـا القـدر الكافـي مـن التحمّـل، انكمشـت فـي غطائهـا وراح تفكيرهـا يتسـكّع طرقـا لا تحمـل لافتـة تقودهـا إلـى مـكان آمـن، تظاهـرت بالنّـوم إلـى أن انخفضـت وتيـرة التوتّـر فغـادرت الغرفـة تخفـي كلّ هـذا بثرثـرة وضحكـة مبتذلـة وحيـن تنفـرد تنحنـي بزاويـة الشـرود..

الأمـر ليس سـهلا، استطاعت التمثيـل أنّهـا لا تعـرف شـيئا حيـن كان تيـم يحادثـا، لكنّهـا كانـت تلتمـس هروبـه المتكـرّر، الشـخص الوحيـد الـذي ظنّـت أنّـه علـى استعداد للقيـام بـكلّ شـيء لكـي لا تحـزن، تمكنّـت مـن الحصـول علـى هـذه الصفعة منـه، شـيء واحـد لا تفهمـه لـمَ يخفـي ذلـك أمامهـا ؟مـادام يظهـره بـكلّ مـكان.

هل أنا المغفّلة هنا؟ ماذا فعلت لأستحق كلّ هذا؟ تتساءل في ضيق.

قـرّرت عـدم الحديـث عـن الموضـوع والتصـرّف بطريقـة عاديّـة، كحـلّ وحيـد للاحتفـاظ بتيـم، علّـه يـدرك حجـم خسـارته ويتراجـع. مـرّت أيّـام علـى ذلـك الحـال وغيـرة رودينـا تتفاقـم بإهمالـه لهـا، تتجاهـل ذلـك وتواصـل المحاربـة، إلـى أن حسـمت أمرهـا فـي لحظـة عتـاب، أخبرتـه أنّهـا تعـرف بقصّـة الخطبـة، حينئـذ لـم ينـف ذلـك كانـت إجابتـه مسـرعة:

أنا حقّا متأسّف. اعتذر ببرودة.

سارعت تلك الكلمات الباردة إلى توسيع الغصّة فردّت بضيق:

كلّ شـيء مـن البدايـة كان كذبـة؟ أليـس كذلـك؟ أخـذ يـردّد فـي نفسـه: آه رودينـا، أسـتطيع قـراءة العتـب فـي كلامـك وصمتـك، سـامحيني لكـن لـم يعد شـيء كمـا كان.

قالت بخيبة: أشكرك على كلّ هذا، أحيانا لا يكفي كلّ شيء.

إلـى مـا قبـل قليـل كانـت تنتظـر ردّا برسـالة ولـو عبـارة عـزاء علـى أيّـام لا تـدري كيـف سـتمرّ..

منـذ ذلـك الوقـت بقليـل مـن الحـظ، تمضـي مشوّشـة، ولـو يشـكو القلـب همّـه، لأهانتـه آذان ملّـت، أخـذت تفكّـر، كيـف أفلتهـا بهـذه السـهولة، لـم يسـتطع قلبهـا تقبّـل القصـة لكنّهـا كانـت الحقيقـة.

غربـاء هكـذا كانـت نهايتهمـا، كانـت تحمـل ألمهـا وتغـادر باتجاهـه وكان البـاب موصـدا:

ضاع قلبي..

وأشعر برغبة عارمة في التّخلي عن كلّ شيء يؤذيني

إلّا من جعلني أفكّر في ذلك..

أن أسلك طريقا بعيدا عن ضجيج العالم

وأذهب بطريق من ظننته كذلك

أبتاع لنفسي تذكرة

أجتاز بها أصدق كذبة،

منهكة أنا، ضائعة..

من دون ملجأ

وإيقاع الشوق منتظم

يستفزّ هدوء القلب

أتوقّف عندك

أجلس على رصيف ذكرى ثمّ أغادر عنوة

لافتات وعود منسيّة

بمدينة أضحى ليلها موحشا

لا دفء، لا أمان ولا حياة.

(من خواطر رودينا)

***

الأسوأ من ذلك أنّ تيم كان يتصّل من حين لحين ويعاود الاختفاء، بقي على ذلك الوضع وقتا ولم تكن رودينا تفتح أيّ موضوع سوى التّظاهر بأنّ حياتها مستمرّة، كانت تلك الرّسائل غير المتوقّعة تطرق بابها وليس باستطاعتها صدّها، لم تتقبّل الخسارة واختارت البقاء بقليل خوفا من فقدان كبير، بالنسبة لها إيمانها أنّها الرّكن الآمن الذي قد لا يستغني عنه، كانت تهمس في نفسها: أنا أحببتك أوّلا ودائما وصدقا لن تكون لغيري، لن أسمح بذلك..

يوما بعد يوم تمسّكه بها هذه المرّة، جعلها تعتقد أنّها استرجعته وأنّ ذلك الألم كان كذبة وأنّه قد تكون ثمّة فرصة أخرى وسيتلاشى كلّ سوء فهم.

شبح الانتظار..

"الانتظار عبادة الأوفياء في عقيدة الحب"

إنّـــه لأمـر مرعـب أن تشـعر أنّـك فـي الخمسـين مـن العمـر وأنـت لـم تتجـاوز ربـع العمـر، وأنّ جميـع مـن حولـك انتصـروا علـى أنفسـهم وحقّقـوا طموحاتهـم وتغلّبـوا علـى مخاوفهـم وأنـت لا تـزال هنـا، رهيـن الماضـي، تنتظـر تلـك الكذبـة التـي ستكشـف حقيقتهـا الأيـام، حقيقـة أنّـك سـتموت مذلـولا مقهـورا، طالمـا لازلـت تنتظـر مـن يفرحـك، ومـا دمـت مقيّـدا سـعادتك بأحـد، قابعـا فـي غرفـة تشـبه زنزانـة انفراديـة تصـارع دقائـق الاكتئـاب بعد أن بـدأ مفعـول مخـدّر الأمـل فـي النّفـاذ.

قد تقف الظّروف عائقا

لذلـك.. أحيانـا تمـرّ علينـا أحاديـث أنـاس تخطـوا السـتّين، عـن ذكرياتهـم ومشـاكلهم لتكتشـف أنّ هنـاك مـن هـم بأواخـر المراهقـة مـرّت عليهـم ظـروف أصعب، ليتبيّـن مـن ذلـك أنّ الخبـرة فـي الحيـاة تأتـي بمـرور التّجـارب وليـس فقـط بمـرور العمـر، وأنّ الظّـروف القاسـية قـد تفتـح مجـالات للتّعلـم أكثـر مـن أي وسـيلة أخـرى، بمـا تبنيـه لنـا مـن عوائـق تطيـل لنـا المسـافات وتضـمّ أحلامنـا إلـى قوائـم الانتظـار وتجعـل منهـا أوهامـا لا يأتـي موعدهـا، لنعيـش جفـاء الأيـام بنفـس تتمـزق عكـس عقـارب اللّقـاء، علـى أيّ حـال مـا ضـاع فـي زمـن الانتظـار دون جـدوى كان قاسـيا جـدّا فالأمـر أشـبه بالجلـوس علـى مقعـد مـن نـار.

وقـد يكـون الوفـاء للأمـس مفرطـا، بيـن أن تقلّـب صفحـة ماضيـة أو تنتظـر محتفظـا بهـا، آلام يصعب وصفهـا، وقـد تمـر بـك أيـام وشـهور وعمـر غيـر قـادر علـى أخـذ القـرار، دون أن تعـرف متـى وكيـف سـتنتهي..

فالانتظـار داء أهلـك ضحايـاه فـي دوامـة الحـزن والوحـدة وشـيخوخة الـرّوح، بيـن مسـتقبل لا يأتـي ومـاض لـن يعـود لـن تقـف الحيـاة منتظـرة وأيّامهـا تـدقّ باتّجـاه واحـد لا حـول لنـا ولا قـوّة فـي تغييـره.

العمـر لا يسـتوعب هـذا الكـم الهائـل مـن الارتقـاب، فلربّمـا نسـتحق أن تأخذنـا الفرحـة يومـا فلـم يعد فيـه متسـع للوقـوف علـى أبـواب مقفلـة فـي وجوهنـا، لا ولـن تفتـح.

بينمـا يتملّـكك الإحسـاس بالفقـد غالبـا يكـون المنتظـر ممّـن لا يضيـع برهـة ينتظـرك، وإن كان يعـرف أنّ وجـوده سـبب لسـعادتك ويتغاضـى عـن ذلـك، ويسـتلذّ بعيـدا عنـك، ولا يمـلأ فراغـك، مـن يجعلـك تعيـش شـيبا بعمـر الشـباب لا أمـل فيـه. لذلك، قل للحزن وداعا، واعتني بقلبك نبضة نبضة، ولا تنتظر من لا ينتظرك.

التّخلـص مـن أشـياء أدمناهـا يشـبه السّـرطان، العـلاج مؤلـم أكثـر مـن اسـتقرار المـرض كذلـك طـيّ الصفحـات الجميلـة موجـع، لكـن البقـاء علـى ذكراهـا شـيء أمـرّ، فـلا تـدري مـا فـي الصّفحـة الموالية مـا لـم تطلـق العنـان للصّـدف، وقـد تبلـغ النّهايـة دون أن تمنـح نفسـك فرصـة عيشـها، فمـا ذنـب السّـنوات القادمـة حيـن تعلّـق بأحبـال سـنوات ماضيـة.

مـرارة الانتظـار أمـر لا جـدال فيـه، هـو ليـس بتلـك القسـوة حيـن تتجمّـد أطـراف أصابعك بانتظـار الحافلـة، أبـدا بـل أسـوأ مـن ذلـك؛ انتظـار حيـاة حلـم، حبيـب لـن يعـود ولحظـة لقـاء مسـتحيلة.

هـو ذلـك الشـبح الـذي يمسـك بعقـارب السّـاعة ليحـوّل الثّانيـة إلـى ألـف يـوم، ذلـك الـذي يرتـدي لبـاس الأمـل ويتصنّـع المثاليـة ويسـتغل الفـراغ بداخلنـا ليجيـد العبـث بمشـاعرنا فيحـرق الضعـف أعصابنـا ويكتـم الصمـت أنفاسـنا فنضحـى شـبه مخدّريـن إلـى أجـل غيـر مسـمّى، لنسـتفيق ونحـن نشـعر بالخـداع بعـد أن اسـتنزفنا سـنين انتظـار لأشـخاص ضمونـا بيـن سـطورهم المنسـية.

لا يستحق من أحبّك أن يترك دون مبرّر، أن يرمى في قاع الآلام، لا أحد يستحق ذلك الشّعور.

وحبيب قد لا يعود...

مرّ على غيابه بضع شهور لم يحدث الشيء المنتظر..

فهل يستحق من أحببناهم كلّ هذا الزمن من الانتظار؟ أم أنّ الحياة تفشل دائما في التعويض؟ أم كل اللّذين أحببناهم، وخذلونا لا يستحقون الحبّ؟

ليتني أجيد الرسم مثل الكتابة لرسمت نفسي بقربك وانتهت حكاية الانتظار هذا ما كتبته إحداهن على صفحتها بموقع التّواصل الاجتماعي، فهناك نصف العالم يتمنّى الوقوع في الحبّ والنصف الآخر يتمنّى أن ينساه، لكن حتّى من يجيد الكتابة والرّسم ليس بوسعه الهروب من الواقع لخطّ نهايات سعيدة لكل حبّ، كلّنا يؤمن جدا أن الإنسان ينطفئ عند ابتعاد من يحب فيتحول ربيعه إلى خريف.

لم يتبقَّ شيء لدخول عام آخر ولم يحدث أيّ شيء جديد، كل شيء على حاله سوى أن الأوجاع تسترجع من حين لحين.

لا أعرف إن شعرتم بهكذا إحساس من قبل لكنني أشعر به أحيانا، أشعر بالرغبة في الاستمرار بالنوم لألف سنة، أو أنني لست موجودة، أو لا رغبة لي في البقاء لذلك أحاول منع نفسي من التفكير أريد لكلّ شيء أن يتوقف، نشرت رودينا هذه الجملة على صفحتها الشخصيّة.

تمضي معظم وقتها بالبيت وفي قلبها بوصلة شوق كل اتجاهاتها تشير إلى تيم، ذاك الذي أهملها بشكل ثقيل، تحاول عمل كل شيء لتقتل ذلك التفكير الذي ينتجه الفراغ.

تستغل الوقت في تدريس أختيها ورسم لوحات ونشر مراحل تخطيطها على قناتها باليوتيوب .

شهد متفوقة دائما، بينما قمر كانت تتهرب من الدراسة لتمارس نفس ما تقوم به رودينا تحاول تقليدها، كانت دائما تلقى استحسانها مهما كانت نسبة جمال الرّسمة، تظلّ الأم زينب تفتش دفاترها لتكتشف ما بهم من مفاجئات، دفاتر بأوراق تقل عدد الصفحات ونهاياتها تحمل أشكالا وأنواعا من الرسومات، كان الأمر يضحك رودينا فقد كانت تشجع قمر..

راجعي دروسك قمر، أو ارسمي، كانت تخاطبها عادة.

أكيد سترسم، الأمر ليس غريبا..

أؤكد جدا ما تعتقده رودينا فالرسم هواية المختلفات.

كانت الأيام تمرّ عسيرة على رودينا لا تدري ما الّذي تنتظره..

أحيانا تشعر أنك قد تصاب بالجنون من كثرة التفكير، فكل شيء قد نستطيع تمزيقه سوى الذكريات هي الّتي تمزّقنا.

تحاول تجاهل ما مرّ في حين أنه أصعب قرار، كانت تمنحه اهتماما دون مقابل، لم تدرك يوما أنّها ستندم.

لاحظت زينب شرود ابنتها الدائم، خاصة وقد اختلف الروتين وأصبح لديها بعض الفراغ وقد باتت تعجز عن الخروج من البيت، تغادر نحو العمل بثقل، بدا كلّ شيء حولها مملّا ولا طعم للحياة في غياب تيم، كانت في كل مرّة تسألها زينب عن الذي يشغل تفكيرها، فتبرّر ذلك بالتّعب وغير ذلك تقوم لتغيير الموضوع من دون أن تظهر شيئا، وفي أيّام الإجازة تطلب منها الخروج لتغيير الجو وكانت رودينا تحاكي نفسها:

كيف أخبرك أمي أن ما أعانيه ليس موقفا عابرا يمحوه تغيير بعض الأشياء؟ كيف أخبرك أنّ ما يؤذيني شيء أكبر من حدث روتينيّ قد أنساه بلحظة؟ كيف أخبرك أنه لا جدوى من تغيير شيء؟ فقد تغيّر كلّ شيء باتجاه ما كنت أنتظره..

مرت تلك المرحلة والروتين نفسه وما كانت تؤذي به نفسها إدمان التّفكير، تأمل أن تستيقظ على خبر معجزة، غير قادرة على تقبّل الخسارة، تجلس على أرصفة الانتظار دون ملل تشتهي صدفة تنهي كلّ هذا الغموض.

مساء أمس، بينما كانت خارجة من العمل في وسط الشّارع عبورا على إحدى المحلّات، كانت ملامح الحزن بادية عليها، عندما فتحت هبة نافذة السيّارة نادتها على مقربة، حينئذ استدارت وأومأت برأسها نعم ثمّ أردفت: آه، هبة؟ كيف حالك؟

هيا اركبي رودينا، سأوصلك..

خاطبتها وهي تنظر إلى وجهها المرهق.

تراجعت خطوات للوراء، انحنت قليلا على النّافذة، شكرتها لتصرّفها اللّطيف ثم قالت: لا أستطيع ، لديّ شيء مهمّ عليّ إتمامه.

لاحظت هبة أنّها قد تحججت بهذا، فردّت: سنتحدّث قليلا، هيا.

ركبت رودينا وبعد أن سلّمت عليها ، دلّتها على الشارع الذّي تسكن فيه، بينما هي تقود السيّارة اتّصلت في هذه الأثناء متعمّدة بتيم، لم تكن تعلم بالوضع بينهما، ردّ عليها فتطلّعت رودينا باضطراب نحو الهاتف حين سمعت صوته، تجمّد قلبها حينها ثمّ أشارت بيدها تهمس لا تخبريه أنّي برفقتك، أرجوك.

أومأت هبة رأسها بالموافقة ثمّ سألته: كيف حالك؟ أخبرني ما أخبار حبيبتك؟

أجابها: لا أعرف كيف حالي، أحيانا أحسّ بتعب شديد، رغبة عارمة تنتابني من حين لآخر للهروب من كلّ شيء، ثمّ أردف: أرجوك خالة، أريد منك طلبا، مرّي على رودينا بطريقك، أريد أن أطمئنّ عليها..

أجابته: طبعا، سأفعل، لكن.. ثمّ لم تكمل.

استدارت رودينا كي تخفي عبرتها، بينما كانت تستمع باهتمام، تهمس في نفسها:

تبّا تيم، لم لا تتصل، لمَ لا تسأل بنفسك؟

بعدها أخبرته هبة أنّ عليه العودة، خاصّة وأنّ لديه روح معلّقة به، تنتظره كلّ هذا الوقت، واصلت الحديث بهدوء لكنّه كان يحاول إنهاء الحديث مختصرا: خالة، سأتّصل بك فيما بعد.

لكلّ منّا حكايته مع الانتظار..

بدورها تردّدت للحظة ثمّ قالت بصوت مرتعش: لماذا اتّصلت به الآن؟

حينئذ نظرت إليها قائلة: هل أخطأت رودينا؟

هزّت رأسها نفيا تبتسم بصعوبة: لا أبدا، كان شيئا جميلا منك.

ستجتازان هذه المرحلة وتأتي أيّام لا تفترقان فيها، حاولت هبة تهدئتها حين رأت الدموع التي على حافة عينيها، تعترف بالشّوق.

هزّت رأسها بإيماءة صامتة أن نعم.

أخذت رودينا تستنشق الهواء، وداخلها يقول هدّئي من روعك لكن هناك أشياء لا تستطيع تحمّلها تجبرها على ذلك.

غيّـرت هبـة مسـار الحديـث، وبعـد عشـر دقائـق مـن السـير، توقفـت السـيّارة عنـد مدخـل ضيّـق أيـن تقيـم رودينـا، نزلـت وهـي تشـكرها وتبتسـم، ظلـت لثـوانٍ تراقبهـا مـن بعيـد وهـي تتّجـه نحـو منزلهـا، همسـت فـي نفسـها: كيـف يتسـنّى للمـرء العيـش بعيـدا عـن مـن يحـبّ، بينمـا هـي تقلـع قالـت: ثمـة شـيء يخفيـه. لـمَ يسـعى الانتظـار لمعاقبتنـا بمزيـد مـن الوقـت؟ لكـن أحيانـا لسـنا مسـؤولين عمّـا نحـن فيـه.

كانـت حالـة رودينـا النّفسـيّة معقـدة، منـذ بضـع سـاعات مـن رجوعهـا تقـوم بأعمـال البيـت وهـي شـاردة وحينمـا ولجـت للنـوم أخـذت تتسـاءل لـمَ يعاقبنـي بغيابـه إذا؟ لـمَ؟ لـم تسـتطع إغمـاض جفونهـا تتقلّـب طـوال الليـل وتفكّـر فـي الإلحـاح علـى حظّهـا، تتشـبّث بحبّـه كـي لا تعيـش علـى فقدانـه يومـا تقـول فـي نفسـها:

لا أستطيع العيش دونه، لن تأخذه منّي أخرى.

أماكن مظلمة

"يبدو أنّ ادّعاء اللامبالاة أمر يشبه مرحلة التّرقب
لفيروس فقدان المناعة المكتسبة"

تقول رودينا:

"اعتدلـت عـن العيـش بشـكل طبيعـيّ لأيـام عديـدة لا أعـرف لـمَ؟ ففـي الحقيقـة لا أدري فأنـا مـا عـدت أميّـز بيـن الأيـام والأشـهر والسـنوات، لـم يعـد يهمّنـي لا المـكان ولا الزمـان، لا مـا يحـدث ومـا سـيحدث استسـلمت لفكـرة اللاّمبـالاة..

لا رغبـة لـي فـي الحديـث، انتصـر الصمـت علـى الكلمـات، لـم أجـد فـي الأيـام التـي تمضـي سـوى الجـروح والمآسـي كل شـيء جمـد قلبـي، قـد يكـون ذلـك مـن أشـدّ الآلام وأنـا أقضـي أيامـا حبيسـة مشـاعر مبهمـة تتصـف بـكل تلـك الحـدة مـن المأسـاوية، عـدت اليـوم أحـاول الاسـتمرار بـروح مقسـمة إلـى أشـلاء، أجبـرت نفسـي علـى ذلـك، حاربـت وقاومـت أكثـر ممـا يعتقـد الجميـع عنـي لكنـي اليـوم متعبـة أكثـر مـن أي وقـت مضـى، اسـودت الحيـاة فـي عينـي؛ فالوقـت لـم يسـتطع أن يشـفي الجـراح، فقـط يجعلهـا أكثـر اتسـاعا، لا بـل واسـتطاعت أن تجـرّ جروحـا أكبـر وأعمـق، وبـات الأصعـب مـن المـوت البقـاء جثـة علـى قيـد الحيـاة بأمنيـات لا حاضـر لهـا.."

فعلا ..

نحـن فـي بدايـة الطريـق لكـن مـا يبـدو أن الوصـول لنهايتهـا صعـب، أصعـب ممـا نتخيـل خاصـة ونحـن فـي بقعـة متواجـدة علـى خارطـة الإهانـة خسـرنا فـي أوّل خطـوة.

أصبحت ممارسة الكذب والخداع فنّا هوّاته كثيرون، ما مصيرنا بين القليلين؟

أغلقنـا أبوابنـا عـن الغربـاء خوفـا مـن سـرقة مـا تبقـى مـن أملاكنـا التـي قـد نسـتطيع بهـا اقتنـاء شـيء مـن الأمـان.

أصبحت الحياة تجبرنا على ذرف المزيد من الحزن في أحضانها، دروس مفاجئة لا منهج لها ولا مدرّس سوى الزمن، تبدع في نقلنا من مرحلة لمرحلة وشهادة بتقدير عالٍ من اليأس، نتيجة حرص الحياة على بذل مجهود أكبر في حفظ موضع الوجع لنعيش بنصف نبض.

قد تتحول لشخص لا يبالي لأنك مللت كثرة الصراعات والصخب حولك، وأزعجك تدافع عقارب السّاعة لتصدر صوتا ينبهك بتضاعف دقات الألم. تضاعفت الآلام و صارت الرّغبة في الحياة بطعم السم، فهل ستتوب الأيام عن إضعافنا أم باتت الأوجاع مزمنة؟

يبدو أنّ ادّعاء اللامبالاة أمر يشبه مرحلة التّرقب لفيروس فقدان المناعة المكتسبة يخفي أعراض انتهاك خلايا أرادت الحياة فأصابها الألم لتسبق بقليل مرحلة العجز عن كتم الانكسارات انحراف شعور الرغبة عند عبوره سطح الهموم والأعباء، فيظهر ما أخفاه قناع التّنكر، ذلك الإحساس بضيق شديد في الصدر، وحدة قاتلة، غصّة بالقلب وقلق عميق، شعور بضياع مهول، وساوس وأفكار صاخبة، رغبة في الصراخ وإحساس بالضّعف، آلام مباغتة وأحاديث ميّتة.

لربما نحن المنسيون، أولئك الذين ضاع كل ما امتلكوه لبرهة، الذين أسرفوا في الكتمان، النّاس الذين لا يتحدثون بالغد خوفا من الفقد، الذين لا يجوب داخلهم سوى الفراغ، من بهتت لمعة أعيننا وعجزت عن النظر إلى الأمام، ذلك الظلام والفراغ والابتعاد والقسوة، مع جل تلك الإصابات التي اخترقت حياتنا، مازال القلب ينبض لنتماثل للعيش، مازلنا نقف رغم موت كل شيء داخلنا، فما تحتاجه حياتنا هو أخذ مسكنات اللّااكتراث المصطنع لتهدئة أوجاع لا علاج لها.

فـي الأغلـب قـد نتحصـل علـى هـذه الشـهادة بعـد سـن الخامسـة والعشـرين، ربـع العمـر البائـس، لا أريـد أن أكـون سـلبيّة لهـذه الدرجـة لكنّـه العمـر الـذي سـنودّع فيـه عفويّـة الطفولـة فعليّـا، سـنّ بلـوغ ذروة الألـم والانهيـار، عمـر التغيّـر ونقطـة التّحوّل.

العمـر الـذي بعـده تأتـي سـنوات، سـتصادف فيـه أوّل وأكبـر صدمـة، الـذي سـتدرك فيـه كـم صديقـا لديـك، سـتعرف فيـه قيمتـك عنـد كلّ قريـب، سـتتخرج فيـه بشـهادتين، واحـدة اجتهـدت فيهـا وأخـرى اجتهـد فيـك لنيلهـا..

ستتأرجح بين الألم والسّعادة..

ستصعب عليك الحياة أكثر، ستبدأ أمان وتتحطم أخرى

قد تنضج وتصل إلى مرحلة الاكتفاء..

ستحقق سلاما داخليا أو حربا..

ستميل إلى العزلة، تسامح، تتجاهل وتبتعد ثمّ تعتاد

أو قد تتضايق وتيأس، ستأخذك الحياة إلى أماكن مظلمة..

إنّه سنّ الانتظار المزمن والخذلان المتكرر وخيبات الأمل،

عمر الأشياء الصادقة والكاذبة..

إمّا أن يكون الحظّ بجانبك، أو يودّعك..

إمّا أن تفقد الأشياء التّي تحبّها أو تحتفظ بها إلى الأبد

إمّا أن تصادف لحظة بداية الحياة أو تقف عند النقطة التي لا تعود بعدها..

إنّـه سـنّ الوقـوف فـي المنتصـف، تائهـا، أن تكـون الفرصـة الضائعـة أو الخاسـر، سـتطوي آخـر صفحـات الثّقـة بعـد أن تتـمّ آخـر سـطر دون خيبـة.

هنا.. إمّا تدفعك الحياة للأمام وإمّا ستتركك وتغادرك..

إمّا أن تجد حبيبا مدى الحياة، أو قد تبقى وحيدا مدى الحياة..

إمّا أن تتوهّج أو تنطفئ

منه يبدأ السباق مع العمر

هو عمر البداية أو النّهاية

يشبه الولادة والموت في آن واحد.

في الثّلث الأخير من دخول سنة جديدة، آخر ساعات الواحد والثلاثين من شهر الحنين يبدو أن الكلّ سعيد والحقيقة أن لا أحد كذلك، رحل الكثيرون واختلفوا في الرّحيل وبقيت الأيام كما هي تموت وتميت.

لا تزال رودينا تتعثر كلما مرّ عليها اسمه بينما يعيش تيم لا يبالي.. ليس باستطاعتها مخالفة القدر، بالأخير كانت الخاسر الوحيد، استطاعت رودينا تقديم حصص بمدرسة فنون خاصة بتعليم صغار الهوّاة، تلك الفرصة لم تستطع الحصول عليها من قبل بهذه السّرعة، فالشّهادة لا تماثل الطبّ والتّمريض الذي كان خرّيجوه غالبا ما يحضون بفرصة عمل مباشرة بعد نهاية سنواته العجاف، لكن كان الحظّ بجانبها هذه المرّة.

لكن ما لا يعرفه الكثيرون أنه مهما كان التخصص فهو لا يخلو من استنزاف مجهود ولا علم يقلّل من شأن علم، كلّ في مكانه، والمكان على استقامة، لا شيء ولا أحد ينجح في شيء دون تعب.

كان العالم مع موعد لبداية عام جديد، بحياة جديدة لا مزيد من الحزن ولا مزيد من الفقد والبعد وأمانيّ جديدة.

قضت عشية رأس السنة برفقة أمها بالمستشفى، التي أمضت تلك الأوقات بغرفة الاستعجالات، بفارغ الصبر تنتظر وصول دور أمها للمعاينة عند الطبيب العام.

بعد طول انتظار وضجيج يثير القلق ووضع يمزجه بقنوط يشد قبضة قلبها حان دور الأم زينب، أسرعت بها باتجاه غرفة الفحص، بدأت الطبيبة بمعاينتها، تدرك رودينا تماما أنّها لم تكن تعاني من شيء، لكن ما كان يدهور صحتها من حين لآخر أن الكتمان كان ينهش بداخلها، لكن لا يشعر به إلا من جرّب ذات الشعور. لذلك خوفا من تأثير سوء نفسية أمها من أن تثير بداخلها مرضا جسديا كانت تجبرها على الذهاب للمشفى.

بعد العودة للبيت تناولت زينب قرصا منوما، جلسن بناتها بجانبها إلى أن استسلمت للنّعاس وغطت في النّوم.

بعدها بدقائق قليلة نامت شهد وقمر، الوقت متأخر انتهى عام من حوالي ساعتين، لم يكن الجوّ دافئا تلك اللّيلة، تفحّصت رودينا غطاءهنّ ثمّ استلقت على ظهرها، راحت حينئذ تتقدّم نحو سريرها تشعر بالغثيان لكن رغم الإرهاق لم تستطع إغماض جفن، يجافيها النّوم وداخلها يردّد:

وددت لو أن داخلي يتغير كتغير أرقام السنة..

لو أتغيّر كليّا..

لو تتجدد أنسجتي ويستبدل دمي

لكن.. في الوقت الذي كان يحمل فيه الآباء والأحباب صناديق الهدايا لمن يحبّون حملت في صندوق خيبتي روحي وكبريائي بعد أن تحوّلت إلى أشلاء ووجدت نفسي ككل عام، مازلت بروح طفلة أرسل قبلاتي مع كلّ أمنية

تترتّب تحت وسادتي بالليل وأن أستيقظ وأجد الصديق صديق والحبيب حبيبا، أن لا يولد قريب عدوّ جديد..

أن يكون أبي أبا، فقط الحبّ والهدوء والسلام وأمي، شهد وقمر تنيران الغرفة، تبعثرانها لتصنعا ذلك البيت بحيطان من وسائد تحافظان عليها من السقوط، تطعمان الدمى تصنعان لها ألبسة بأقمشة ملابس لم تعد تستعمل، أن نرقص دون مناسبة حين يصيبنا الجنون، أن نصنع الحبّ النّادر لأنفسنا.

وددت أن تصلني رسالة في مثل هذا اليوم أو حتى اتصال خاطئ من تيم..

تمنّيت أن لا أخسر شيئا ممّا خسرته

أن أستعيد كلّ جزء بتر منّي عنوة

اعتقدت أن كل شيء كقلبي، أيّ روح ملائكية تفقدها هذه الأيّام؟

وما بال السنوات تمر كالشهور ناسية أنها تأخذ من أعمارنا؟

هل هي نهاية أم بداية؟

"يضيع مزيد من العمر تحت وطأة ألم الفقد"

بعد عطلة بداية السنة كانت رودينا جالسة على إحدى المقاعد في ساحة المدرسة الخاصة للفنون الّتي تقدّم بها دروس الرّسم، بدا لزملائها أنها تغيرت بعض الشيء، فقد كان جسمها أنحف ممّا كان عليه لكن لا تزال تبدو جميلة بل الجمال يتشرّف بوجودها، تتربّع على عرش الإناث بانسجام، ساكنة، مطمئنة، هادئة كليلة قدر.

محترمـة جدا، ناعمـة، ليّنـة، عفيفـة، مميّز بيـن الجمـال جمالهـا، ترتـدي الطّهـر مسـتحيل أن تأتـي فـي عالـم خائـن.

في محاولة لإثارة حوار جلست بالقرب منها إحدى الزميلات ثم تكلّمت قائلة:

مرحبا، رودينا هل يمكنني الجلوس معك؟

كانـت ضائعـة فـي أفكارهـا وبـدلا مـن أن تـرد التحيـة، تنهـدت، ثـم هزّت برأسـها مشـيرة نعـم.

أخـذت فـي الحديـث معهـا رغبـة منهـا لتعـرف مـا سـرّ تلـك المكابـرة فأخذهـا مسـار الحديـث لقـول:

كانـت كل اهتماماتـي تتمحـور علـى عيـش حيـاة جدّيـة، الركـض وراء تحقيـق الأمنيـات قبـل عمـر معيـن، تركـت كلّ مـا يدعـو للعيـش برفاهيـة، أدركـت اليـوم أننـي تركـت الحيـاة، لـم أكـن أعـرف أن اتّبـاع هكـذا طريقـة تجلـب المزيـد مـن الهـمّ، والفكـرة الّتـي كانـت تخدّرنـي أنّ اللاّتـي تعشـن أيامـا لا جديّـة فيهـا، تعشـن اليـوم غيـر مرتّبـة لـه ولا لمـا وراءه، لا تخطّـط لمـا تعملـه أنّهـا فاشـلة وسـتدرك فشـلها حيـن أكـون أنـا قـد حققـت مـا أريـد بعدهـا سـنتبادل الأدوار، والحقيقـة لـم ولـن نتبادلهـا.. ليتنـي لـم آخـذ شـيئا علـى محمـل الجـدّ.

ـ باتـت الأيّـام متشـابهة، ثقـال وكلنـا سـنصل فيهـا لمرحلـة نتـوه فيهـا بـلا هـدف، أجابـت رودينـا بهـدوء.

ـ أعتذر لم أخبرك عن اسمي، أدعى بسمة

تبسمت مجيبة: أعرف جيّدا..

ـ فعلا؟ ردّت بسمة متعجّبة

ثـمّ أردفـت: أقـدّم دروس العـزف علـى البيانـو، رأيتـك مـرارا تجلسـين لوحـدك، لكـن بصراحـة كنـت أخالـك مغـرورة.

أخبرنـي أشـخاص قبـل بـذات الأمـر، ليـس غـرورا أبـدا عـادة أتحاشـى كثـرة التعامـل مـع الذيـن لا أعرفهـم جيّـدا، ثـمّ أردفـت بلطـف:

سررت بمعرفتك بسمة

وأنا كذلك كرّرت وهي تستأذن بالانصراف.

كلهـم عابـرون، لا مجـال للصّداقـات، سـتكون معرفـة لا أكثـر، لا نريـد ظلـم أحـد، لكـن اكتفينـا فـلا نـلام، فإضافـة للحـبّ حتـى الصداقـة فـي يومنـا أصبحـت مـن طـرف واحـد.

"كلّ الذين قالوا لي صباح الخير لم يتمنّوا ذلك لي، متأكدة"

صعـدت الطابـق العلـوي لحضـور اجتمـاع عمـل، بعـد خمـس دقائـق فتـح بـاب المكتـب بلطـف أطـل مديـر المدرسـة بوجهـه الّـذي يخفيـه الجـزء الأعلـى بقبعتـه التـي عـادة مـا يرتديهـا الفنانيـن وشـعر طويـل بعـض الشـيء مربـوط، كان هزيـل الجسـم بهيئـة مرتّبـة، هـو أسـتاذ متحصّـل علـى درجـة دكتـوراه فـي الفـنّ التّشـكيلي..

- مرحبا، حديثه دائما باللغة الإنجليزيّة

- مرحبا سيّدي.. قام الجميع بالرد

أسـتاذ كبيـر فـي السّـن لـم يكـن يحمـل أبـدا محفظـة، فقـط كان يسـتعمل قلمـه وأفكاره، الشـيء الـذي كان يعجبهـا وكان مختلفـا عـن الكـم الهائـل مـن الـدروس فـي الجامعـة، يجتمـع بهـم مـن وقـت لآخـر كـي يقـدّم خبرتـه، لـم يكـن مديـرا عليهـم بقـدر مـا كان زميـلا.

بعد ساعة انتهى الاجتماع وغادرت نحو القسم، ثوان منذ دخولها ألقت التحيّة ثمّ بدأت بالدّرس..

كان الموضوع يومها عن لوحات الفنان التشكيلي الهندي الرائد بُوبِن كاكار التي غالبا ما كانت تجسد أفكاره الشخصية مستوحيا إيّاها من سيرته الذاتية.

***

نخفي الأحزان خلف ابتسامتنا اللّطيفة، فيستطيع من حولنا تصديق أنّنا لا نبالي والحقيقة أنّنا أكثر من يبالي وحين ننفرد تقتلنا ملامحنا الكئيبة لتذكّرنا بالهزيمة والخذلان، كلّ تلك التّفاصيل المزعجة يواجهها أصحابها بمزيد من الدّمار.

من يسامح الذكريات القديمة الّتي جعلت جسمه يتهالك ؟كيف يعود حرّا بعدما اعتقل في تفاصيلها؟

حين غادرت رودينا عملها، توجّهت مباشرة نحو البيت وبعد وصولها دخلت غرفتها ثمّ جلست تتفحّصها، رغم أنّ مساحتها كانت صغيرة إلّا أنّها كانت تحمل على جدرانها أكبر كمّ من الأشياء المقدّسة، تبعثر كلّ الأحداث عليها بداخل لوحات، هناك بدرج مكتبها صور سجينة ودفتر خواطر يحمل كلمات يحفظها الصّمت كطريقة تتعافى بها من الجروح.

عند عودتها هذه المرّة لم تفعل شيئا، لم تفكّر كالعادة، اكتفت بالجلوس بعدها على عتبة الغرفة، تحتسي كوب القهوة، تتبادل الحديث مع أمّها، كانت لها رغبة في تجاهل كلّ شيء، لم تتردّد في القيام لسكب كوب آخر تتناوله بكلّ تأنّ، مزاجها اليوم جيّد، كانت سعيدة وكلّ شيء بدا مثاليّا.

تقـول رودينـا: "أخـذت أراقـب أمّـي فـي كلّ شـيء تعملـه ولـم أسـتطع أن أبـرح مكانـي، تحدثنـا كثيـرا، أردت تجاهـل كلّ مـا حـدث فـي الأيّـام التـي مضـت، أردت الاسـتمرار بالعيـش بعيـدا عنـه، اسـتمرّ الأمـر لأسـبوع، كنـت ذات ليلـة متعبـة مـن العمـل، فأصابنـي الأرق فقـد تجـرّأ ونظـرت للخلـف، فـي ذات المسـاء بعدمـا انفـردت فـي غرفتـي كانـت تضيـق بـي، فتحـت النافـذة ولـم يكـن الهـواء كافيـا، لـم أكـن حزينـة بـل كنـت ممزّقـة، شـعرت بدقّـات قلبـي تتسـارع حيـن تذكّـرت كلّ شـيء بلحظـة..

جلسـت علـى الأرض وكـدت أقلـع شـعري مـن جـذوره، كان داخلـي ينهـار، لـم أتمكّـن مـن حبـس دموعـي فانفجـرت، بكيـت، تألمـت، أردت الصـراخ فتقطّعـت أنفاسـي، فـي تلـك اللحظـات لـم أكـن أريـد مـن الحيـاة شـيئا سـوى أن يتوقّـف هـذا النبـض المؤلـم.."

لم تسأل عنّي

"اغتنم موسم الاحتياج، فهو يكشف المعادن"

مـاذا عـن أولئـك الراغبيـن فـي الالتحـاق بمـدارس المتفوقيـن فـي الغربـة، الذيـن ينفـردون بالجلـوس، يختصـرون الأحاديـث، لا يكترثـون لمـن حولهـم؟

ذلـك الغمـوض والانطوائيـة، أفواههـم فـي سـبات، صمـت مرعـب يكتسـيها، كلمات تعفّنـت بداخلهـم، يبـدو أنّهـم تعسـاء...

" تعساء جدا".

فعـلا للوجـع عزلـة لا تخيـب أبـدا، شـرود يفضـح مـا نحـاول إخفـاءه، وجـوه اسـتطاع الزمـن التدقيـق فـي نقـش معالمهـا، تنهيـدة تعـب قـادرة علـى اختصـار حديـث مـن سـبعين ألـف كلمـة.

(أدركـت حينهـا شـعور الرّغبـة فـي الاختفـاء عـن العالـم والبحـث عـن مـكان آمـن وسـط الخـراب) جملـة قـد يردّدهـا هـؤلاء بعـد كثـرة الصخـب المؤلـم حولهـم.

بدقّـة عقـارب سـاعات الضيـق نكبـر فـي عـام مائـة عـام، فمـن يواسـي الحـزن بداخلنـا وقـد تنكـر أهـل الزمـن؟ لـم تعـد لنـا القـدرة علـى تقبـل أي شـيء سـيء، لـم يعـد للقلـب متسـع للعـذاب، نحتـاج لعزلـة لترميـم أنفسـنا لنقـف مـن جديـد.

إنّهـا سـاعة منتصـف الليـل بتوقيـت الأنيـن ،ستستشـعر قبـح العالـم حيـن تبكيـك قسـوة القـدر حيـن تركـن طريـح الوجـع تعانـي سـكرات الوحـدة.

كأنّ آلام الدّهـر وبـؤس الأيـام غيرتنـا يـا صديقـي، يؤسـفني أنّنـا اغتربنـا بعـد أن أنجبنـا وطنـا واحـدا ظننـت أن طبـع الوفـاء المؤسـس بيننـا غيـر قابـل للهجـر، فعلـت ذلـك بطريقـة غيـر شـرعية خاطـرت فـي قـوارب الغـدر بينمـا اسـتوطنتنا الآلام لتشـيد أسـلاكها الشـائكة بحدودنـا.

لا يـزال الحـظ يكابـر لقائـي، وربمـا لقـاءك أيضـا فمـن يطـرق بابـك وأنـت فـي مخيـم بـلا مـأوى، بينمـا تداعـب أيامـك الوتـر الحسـاس مقاعدهـم خاويـة، سـتجلس وحيـدا تشـاهد مسـرحية الخيبـة لممثليـن مبدعيـن فـي اختيـار الأقنعـة.

أصبـح الكثيـر يغـادر بـلا سـبب مقنـع ولا حتـى كلمـة أخيـرة تسـجّل لهـم فـي الذّاكـرة، لـم نكـن فـي نظرهـم سـوى محطـات تافهـة لا نسـتحق فيهـا تلويـح وداع .

تلـك المسـاحات الشّاسـعة مـن قلوبنـا لـم تكـن فـي نظرهـم سـوى بقعـة لجنـي مصالحهـم، أولئـك الذيـن يختـارون الرّحيـل وقـت المطـر والبـرد والرّعـد ليسـرقوا منـا فرحـة الشـتاء، ويختفـوا حيـن تشـتد ريـاح الضّيـق حولنـا، يعبـرون العمـر كاللصـوص ينهبـون أجمـل أيّامـه، ليغـادروا بصمـت الجبنـاء بـلا عبـارات مهذّبـة يختمـون بهـا حكايـات كانـت آمنـة، مصرّيـن علـى نهايـات صغيـرة بمشـهد تمثيلـي مـدروس الكلمـات والحـركات الكاذبـة حـدّ السـخرية.

كنّـا الجانـب الأنقـى لمـا اختلقنـا لهـم الأعـذار، وكثيـرا مـا كنّـا نتّكـئ علـى عـكّاز التّسـامح ليسـقطنا علـى الحقيقـة التـي غيّبهـا الحـبّ لنقابـل بالأنانيّـة المفرطـة والنّكـران.

أنتم الذين اتخذتم من النفاق عادة

مللنا تمثيلكم

حفظنا مسرحياتكم عن ظهر قلب

لتسقط أقنعتكم وليسدل الستار الفاصل بين المعلن والمكنون

اخرجوا من مسرح النفاق ولا تتدافعوا..

وصلنا متأخرين جدا، لقد كان علينا المغادرة أولا، ليتنا انسحبنا قبل حدوث الاختلالات الهيكلية لثقتنا بالعالم قبل أن نساهم في نسبة تأذّينا.
فالستار نازل لا محالة ربّما كان أملنا عند آخر مشهد، لكن الحقيقة مناقضة لتوقعاتنا فقد كان له وقع الداء لأنفسنا إذ خرق غشاء آمالنا ليتسرب الشلل في أعماقنا وينخر الصمت عظام صدورنا وتذبح ثقتنا بالبشر من الوريد إلى الوريد ويتسرب الكثير من أصابعنا.

يقال أن ديسمبر شهر النهايات، قد يكون كذلك وقد يكون استثنائيا ليكون بداية، فحتى لو كانت نهايات في ديسمبر فتلك قد تكون حتما بداية لشيء آخر..
فنهاية الفرح بداية ألم
ونهاية الآلام بداية للذكريات
بداية حرب.. نهاية حبّ واحتراق في زنزانة الفراق.

بين حدّة الأيام ووهنها فترة ستتعلم فيها الاكتفاء بذاتك ستصل مرحلة النضوج عندها لن تضطر لانتهاج أسلوب الحديث، ستدرك الحقيقة وتتيقن أنه لا أحد يمسك بيمينك وأنّ أكتاف الآخرين هشة، ستميل أكثر إلى الوحدة، ستبقيه مفتوحا ذلك الباب الذي أخرج الكثير مع الزمن.
كان صعبا عليك معاداة الظروف وخذلان الخلّان، لكن ستصبح مدينا لجراحك لأنها صنعت منك شخصا جديدا غير قابل للانحناء وتنصف القدر فكل درس صغير كان تمهيدا لدروس أصعب في مرحلة مختلفة، نجتاز فيها الامتحان

لنتعلـم الـدرس، لأن الحيـاة تفـرض علينـا تقديـم شـهادة فريـدة تخفـي حقيقـة عميقـة لا نحبـذ كشـفها ولا نسـتطيع البـوح بهـا ربمـا خجـلا مـن ظـروف مدفونـة فـي أعماقنـا، تطاردنـا بـكل مـكان لتمـدّد المسـافة بيننـا وبيـن مـا نريـد.

فـأن تبـدو بمظهـر أنيـق لا يعنـي أبـدا أنـك تعيـش حيـاة سـهلة قـد، تكـون أصعـب ممـا يتوقعـون فداخلنـا يختلـف تمامـا عمـا يـراه الآخـرون، لذلـك هروبـا مـن نظـرة نقـص تصبـح مظاهرنـا فـي غالـب الأحيـان خداعـة.

بخطـى تسـابق الزمـن تنصهـر دقائـق الفشـل المسـتمر، نواجـه الواقـع الموحـش الـذي يهـوى تحنيـط سـنة أخـرى مـن أعمارنـا بذلـك القمـاش الأسـود اسـتعدادا لدفنهـا كسـابقاتها (والكفـن ببياضـه مرعـب)

ترى ما الذي ينتظرنا بعد الآن؟

لازلنا نسير على رصيف الغياب بقلوب مثقلة بالآهات..

أرواحنـا فقـدت الأمـل بعدمـا امتـلأت زواياهـا بأحـلام منهكـة، مللنـا سـكناها فـي ذاكرتنـا وقـد أكلهـا الأيـام...

لكـن داخلنـا يعدنـا بعـوض مـن اللـه ذلـك اليقيـن الـذي اسـتطاع أن يصـرخ ويقتـل كراكيـب الحـزن واليـأس، الـذي اسـتطاع إخبارنـا أنّـه مهمـا بلغـت كثافـة تلـك السّـحابة سـتعود السـماء صافيـة.

فربمـا تأخرنـا عـن الالتحـاق بالفهـم لحقيقـة الواقـع لكـن لـم نتعمـد ذلـك، وقـد يفوتنـا موعـد إقـلاع الطّائـرة لننجـو مـن أن نكـون بيـن قائمـة ضحاياهـا أو مفقوديهـا.. ذلـك الازدحـام الـذي جعل لنـا عائقـا للوصـول قـد يكـون سـببا لنركـب الطائـرة الآمنـة.

مـا أصعب أن تعجز أمـام خسـارة أعزّ مـا تملـك، ذلـك الشـعور بالفـراق الحقيقـي والغربـة دون ملجـأ، غالبـا مـا نـأوي بقلوبنـا إلـى أعـز الأصدقـاء، لـم تكـن لرودينـا صديقـة مقرّبـة تسـتطيع البـوح لهـا، فقـد كانـت كلّهـا علاقـات سـطحية ليـس بذلـك القـدر مـن الأمـان، فـي الصّغر كانـت تسـتحي مـن النـاس مـن قسـوة أبيهـا، كانـت تعتقـد أنـه الوحيـد فـي الدنيـا الـذي تخلّـى عـن بناتـه لكـن كانـت تقـول رغـم ذلـك أحبّـه.. فهـو والـدي

اليوم ولأول مرة لا أشعر أن لدي سندا

أشعر بالغربة، بالخيبة

لكن لا أحد يعلم ما يمر به الآخرين

مـن يعزينـا ونحـن نمـوت، مـا فائـدة العـزاء لأهـل الميـت، فالفقيـد أولـى بالـدلال قبـل أن يسـمى ميتـا..

أنقـذوا أولئـك الذيـن يموتـون مـن الداخـل، قدّمـوا لهـم كلمـات تعيـد لهـم تلـك الـروح التـي تقـاوم الجسـم للخـروج.

***

السـاعة الحاديـة عشـر ليـلا، الخـوف مـن اقتـراب منتصـف الليـل أصبـح مـن الهواجـس التـي تخيفهـا كالكثيريـن حيـن ينـام الجميـع ويبقـى الألـم يمشـط أرصفـة القلـوب المكسـورة، فحينهـا تشـتد الغربـة وتنتشـر روائـح الحنيـن ويسـدل سـتار الابتسـامة الكاذبـة لتبعثرنـا الظلمـة فـي الآهـات ولا معبـر لمـن يضـيء لنـا العتمـة. تشـعر أنّهـا الوحيـدة فـي هـذا العالـم التـي تعانـي فحيـن تكـون تعيسـا تـرى جلّ النـاس سـعداء، قـد يبدعـون كذلـك فـي لعـب الـدور علـى مسـرح النسـيان وقـد يكونـون حقّـا سـعداء وقـد يتقنـون فـنّ تجاهـل الأحـزان.

لا تـزال تحتفظ بصـور تيـم، تبكـي علـى شاشـة الهاتـف، كانـت الوحيـدة التـي تنيـر لهـا الغرفـة، لا ملجـأ لإطفـاء الشـوق سـوى صـورة، مـا هـذه التفاصيـل التي شـدّت قلبهـا إلـى هـذه الدّرجـة؟

بصعوبـة، تحـاول إيقـاف دمعتهـا فقـد أحرقـت جفونهـا، محاولـة إقنـاع نفسـها بكرهـه، ولا جـدوى فمعاملتـه لهـا قبـل الغيـاب والإهمـال كانـت تسـتحقّ أن لا يهـان حـبّ بكـره.

كان الوحيـد الـذي أخبرهـا بجمـال قلبهـا، الـذي اكتشـف لينهـا وحسـن سـريرتها، الوحيـد الـذي قـال لهـا:

"رودينا أنت جوهرة"

منتصـف اللّيـل ودقيقتـان، يمـرّ الوقـت ولا شـيء يتغيّـر، شـعور بالغيرة وتسـاؤلات جمّـة: مـاذا يفعـل تيـم فـي هـذا الوقـت؟ بقيـت رودينـا مضطجعـة، تسـتدير لتنـام علـى جانبهـا الأيمـن ناحيـة الجـدار بالغرفـة لينطـق قلبهـا بالتنهيـدة، بصـوت يحـاول إخفـاء أنينـه جاهـدة لإبقائـه بيـن الضلـوع.

فجـأة تنهـض باتجـاه الحمّـام، تفتـح الحنفيـة بمهـل كـي لا توقـظ أحـدا، تغسـل وجههـا فملوحـة الدّمـع ستسـتقرّ علـى رموشـها فتحسـن إظهـار بكائهـا فـي الصبـاح.

الـذي كان يزيـد حسـرتها أنّ تيـم وبعد إنهـاء علاقتـه بهـا لـم يفكـر حتـى مـا الـذي سـيحصل لهـا، لـم يسـأل مطلقـا حتّـى، كانـت معاملتـه لهـا علـى غيـر طبيعتـه، أبـدا لـم يكـن تيـم الـذي تعرفـه، بيـن حيـرة هـل ظهـر الوجـه الحقيقـيّ أم ارتـدى قنـاع القسـوة، لـم تسـتطع تصديـق ذلـك، كل مـا كان يسـيطر عليهـا، مسـتحيل أن يحـبّ غيـري، أكيـد تلـك مجـرّد اسـم فـي حياتـه ولـن يسـتطيع العيـش بعيـدا

عنّي، وبينما كانت تتصفّح رسائله عبرت على ما قاله ذات مرّة: "أنت أحبّ الأشياء إليّ ومن الصّعب أن أتخلى عنك، أنت الصّدفة الّتي أدركت بها ذاتي، حين كان الضياع يقودني إليك..."

لا يزال اللّيل طويلا، ولا تزال مشاعرها تخذلها لتأتي الذكرى بما يبكيها، لملمت شتاتها بعد حين ونامت، نامت حزينة ولا تستحق ذلك.

"على الأقل عندما تقذف في قلبي قطع الزجاج تلك لفها بورقة اعتذار على الأقل، كي لا تخلق نزيفا دائما، لا تجعل قلبي أرخص من حاوية قمامة، فإن اعتبرته كذلك فاعلم أنّه يحويك..

إنّه يحويك فقط."

في الصّباح اقترب وقت الضحى على الانتهاء ولم تستيقظ، غارقة في النوم حد الثّمالة، إلى إن أفاقت على صوت خطى أمّها وهي ترتّب خزانتها البائسة فقد أصبح الحزن يخيم في كلّ رف من رفوفها.

أصبحت مهملة رودينا.. خاطبتها أمّها.

- صباح الخير أمي، تنظر إلى ساعة هاتفها، يا الله تأخرت كثيرا لم أنتبه أني نمت كل هذا الوقت، لماذا لم توقظيني؟

- لماذا هل لديك ما تفعلينه؟ أجابت متأسّفة.

لا بأس أستطيع تأجيله، ففي الأصل أنا متعبة.

في الجانب الآخر وإن تحدثت عن بشاعة النّاس لم يكن لي موعدا مع الفراق ولا حتى الحبّ، لكن الأذية كانت لي معها مواعيد كثر.

عـن أنـاس يحاولـون جاهديـن طمـس تفاصيـل حياتنـا أتحـدث، أنـاس علّمونـا دروسـا لا يمحوهـا الزّمـن كان لابـد أن لا أذكرهـم لكـم فهـم لا يسـتحقون حتـى سـطرا مـن كتابـي..

كان صعبـا علينـا معاشـرتهم لكـن الحيـاة فرضتهـم علينـا، لنحشـر فـي رقعـة بعيـدا عـن السّـلام.

أولئـك الذيـن يكنـون لنـا كرهـا غيـر مبـرر، مـا يجعلنـا نسـتغرب أفعالهـم، نترقبهـا بملـل بحثـا عـن طـرف الخيـط أو بدايـة فكـرة نسـتطيع بهـا حـل لغـز تلـك الوجـوه الغريبـة، الملـيء بالضحـكات المصطنعـة، المزيفـة، يصنعـون قرابـة الثلاثيـن وجهـا فـي اليـوم الواحـد، كلام يغطيـه النفـاق، أحاديـث لا طعـم لهـا تشـمئز منهـا الآذان، قلـوب تعانـي النقـص، بيـن المعلـن والمكنـون نوايـا خبيثـة، عيـون تسـتقبح جمـال غيرهـا وقلـوب تعلـن الحـزن لفـرح غيرهـا وتدعيـه فـي أوانـه..

أولئـك الذيـن حيـن تطـرق الفرحـة بابنـا لا يسـعون لإكرامهـا يقابلـون الجميـل بالنكـران والمحبـة بالجفـاء.

الفاشـلون فـي كونهـم أمثالنـا، فـي البيـاض وفـي صـلاح الجوهـر، البارعـون فـي التمثيـل، منتحلـي الشـخصيات، أصحـاب القناعيـن واللسـانين وأخطـر أنـواع البشـر.. لا نعـرف مـا يجـول بخواطرهـم، ولا مـا يضمـرون بداخلهـم، نفتقـد الراحـة معهـم، نبـوح لهـم بأسـرارنا لنجدهـا فـي اليـوم التّـالي علـى كل لسـان.. يخلقـون الفوضـى لأيامنـا، يعيشـون علـى مراقبـة وتتبـع أرزاق مـن حولهـم، متسـلطون بطبعهـم، حلفـاء النفـاق.

الذيـن لهـم القـدرة علـى المكـر، يبحثـون عـن المشـاكل فـي كل الزوايـا، يترصـدون إيذاءنـا ويخشـون علـى أنفسـهم مـن الأذى، الذيـن نقابلهـم بالحسـن مهما أسـاؤوا، الذيـن يظنّـون أنّ ذلـك قـوّة الضعفـاء حقّـا.

يبدو أن كل شيء يؤخذ في هذا الزمن بالقوة حتى السعادة أصبحنا لا ننتظر أن توهب لنا بل يجب أن تنهب. ما حالنا بين الضعفاء؟ ولا يزال الوجع يرقص ساخرا منّا، احتفالا باحتلالنا كليّة ولا تزال تلك السّعادة متعلّقة بأشخاص.

***

في ذات اليوم أحسّت رودينا بضغط كبير، فقرّرت الخروج لبعض الوقت لعلّ نفسيّتها تتحسن بعض الشيء، اتّجهت نحو إحدى الحدائق التي كانت غالبا ما تتردّد إليها حين تريد العزلة، جالسة بمفردها، تتطلّع إلى ما حولها ثمّ تتوقّف في شرود، تحاول وتحارب بكلّ ما أوتيت من قوّة، من تفكّر كيف ستواجه تلك الأشياء الّتي تخاف من حدوثها، لا تستطيع تجاهل ذلك، تحتاج إلى كثير من الوقت والجهد لذلك وقد لا يكفي، وسط كلّ هذا التشوّش، تبسّمت على مضض حين أبصرت زوجين كبيرين في السّن متوجّهان إلى المقعد الّذي مقربة منها، كانت تلك المرأة العجوز تشدّ علي يده بقوّة، كأمّ تمسك بابنها وسط الزحام، يتّكئ عليها ليخطو خطوات صغيرة يحفظ بها التّوازن، يبدوان وكأنّهما انصهرا معا وتحولا إلى جسد واحد وكأن قلبيهما تواعدا على المضيّ في سبيل واحد، على استقامة واحدة أشبه بظاهرة يدخل فيها القمر منطقة ظلّ الأرض.

روت رودينا: كنت أسير في الطرقات كغريب، حينها ذهبت إلى اللاّشيء، إلى الضّياع، رغم ذلك لم أخبر أحدا، لازلت أحافظ عليك بداخلي، أكتمك كي لا أخسرك.

كسرت قلبي هذه المرّة

"الفراق أبدا ليس فصلا من فصول الحبّ..

الحبّ أجمل من أن يتّهم بكذا شيء

إنّه جريمة ترتكب في حقه."

قل للمفارق إذا تعاظم شوقه

أنّ الحبيب قد لاذ بالنسيان

واسلك طريقا غير وصاله

وافتح لكرامتك باب الرضوان

فالغدر أصبح من شيمة

الأحباب والخلاّن

فلا حبّ يتبعه توسّل

ما الرجاء إلّا لخالق الأكوان

والحبّ شيء نادر

وقلبي جوهر لا يستحق أن يعاني.

فـراق علـى غيـر اتّفـاق أسـوأ مـا قـد يصيـب حبّـا، خسـارة مـن ظنناهـم الحيـاة، أولئـك الذيـن ضحينـا لأجلهـم بسـنين عمـر، ذهبـوا وغـدروا.

كانـوا عالمنـا فجـأة صـار الخـراب، تخلّـوا عنّـا، فأحدثـوا فوضـى داخليـة عمّـت أروقـة الفِـؤاد دون سـابق أعـذار.

عتـاب، توسـل وانهيـار.. لا حاجـة لمزيـد مـن الجهـود، لـن نجبرهـم علـى البقـاء، لـن نرضـى بسـقوط آخـر فشـعور الإهانـة سـيء جـدا، لـن نقبـل بشـيء آخـر يضرنـا فلـم يعـد هنـاك متسـع، لـن نخالـف القـدر للحصـول علـى شـخص.

" تعلّموا العيش دونهم .

ابدؤوا بالدّروس الصعبة"

قالت بنوع من اليأس:

"أحببته وأحبني هذا ما قاله،

كان حلما منفردا، ظننته قدري، كان جنونا لكن..

كلّفتني أكاذيبه كلّ شيء، هذا مؤلم، لم يكن حبّا بقدر ما كان منفى.

العودة منه صعبة، كسكب الملح مرّات عديدة على جرح لا يندمل.

نامت حزينة تلك الليلة، مثلما نامت في ليال سابقة، وضعت رأسها على الوسادة تضم يدها على صدرها خشية أن يتوقف نبض قلبها من فرط التعاسة، من عظم الصّدمة، أمضت وقتا وجسمها يرتجف كأن روحها انتزعت لتغرق في بحر عميق من الكآبة.

أقلت نامت؟ لا أعتقد..

توالت أيّام وليال تمسّكت بالإيمان، تحاول إشغال نفسها بكل شيء ولا شيء ينفع معها، تجيب كلّ من يسألها عن حالها:

كلّ شيء على ما يرام.

لكنّها اليوم كجثّة ثقيلة، لم تكن سلبية إلى هذه الدّرجة ولم تتصف يوما بهذه الحدّة من المأساوية، لم يكن لديها رغبة في أن تصبح على ما هي عليه الآن، حاربت، قاومت واليوم أضحت متعبة.

متعبة أكثر من أيّ وقت، لم تتحمّل ما فعله تيم الذي مضى دون أيّ اكتراث.

تبلـع ريقهـا بصعوبـة مـن شـدة الغصـة، لا تصـدق أنّهـا إهانـة لهـا، تقنـع نفسـها دومـا أنّـه مجبـر، خـلال أشـهر قبـل الآن حاولـت ولـم تيـأس وكانـت دائمـا تبـدي لـه اهتمامـا زائـدا لتـردّه لهـا، تـدرك أن خطيبتـه سـتهتم بـه فتحـاول عمـل الأكثـر ليسـتدرك الفـرق بينهمـا. كان التغيّـر إلـى الأسـوأ شـيئا فشـيئا إلـى أن أصبحـت الـردود علـى الرسـائل بفـارق أيـام. أصبحـت تضحـي بالكثيـر مـن أجـل رسـالة واحـدة، استسـلمت حينهـا فابتعدت واليـوم بالـغ كلّ شـيء فـي تدميرهـا فقـررت إرسـال رسـالة علّ الـردّ يكـون هـذه المـرّة شـافيا فكتبـت:

تيم، كيف حالك؟

كان الردّ بعد أقل من ساعة:

بخيـر الحمـد للـه. لـم يسـألها حتـى عـن حالهـا، كان بالنسـبة لهـا أمـر بقـدر هائـل مـن الألـم، أن لا يسـألك عـن حالـك مـن يهمّـك حالـه كلّـه شـيء بمنتهـى الأنانيّـة.

تتمسك وتتجاهل بقوّة: وكيف حال خطيبتك؟

"بخيـر، شـكرا"، أجـاب مختصـرا. وكأنهـا تتحـدث لشـخص فاقـد للذاكـرة، لـم تتعـرف عليـه ذاك الـذي كان يخبرهـا بـكل شـيء.

صراخ دفين بالقلب، لماذا؟ فأنا الّتي أحببتك أوّلا.

كان يقتلهـا الفضـول فأتمّـت الحديـث معـه، وكان هـو يخبرهـا عنهـا والغيـرة تعصرهـا وكأنـه شـخص بـلا مشـاعر، ألـم يـدرك مقـدار الجـرح الـذي كان يحفـره بـكل بـرود؟ تخلّـل تلـك المحادثـة طلـب غريـب منـه:

أريدك صديقة للقاء، أرسل بينما كان يعتصر وراء الشّاشة.

بعض الأمـور تبقـى دائمـة، تمامـا كأن تختـار بنفسـك أن تكـون فـي آخـر الخانـات، تثيـر الشـفقة بقطعـة خـردة تركهـا حـبّ أبلـه بداخلـك.

لكن ما كلّ هذه الثقة؟ أيمكن أن يثق بها إلى هذه الدّرجة؟

بدموع تنهمر ردّت في الحين:

أجل سأكون كذلك، كانت تتمنى لو أنها صرخت بوجهه: "لن أفعل" ، تكرّر في نفسها لا، لا، كيف تتجرّأ تيم على أذيتي هكذا؟ لكن لم يتبقَّ شيء فالأمر لم يستطع هزيمة كبريائها، بل وهذه المرّة طلب كهذا زرع فيها روح انتقام بطريقة أنيقة، أرادت أن تعرفها، من هذه؟ ما هي صفاتها؟ كيف فضّلتها عليّ؟ هل فاق اهتمامها اهتمامي الذي كان يزرع بوريدك الفرحة كلّما تنفست؟ أسئلة وأخرى كانت عقلها وقلبها يطرحانها، فقد كانت على ثقة أنه يستحيل أن يأتي الزمان بمثلها، لربّما يظنّه الجميع غرورا لكنّه حقيقة تخفيها في نفسها، ولا تظهر إلا على وجه بإشراقة شمس.

لم يتفاجأ تيم بقبولها قائلا:

علّميها كيف تكون ليّنة، علّميها أن تحبّني مثلك، علّميها كيف تتقاسم معي آلامي، كيف تفاجئني برسالة فيها "أحبّك" كيف تكتبها ولا تعجز عن نسخها بالحرف ملايين المرات، أن تذهب تعب يومي بسؤال عن الحال كل حين، علّميها أن تحبّ عيوبي، علّميها أن الحب يكمن في التفاصيل الصّغيرة، علّميها كيف تكون أنت كي لا أشتاق إليك..

كانت هي على حافّة التّوازن، فأفلتت، لتسقط على شعور لا تعرف طريقا للخروج منه.

لم تنجح في تكوين جملة باردة، لم تردّ بأيّ كلمة، اختنقت في صمت ولحظة انهيار وانفجار بالبكاء خلف شاشة الهاتف.

تظاهرت رودينا أن هذا لا يؤلمها بينما كانت تحترق.

لبثت في التفكير شاردة يومان، الليلة استطاعت أن ترسل لها برسالة على بريدها، لتحاول التعرف عليها: مرحبا أنا رودينا

بعد ساعات تمت قراءة الرسالة سبع دقائق بالضبط بعدها ردّت:

أهلا.. عرفتك فقد أخبرني تيم عنك

تردّ رودينا ضاحكة، ماذا أخبرك؟

أنكّ صديقة بمثابة أخت له مثقّفة، وواعية جدّا، ردّت مسرعة.

كتبت رودينا بقلب لا يستطيع التعرّف على نوع الخنجر الذي يطعن به

أجل.. تيم صديق بالنسبة لي .

بعدها أرسلت لقاء كلمات تمدح فيها تيم، وكيف تعرفا على بعضهما، كيف أحبّا بعضهما.

كانت تكتب بسرعة، تتحدّث كثيرا لم تترك لرودينا مجالا سوى أن تقرأ وتموت.

أخبرتها أنّها تعرفه منذ الصغر، وأنّه أعجب بها أيّام الجامعة، وأنه يهتم بها ويغار جدا عليها وقد تعرّفا كانت خطبتهما منذ زمن.

كانت رودينا تجيب بكلمات معدودة: أمنيات بدوام هذا الحبّ، لم تكن من القلب فقد كان اللّسان ينطق بها حفاظا عن كرامتها.

بعد أن أكملت لقاء حكايتها طلبت من رودينا أن لا تكمل صداقتها مع تيم قائلة بطريقة مستفزة:

أرجو أن تقطعي علاقتك بتيم، فأنا أغار، أغار عليه جدا.. (وكلمات أخرى جارحة).

تسـيء اسـتخدام قلبهـا مـرة ثانيـة كيـف اسـتطاعت إن تتحـدث برفـق معهـا تلـك التـي كانـت لا تجيـد اللباقـة فـي الـكلام، شـعرت بالشـفقة علـى تيـم لأنـه أحـبّ مثـل هـذه الفتـاة، فـي ذات الوقـت كانـت تعذرهـا أن لا ذنـب لهـا، فهـي لا تعلـم بشـيء ومـن حقّهـا إبعـاد كلّ مـن تتقـرّب مـن حبيبهـا.

كانـت ثلاثـة عـدد المـرات التـي تحدّثتـا فيهـا. لـم تسـتطع رودينـا تحمّـل مـا تخبرهـا بـه كل يـوم.

فـي حيـن أنّـه كان سـعيدا بذلـك لـم تسـتطع اسـتهلاك مزيـد مـن الكرامـة والوقـت لزيـادة وزن الخيبـة بقلبهـا، لـن تفعـل ذلـك وتـرد بعـد ذلـك.

وكذلك تيم لم يعد يهتم لها.

كانـت مـن حيـن لآخـر تسـأل عـن حالـه بـردود مؤلمـة منـه كانـت تجبـر رودينـا علـى الانسـحاب نهائيّـا هـذه المـرّة

مرّت أيام..

بعـث تيـم برسـالات لرودينـا ولا تـرد، تمنـع نفسـها بقوّة، تشـتاق لمحادثتـه لكن لا.

فـي يـوم اتصـل تيـم ملحّـا عليهـا لتجيبـه، ليطلـب منهـا أن تتدخـل لمصالحـة لقـاء فـي مشـكلة غيـرة صـارت بينهمـا، تمكنـت مـن إيصالـه للحـلّ والاختفـاء نهائيـا فقـد صـارت الإهانـة شـيئا عاديـا أمـام كلّ هـذا.

كيـف هـان عليـه دمعهـا؟ ظنّـت أنّـه سـيقول شـيئا مثـل آسـف أخطـأت فـي حقّـك، بعدهـا دخلـت فـي نوبـة مـن الضحـك وفجـأة سـحقت الذكريـات كلّ شـيء فامتزجـت الضحكـة للحظـة بنبـرات الغصّـة، كان عليهـا أن تبكـي.

"نحن نستحق ما يحدث لنا، نستحق الخذلان بقدر ما نوفي"

أحيانـا نمـرّ علـى مواقـف نهـان فيهـا بطريقـة غيـر متوقعّـة، تتـرك فينـا غصّـة وقـد عجزنـا عـن ترتيـب كلمـات للـردّ وكأن لسـاننا ربـط، لـم ننتظـر أن تصـوّب اتجاهنـا كلمـات تكسـر الخاطـر لأنّنـا فعـلا لا نسـتحق أن نشـعر بالكسـر، نضعـف ولا تتملّكنـا الـردود وقـد نجيـب بطريقـة لطيفـة أو نكتفـي بالصمـت كمناجـاة أخيـرة لتضميـد ذلـك الفتـق بالصـدر.

نسـتطيع أن ننسـى، لكـن لا يوجـد أحـد بالعالـم يسـتطيع تقبّـل الأذيـة بصـدر رحـب، مـا لا نسـتطيعه هـو ردّهـا بالمثـل.

تختلف الظّـــروف والفراق واحد..

نفس القسوة، نفس الوجع

لا يكفي الاعتذار

"أكبر إهانة يتعرّض لها القلب بعد كسره اعتذار لا يليق"

التعوّد على الوحدة واختيار البعد قد يكون صائبا

حين تصبح محاولات القرب تصنع ألما يرتله الصّمت

أيعقل أن السعادة قد تأتي غالبا على هيئة بشر؟

أم هو عذر نعلّق عليه أملا وحيدا لنطرد وحشة القلب؟

لكن ماذا لو أنّ الشخص الذي علّمنا الحبّ أصبح يشكل أكثر الصدمات؟

ماذا لو من ظننّاه لا يتغير، فعل ذلك وخاب الظن به؟

حقيقة لا أعرف ما يحتويه الكتاب نيابة عن كلّ المخذولين،

لكنّه عنوان أنيق..

إلى أولئك المخذولون:

عليكم أن تكفوا عن الانتظار

لا تنتظروا اعتذارا من أحد، لا تنتظروه بعد خذلان

لا تصدقوا الأعذارفهي لن تأتي وإن أتت ستأتي متأخرة ولا نريدها.

لمَ نترقّب اعتذارا مادام لن يغيّر شيئا

أنا آسف.. أخطأت بحقّك.

أرجو إعادة قراءة الجملة السّابقة..

أرأيت عزيزي القارئ(ة)؟ هي فقط بضع حروف قد تجبر أشياءً بالرّوح..

آسفة لأنّي أرجعتك للخلف، ما الذي يزعج حين اعتذرت؟ هل نقص من كرامتي؟ كيف بالجروح التي لا يعتذر عنها؟ هل العالم في استغناء عن المغفرة؟

تلك كلمات انتظرتها رودينا طويلا ولم تأتِ

أكان يكذب أم أحبّني حقّا؟

مستحيل أن يكذب أحد طوال ذلك الوقت، سيكذب شهر، شهرين ثم يملّ.. لا أستطيع تصديق ذلك

كلّ هذا وذاك كان يثير حيرة رودينا.

"ستتأذى كثيرا إن حاربت للبقاء"

تمرّ الأيام وتمرّ ولا شيء يتغيّر، ولا زالت تزاول عملها في المعهد الخاص وتمّ الاقتراح منها أن تفتح قسما لتدريس فنون الرّسم للأطفال الموهوبين أقلّ من خمس عشرة سنة.

بعد مدّة تمّ القبول من طرف مدير المؤسسة، وبدأت الأشغال على ذلك بقرار فتح مسابقة لاختيار عدد بمستوى معيّن..

كانت سعيدة جدّا بالفكرة واستعدّت لاستقبال المزيد من الحياة، استبعدت من حولها فكرة أنها سيئة حظّ وكان من المفروض أن تستبعدها قبل وأن تتوقف عن ارتكاب الأخطاء في حقّ نفسها.

كانت ترسم لوحات بطرق مختلفة من وقت لآخر بعد انتهائها من العمل، كانت الفرحة ترتسم في عينيها متغاضية عن ما مرّت به من أرق، وكأنّ العمل مع الأطفال أعانها حتّى استقرّت على هذا الحال من الأمل.

مع ذلك كانت تتذكر دائما عدّة مواقف حدثت مع تيم، لطالما كانت تتوه بين الذكريات وتتعثّر بالشّوق الظاهر في بريق أعينها بندى الدمع، ما هذا الحبّ الذّي تحوّل إلى خراب ينهشها؟ تبدو من نبرتها، من ملامحها أنّها خذلت، ما أصعب أن تعجز أمام خسارة أغلى ما تملك.

***

اليـوم العاشـر مـن مـارس بقيـت خمـس أيّـام علـى يـوم ميـلاد تيـم التاسـع والعشـرين وسـتة وتسـعين يومـا علـى ميـلاد رودينـا.

فـي المسـاء انشـغلت رودينـا فـي التفكيـر كيـف تسـتغل هـذا اليـوم لمعايـدة تيـم.. تهزمهـا الدمـوع فـي كل ليلـة، لا تعـرف هـل تبتعـد فتخسـر أم فـي تقتـرب فيلـوي يدهـا النّـدم!

تعيـد المحاولـة فـي الصّبـاح، مـرّ يومـان، ثلاثـة والليلـة العاشـرة يجـب أن تبعـث لـه برسـالة أقلّ مـا يقـال عنهـا أنّهـا كرسـالة طفلـة بهـا كلّ معانـي الحـبّ، اسـتحت أن تطلـب منـه الحديـث احترامـا لخطيبتـه.

كانـت آخـر محاولـة لإرجـاع تيـم تلقّـى تيـم الرّسـالة وعلـى مـا يبـدو كان سـعيدا جـدّا بهـا، وكأنـه كان ينتظرهـا، كان متأكـدّا أنهـا لـن تنسـاه فـي هكـذا يـوم.

دام حديـث مطـوّل بينهمـا وكأنّ الأيّـام كانـت ظالمـة فـي التّفريـق بينهمـا.. انتهـى اليـوم وانتهـى الحلـم معـه.

عـادت الأيّـام والأشـهر الشرسـة مـن جديـد، رغـم كل مـا قدمتـه مـن اهتمـام إلّا أنّـه اختفـى بعد ذلـك، كان يسـتنزف منهـا الاهتمـام ويأخـذه كلّـه ثـم يغيـب، ليبـدأ جسـمها بالتـآكل تحـت وطـأة الإهانـة مـن جديـد.

للأيّـام تفاصيـل يصعـب نسـيانها، خاصّـة إن كنّـا مـن شـكّل تلـك التّفاصيـل وتضيـع بنـا لنخسـر أجـزاء منّـا فيهـا ثـم تظلـم علينـا حينهـا الـكلّ سـيتقدم لتشـييع جنازتـك لكـن وحـدك سـتموت، سـيضعونك بقسـوة فـي مرقـدك الأخيـر، لا أحـد سـيصاب بالمـرارة بعـدك.

كلّ مـا فـي الأمـر ثلاثـة أيـام والرابـع يـوم الفـراق وتنسـى ويعـود كلّ الذيـن تمسكت بهم إلـى الحيـاة تمامـا كتلـك التـي كانـت قبـل يـوم وفاتـك، لكـن فقـط أنـت مـن سـتموت..

***

"كانت تقاوم لتبقى ومن دون رحمة كان يبتعد"

مـا كلّ هـذا التّمسّـك؟ يكفـي مـا فقـد مـن الكرامـة دفاعـا عـن ممتلـكات القلـب فقلـوب الآخريـن قابلـة للتشـكيل، ليسـت بصلابـة قلوبنـا.

"لن أسامحك" من آخر الرّسائل الّتي أرسلتها رودينا لتيم:

أتساءل هل قلت لنفسك ولو مرّة تبا لقد افتقدتها...

منـذ اللّحظـات الّتـي تركتنـي فيهـا وحيـدة وأنـا أبـذل مجهـودا كبيـرا حتـى لا يظهـر ذلـك علـيّ، كـي لا أشـتكي لأحـد مـا أعانيـه كنـت أتحـدث لنفسـي:

كان يحبّنـي أوْمـن بذلـك حقّـا، لكـن لـم تكـن كذلـك ولـو قلـت لـي أنّـك تكـذب كنـت سـأبذل مجهـودا أقـلّ لأواسـي نفسـي، فكذبـة الحـبّ أقسـى مـن صراحـة أن تكرهنـي، وأن يبقـى القلـب فارغـا كيـوم ولـد أفضـل مـن أن يمتلـئ بخطـأ مثلـك بوهـم وبـأن يجنـى عليـه بأنانيّتـك.

آسـف علـى الغيـاب لسـاعة ولسـاعتين عليـك كنـت تردّدهـا كثيـرا، كيـف تركتنـي أغـوص فـي متاهـات أنانيتـك أنتظـر.. عـذرا لمـاذا لا تأسـف عـن غيابـك للأبـد؟ وقلـت أنّ الحـب يجمـع المتحابيـن، لمـاذا أصبـح يفـرّق بينهـم؟ قلـت قبـلا أنّ المحبّ يجـب أن يجـازف؟ جازفـت أنـا وابتليـت بـك..

كم سيدوم هذا وإلى متى؟

ربّما أشهر، بعد عام أو إلى الأبد..

كنـت أوّل حيـاة بالنسـبة لـي، لكـن ربّمـا اختـلاف مثقـال ذرّة فـي النّوايـا بيننـا جعلنـا لا نلتقـي، كنـت أظـن أنّ الصـدق والنّقـاء يكفيـان.

شكرا لك..

"فـي العـادة نشـكر كل مـن يهدينـا أشـياءَ جميلـة أمـا الآن أصبحنـا نشـكر مـن يؤلمنـا فقـد صـار أكثـر مـا يقدّمـه لنـا الأحبـاب"

***

بعدمـا أنهـى تيـم عملـه، ذهـب كعادتـه إلـى البيـت ارتـاح طويـلا ثـمّ خـرج ليجلـس فـي إحـدى سـاحات أربيـل

أمسك هاتفه ولم ينتبه للرّسالة..

يا لها من قطعة زجاج تخبّئها كسابقاتها.

مـاذا يفعل الإنسـان عندمـا لا يسـتطيع لا الابتعـاد ولا الاقتـراب مـن الشّـخص الـذي يحبّه ؟

بعد رجوعـه كان وقـت العشـاء، جلـس وحيـدا يـأكل ثـمّ أطـلّ علـى البريـد الـوارد ليـرى الرسـالة حيـن أمسـك هاتفـه، بـدأ بالقـراءة بسـرعة خاصّـة وأنهـا مـن رودينـا، لـم يتمكّـن مـن إتمـام لقمتـه حيـن قـرأ مـا كتبتـه.

أصابه من الندم ما يكفي من النّدم ليرد:

كلّ هذا رودينا؟

نعـم وأكثـر تيـم، قـدرّت كل ظروفـك إلّا أن تنظـر لأخـرى، لا أحـد أخبرنـي أن الأصعب مـن المـوت هـو العيـش دونـك، ظلمتنـي أنـت أم كانـت خدعـة النّصيـب؟

يكفي رودينا، يقول تيم والدّموع تعصره..

يحـاول الاتصـال بهـا فتقفـل الخـط، لا تريـد أن يسـمع صوتهـا ضعيفـا بعدمـا كانـت تتباهـى بالقـوّة.

رغم كلّ هذا لم تنتبه لألمي، لم تعتذر حتّى.

سـامحيني، اللـه ينتقـم منّـي، أنـت لا تسـتحقّين شـيئا مـن هـذا وأنـا لا أسـتحق حبّـا كحبّك

سكتت رودينا ولم تردّ.

"نخجل حتّى عندما نكون الطّرف المتأذّي، نستحي أن نردّ الأذى بالأذى"

انتظر تيم ردّها ثم كتبت بعد أن أقفل:

حديث قلبي إليك كيف أكتبه؟ فخيبتك ليست بعدها خيبة

تكلّموا عن الكرامة في الحبّ أمامي وكنت أقول:

عن أيّ كرامة تتحدثون؟

◄الفصل الثّاني

انتهت قصّتنا بالخذلان

الضحكة الدّائمة تلك أوجع ضحكة..

ومن يصدّق أن كمّا من الإيجابية والعفوية قد يكتب وجعا؟

لـم أكتـب منـذ مـدّة طويلـة، فقـد كنـت أحتـاج لفتـرة نقاهـة نفسـيّة، فمـا أكتبـه كان يأخـذ الكثيـر مـن صحّتـي، احتجـت لزاويـة مهمّـة مـن الوقـت لكتابـة تلـك البدايـة ولأنّـه صـار يتجاوزنـا دون رحمـة، فـي كلّ مـرّة كنـت أجـد الفرصـة أحـاول جاهـدة نهبهـا لأمسـك قلمـي، بـدأت اليـوم بالنهايـة كتبـت فيهـا كلمـات استنزفت منّـي الكثيـر مـن الجهـد النفسـي والجسـدي، أرهقتنـي جروحهـا لكنّهـا قـد تكـون كبدايـة جديـدة، فالنهايـة أحيانـا ليسـت أبـدا كذلـك، قـد تكـون بعدهـا فعلا بدايـة، فـلا حاجـة لنـا بعد ترتيـب الأحداث بالنقـاط الأخيـرة فرغـم أنّهـا قـد تسـع الأحـرف وكذلـك الأيـام، باسـتطاعتنا الاسـتغناء عنهـا.

كل نـهاية عليها أن تسدّد ثمن بداية أجمل..

لنكتـب نحـن مجـددا اسـتمرارية وحيـاة ونمحـو مـا يسـمّى "مـوت علـى قيـد الحيـاة" لا نريـد لهـذه العبـارة أن تنتشـر، علينـا إيقـاف هـذه الإشـاعة، يكفـي أن تعانـي خلايانـا الدّمـار.

رغـم ذلـك لا فـرق بيـن البدايـة والنّهايـة، فاسـترجاع الذكريـات وأحداث اللقـاء قـد تؤذينـا أكثـر، قـد يكـون الرجـوع للماضـي هـو عيـن النّهايـة لمـا تركنـا فيهـا مـن أجـزاء منّـا، عرّتنـا وأضحينـا بقلـوب مقبوضـة مـن سـمّ الأيّـام.

في ظلّ عجزي عن إكمال ما تبقّى، بإحدى الأمسيات

رفعت قلمي مجدّدا لأكتب هذا الفصل، بكلمات تليق بي

تليق بامرأة مكابرة بين ثنايا السّـــطور..

عن أيّ كرامة تتحدّثون ؟

"الكرامة خطّ أحمر ينتهي عندها كلّ صديق وحبيب
إلّا أنت تجاوزت بك ذلك الخطّ"

فـي الحـبّ عاتـب مرتيـن والثالثـة عـزّة نفسـي مـا بتسـمحلي، كلّ حـبّ لا يحفـظ الكرامـة ولا يجعلهـا مشـتركة بيـن الطّرفيـن ليـس حبّـا، مـن قـال أنّ العـدوّ الأول للحـبّ هـو الإهمـال، وأنّ كمّـا مـن المشـاعر الجميلـة والأحاسـيس الصّادقـة تسـقط ضحيّـة لحظـة إهمـال قاسـية فتغيّـرت بهـا القلـوب لـم يكـذب أبـدا، اللّـوم علينـا إن أخطأنـا ففقدنـا الأشـياء فالجـزاء مـن جنـس العمـل، شـيء بديهـي وعـادل أن تهمـل شـيئا فتفقـده، ففقـدان الصحّـة نتيجـة إنهاكهـا وفقـدان المـال يأتـي مـن إسـرافه وفقـدان الطمأنينـة يسـبّبه البعـد عـن الـربّ عـزّ وجـلّ، وأشـياء كثيـرة أخـرى يكـون الخطـأ منّـا نتلفهـا فنـذوق المـرارة بعدهـا ونحتسـيها علـى طاولـة الإهمـال. لكـن مـن جهـة أخـرى مـاذا لـو كان الفقـد ليـس مـن ذنـب اقتـرف؟ فنخسـر أشـياءً ليـس لأنّنـا أهملناهـا بـل لأنّنـا اهتممنـا بهـا زيـادة، ومـن يتحمـل تلـك القسـوة مـرارا وتكـرارا يحـرق كبريـاءه حبّـا وتمسّـكا مـا مقـدار ذلـك الشـعور بالإهانـة. فغالبـا تكـون الخسـارات فـي مـن اعتبرناهـم كلّ شـيء، يأتـون بحـبّ أنانـيّ ويمـرّون علينـا كاللّصـوص وقطّـاع الطّـرق ليسـلبوا كلّ شـيء ويرحلـوا، وفـي الأخيـر ينـزل رصيـد ثقتنـا إلـى الصّفـر.

قـد تهـان الكرامـة مـن أجـل شـخص لا يقـدّر ذلـك، فالحـبّ كمـا يقـال عنـه أعمـى لا يتقـن التّفكيـر والأخطـر أنّـه لا يملـك ذاكـرة تجعلـه يسـتفيد مـن حماقاتـه السّـابقة، ولا مـن تلـك الخيبـات المتكـرّرة الّتـي حفـرت جرحـا كبيـرا جـروح مثـل السّـرطان علاجهـا مؤلـم.

"مخطـئ جـدًّا مـن يعتقـد أن لا كرامـة فـي الحـبّ، فاختـلاط الـرّوح بالـرّوح يحفظهـا إلّا أنّـه أحيانـا قـد تتنـازل المـرأة جـرّا مـن مشـاعرها عـن الكثيـر لأجـل مـن لا يتنـازل عـن أيّ شـيء"

وراء كلّ رجل عظيم امرأة عظيمة، احترمته، أحبّته، اهتمت به، ودفعت به للعظمة وقد يكون هو وراءها فيصنع تاجا على رأسها، وقد يكون الأمر مختلفا تماما كأن يكون وراء كلّ امرأة ناجحة وواعية رجل حقير، أذيّة الرجل تصنع المرأة القويّة.

في بعض الأحيان عندما نحبّ ندوس على كرامتنا، احتياجا، شوقا، ضعفا، تدرّ بنا الأيادي ونبعث رسائل ما كان أن نكتبها، رسائل كنّا ننتظر أن تأتي بردّ شافي لكن تفاجئنا ضمائرها والكسرة بحروفها فتكون عكس التّوقعات فنؤذي أنفسنا بأيدينا، يتراجع بنا النّدم ليوقعنا مذلولين، كيف؟؟

أي نعم، وضعنا كرامتنا تحت الأقدام، نتسوّل وجوها تبتسم كذبا.

لم أغادرك عبثا

مللت انتظار مجيئك

بدروس الإهانة التي أتت منك

قدمت لنفسي شهادة التّخلي.

كنت أرتّب بعض الكتب لديّ، فلاحظت أنّ أغلبها من أناس أحبهم ويحبّونني، لذا فصلتها ووضعتها في مكان كلّما مررت بها وجدتها أمامي لأتذكّر دائما أني لست وحيدة، وأنّه حتّى ولو لم أحظَ بفرصة حبّ فقد كان أحبائي كثيرون، كانت لتلك الهدايا قيمة معنوية تتجاوز الماديات بمراحل وكنت أقدر جدا تلك المحبّة سواء بهدية، كلمة طيبة ودعوات جميلة.

كان صادقا أدهم الشرقاوي في قوله: مهيبة جدا عبارة "دعوت لك" أيّ شعور قدمته لهذا الشّخص ليشاركك خلوته مع اللّه؟

فعلا الحب يبعث السّعادة في الروح التي أصبحت في وقتنا هذا دون معنى وغلبت على الدنيا المظاهر والأشكال.

ذلك الحبّ الذي قدمته رودينا لتيم كان نقيّا فعكّر بالإهانة. كطفل يتيم تبنياه زوجين عقيمين وبعد فترة أنجبا وأعاداه إلى دار الأيتام، ليعاني من الفقد مرتين، كانت رودينا تعاني من ذلك مرّات عديدة تنتظر في كلّ مرّة المعجزة.

" الكثير منّا يحبّ الشخص الخطأ وينتظر المعجزة" شعور عابر يمرّ على قلبها فيؤلمها في كل مرة كانت تحاول الاقتراب منه، ربّما كانت تحتاجه، حسنا..

كان عليها التظاهر بالاكتفاء، في وقت أصبحت الكثيرات تبحثن على الانترنيت تلك الوصفات الغبية:

كيف تجعلينه يحبّك في خمس خطوات بسيطة؟ أسرار وخطوات تجعل الرجل يهتم بك، كيف تمتلكينه؟ كيف وكيف. وكيف لا أضحك على هكذا أشياء، تلك تكرارات لا تنطبق على أيّ حبّ.

فالحبّ لا يحتاج قرارات ودروس جماعية كهذه، هو شيء عفوي لن تفلح فيه الخطط التافهة فقط يجب أن يكون الشخص تحت شروط السّعادة غير ذلك لا.

***

ليل آخر منتظر، عقارب السّاعة تشير إلى الألم تماما إلّا نصف حياة وربع روح وفاجعة كاملة، في هذه اللّحظات عندما همّ كلّ إلى فراشه، في هذا الكمّ الهائل من السّكون، هناك صراخ مدوّي بداخلها يجوب طريقا مهجورا في ذلك القلب محاولا الخروج من غياهب الألم والانكسار.

لحظات يرجف القلم لكتابتها، يحاول الحفاظ على استقامته ولا يستطيع.

العاشـرة وخمـس وأربعـون دقيقـة، مـرّ اليـوم وحمـل أشـياءً حزينـة لا تذيعهـا نشـرة أخبـار القلـوب ولا تنشـرها صحيفـة الكبريـاء، لا نناقـش بهـا المـارون ولا تثرثـر بهـا علـى شـرفات الأفـواه، هـي أشـياء لا يمكـن قولهـا ولا الانتبـاه لهـا لكنّهـا مؤلمـة للغايـة، يحييهـا الليـل، ليظلـم كل مـا فينـا فتوهـج الذكـرى محاولـة إضـاءة العتمـة، فتحـرق الوسـائد بالدمـوع.

غدا عقد قرانه عليها بدلا منّي..

غدا زفاف تيم ولقاء..

شـاردة فـي الألـم غيـر مصدقـة تخالهـا كذبـة، لا، لا لـن أصـدق ذلـك، تـكاد تصـاب بالجنـون عندمـا صدمـت رودينـا بكارثـة غيـر منتظـرة، خبـر لـم تملـك لـه قـوى تلملـم مـا انكسـر...

"اللـه يتمّملـك بخيـر" ، "مبـارك يـا عريـس"، ومـا شـابه مـن تهانـيّ علـى صفحـة تيـم.

يبدو أن هناك خطأ، تردّد وهي ترتجف بكاءً

بعدهـا ومـن دون أن تفكّـر بعثـت لـه برسـالة كان جسـدها يرتعـش مـن عظـم الوقعة علـى قلبهـا، غيـر مصدقـة، مكذّبـة مـا رأت، بخانـة الرسـائل كتبـت: مبارك؟

كان الـردّ علـى الرسـالة كاف لدفـن قائمـة مـن الضحايـا، لهدمهـا مـرّات متتاليـة حيـن ردّ:

الله يبارك فيك، العاقبة لك

صرخـة قلـب كادت أن تـودي بهـا لـردّ بـارد كهـذا ودون أي مبـررات مسبقة ردّت:

أنـا أسألك، رجـاءً تيـم تكتـب.. وهـي تبكـي قهـرا.

لـم تسـتطع فهـم أيّ شـيء أظلمـت الدنيـا وكان لجامـا ربـط فمهـا لـم تنطـق بكلمـة واحـدة أخـرى، لـم تسـتطع حتـى ابتـلاع ريقهـا، أحسّـت باختنـاق شـديد ألقـى بجسـمها مغمـى عليـه..

أطـاح بهـا الانهيـار لحظتهـا، ليدفنهـا معزولـة بيـن دمـوع الإحسـاس بالغـدر لتسـتفيق مهـدّدة بالمـوت، أمسـكت هاتفهـا بعثـت برسـالة أخـرى بعـد: مـا الـذي يجـري تيـم؟ هـل حقّـا سـتتزوج؟

نعم.. أجاب مختصرا ثمّ أردف: سامحيني رودينا.

وأنـا تيـم؟ أنـا؟ تكـرّر بحرقـة: وأنـا، أنـا..؟ فعلا أنـت تمـزح.. قالـت بضحكـة تختنق وجعـا: إنهـا مزحـة، قـل إنّهـا كذلـك، لـمَ لا تـردّ؟ كيـف ومتى؟

أجاب ببضع كلمات: أنت.. إنسانة نادرة مثلك تستحق الأحسن...

تيم لا أملك شيئا من دونك، لا معنى للحياة دونك، رجاءً

يكفي، لن يتغير شيء ثمّ أقفل.

رجـاءً كانـت آخـر أحـرف قالتهـا بعـد صدمـة أغرقتهـا بالدمـوع، صفعـة لا تـدري مـن أيـن أتتهـا وكيـف هاجمتهـا

عقـد لسـانها بعـد مـا حـدث منتظـرة كل يـوم رنيـن هاتفهـا، رسـالة اعتـذار كان لهـا أمـل أن لا يتـم الزفـاف، تـداري مـا فـي القلـب مـن وجـع، تمشـي بنسـخة مـزورة. لقـد كان لهـا شـرف المحاولـة فـي الحفـاظ علـى حبّهـا وكانـت لـه نذالـة الرفـض... فتـح قلبهـا مراسـيم العـزاء، تبكـي حزنـا عليـه ذاك الحـبّ لتخنقهـا دمـوع الغـدر تـودّ لـو تهمـس فـي أذنـه.

أنـا آسـفة، واللّـه آسـفة، كنـت وفيّـة أكثـر ممّـا ينبغـي، لـن تسـتطع فعـل شـيء، ضمّـت يديهـا إلـى صدرهـا وهـي تشـعر بنبضـات قلبهـا، فمتـى تهـدأ وتسـتكين؟ "غالبـا الثقـة نسـتهلكها فـي المـكان الخطـأ، للأشـخاص الحقيـرة، فـلا نسـتطيع اسـترجاعها"

لم تنم ليلتها

اليـوم، صبـاح بائـس بالنسـبة لرودينـا، وأجمـل الصباحـات بالنسـبة للقـاء وربّمـا أيضـا لتيـم، يـوم زفافـه، قـد يكـون حقّـق حلمـه فـي السـعادة بجانـب غيرهـا وقـد حققـت هـي النـدم فـي البقـاء محبوسـة الألـم الـذي قـد يكـون طريقهـا للمـوت بمـرض اسـمه تيـم.

ماسورة الوجع، محبوسة الأنفاس هكذا ستكون بقية الأيّـام، قلبها ينادي:

لا، لا، لا تراجع تيم أرجوك..

فـي الضفـة الأخـرى مـن الحيـاة تيـم سـعيد لا يأبـه أبـدا، بالتأكيـد لـن يتذكّرهـا فـي هكـذا يـوم.

مصدومـة وقـد مضـى تيـم علـى نهايتهـا ونهايـة لزوميّتهـا فـي حياتـه، مضـى وختـم وانتهـت آمالهـا، لا أمـل بعـد الآن ولا جـدوى مـن الانتظـار، لكـن كيـف؟ كيـف سـتطبق ذلـك؟ كيـف سـتقنع قلبهـا وتقتلـع جـذوره هنـاك مـن شـرايينها؟ بعدمـا كانـت التّربـة خصبـة ولـم تسـقها سـوى دمـوع اللّهفـة والشّـوق.

السـاعة العاشـرة ليـلا، انهـارت رودينـا، أصابتهـا آلام ببطنهـا، باتـت لا تسـتطيع الحركـة لا قـدرة لهـا علـى الوقـوف، تـكاد تخـرج روحهـا مـن فـرط الانهيـار، نفسـيتها أثـرت بشـكل كبيـر علـى صحتهـا نحـو الأسـوأ تريـد الصّـراخ بأعلـى صـوت وتحـاول إخفـاءه ومـا بيـن ذلـك وذاك شـعور بالخنقـة.

أمضت رودينـا أيامـا تحـت تأثيـر الصّدمـة بينمـا تظـل تداهمهـا الدمـوع وتتظاهـر بعدم الاكتـراث، كانـت كلّمـا جلسـت وحيـدة بكـت وانقهـرت..

"لن ينتهي ذلك الحبّ لكن الفراق سيدوم للأبد"

"لا أحد يسألني ما بك؟

فلا طاقة لي للإجابة على أسئلة تزيد من عمق ما أشعر به.

بالمختصر..

فـي تلـك اللّيلـة، لـم أسـتطع النّـوم، ظلّـت الصّدمـة مـن حـبّ معطـوب الوفـاء تثقـل علـى صـدري، سـرت بحـزن فـي جـوف اللّيـل العقيـم، انتظـر اللاشـيء، كان علـيّ أن لا أتكـئ عـل وعـود كتبـت علـى شـاطئ تعبـث بـه أمـواج لا تؤتمـن، كان علـيّ فعل أيّ شـيء يطـلّ علـى رعـب الخيبـة بـدلا مـن دفـن رأسـي تحـت وسـادة النّـدم. انطفـأ المزيـد منّـي، كان علـيّ بـذل جهـد الانسـحاب لا المجازفـة وتحمّـل نـار تتسـرّب فـي كلّ جـزء مـن الـرّوح."

رودينا

مرّت أيّام ثقال..

حاربت كثيرا وفي النهاية كانت المتأذي الوحيد...

كانـت تشـرق الشـمس بهـا فتعلـن السـلام، أيـام منطفئـة تمضيهـا غـاب فيهـا ضـوء رودينـا، تنتظـر انتهـاء اليـوم، يـوم يمـرّ وآخـر متشـابهات، متعبـة جـدّا، تتحـرّى فقـط وقـت النّـوم ولا تنـام.

أصبحت لا تهتم لشيء، وجه شاحب، خصلات شعرها صارت تلملمها، تميل لكل ما هو أسود، أتى خريف عيناها وأسقطت الدموع بعضا من رموشها، تضع نظارتها فالضباب أصاب صفاءهما، ابتسامة مصطنعة تداري جرحا لا تظهره، كانت كلّما تعالت ضحكاتها سمعت قلبها يئن لتعيدها الغصّة فتمتزج الضحكة بالاستسلام للوجع، للدمعة مجددا، للقنوط، لكن رغم كلّ هذا هي جميلة، جميلة جدا كوردة لم يأتِ ربيعها فاختارت أن تأتي وحيدة في خريف كاذب.

كانت ضائعة كطفلة فقدت أمّها في وسط الزحام في ذلك الجوّ الكئيب.

ظلت طريحة بعد الصدمة، بعد مقاومة طويلة تملّكها الاكتئاب، اجتاح كل جوانبها واحتلها من رأسها حتى قدميها، تسلّل إلى كل خلاياها واستوطن روحها فانطفأت ورفعت الرّاية البيضاء وأعلنت هزيمتها، فمنذ هاجمها لأوّل مرة وهي تعلم أنها أصبحت عرضة لهجوماته المباغتة، المستمرة وغير المبررة في كل وقت وأنّه لن يتركها تعيش بسلام فذلك اللّعين كأنه يدسّ لنفسه مدافن سريّة فيتسلل من خلالها إليها، كانت تحارب وحيدة بمناعة مستهلكة بعد معركة عشقية أهلكتها، خذلها من ظنته يستحق، انسحب وتركها بلا دعائم نفسية ليكتب اسمه في زمرة الراحلين بلا أسباب، ويكتب اسمها في زمرة ضحايا الكذب.

يمرّ اليوم والروتين ذاته وكلّنا بخير كذبة لا نقصدها عجزا عن التعبير بما بداخلنا من تهشّمات تركها العابرون، وعندما يكون الوجع كبيرا تتجرأ علينا ابسط الأمور لنهرب للنّوم.

"بذلـت الكثيـر مـن أجلـك، لكنّـك بالنهايـة آذيتنـي، تركـت كلّ شـيء مبهمـا لحظـة ذهابـك، كنـت بعيـدا فـي أشـدّ انكسـاري والشـيء الموجـع ليـس ذلـك إنّمـا كونـك السـبب فيـه، مـا أريـده الآن هـو أن أنقـذ نفسـي منـك، أقنعهـا أنّـك لا تسـتحقّني، أن أرسـمك بالوجـه المظلـم فـي مخيّلتـي.

اليـوم صنفتـك فـي صـدارة حماقاتـي المرتكبـة، فمـا أنـت سـوى خطيئـة ارتكبتهـا دون درايـة، لا أعـرف طريقـا للتّوبـة منهـا بعـد، لكـن سأشـفى منـك لا محالـة، سـأنتزعك مثلمـا فعلـت،

سأنساك يوما وأقتلك بداخلي..

لا تأتي أبدا

ساعدني أنساك"

(من خواطر رودينا)

تبّا للرسائل

"لا بأس انتظر..

سـتضطر لكرههـم ومحوهـم مـن ذاكرتـك بمجـرّد وصـول تلـك الرّسـالة القاسـية، سـتدرك بعـد قراءتهـا معنـى الكرامـة التـي أعمـاك عـن حفظهـا ذلـك الحـبّ اللّعيـن"

ستصلك الحروف مشكّلة بأفعال توقع بك أرضا..

وقعت؟

الآن انهـض وانفـض غبـار الإهانـة ضمّـه إلـى بقايـا مشـاعرك وارمِ بـه بعيـدا بيـن ذلـك الدّمـار ببلـدك فـلا فـرق بيـن القلـب والوطـن علّهمـا يتّحـدان فينتصـران علـى الخـراب.

فالقانـون يقـول مـا الحـبّ إلاّ للحبيـب الأوفـى، لا الأول الـذي يأتـي صدفـة ولا آخـره الـذي قـد يأتـي بعـد سـابق إصـرار وترصّـد.

ومـن يفكّـر بخسـارتك، سـاعده وارفـع ثمـن الضريبـة وكـن أنـت مـن مالـك الختـم والإمضـاء فمـا أنـت بخاسـر.

فـي الجـزء الأخيـر مـن نسـيانه، أو بالأحـرى فـي النّقطـة الأخيـرة العالقـة كنهايـة راسـب، لا تهتـم لـم تعـد تتفقـد هاتفهـا كمـا كانـت، مـا مـن رسـالة تنتظـر وإن أتـت فاللّعنـة عليهـا.

مـرّت أربـع أشـهر والبارحـة يـوم ميلادهـا، تطفـئ شـمعة أخـرى تلقّـت الكثيـر مـن المعايـدات، لكـن مـرّ اليـوم عليهـا وكأنـه لا شـيء فغيـاب تيـم هـذه المـرّة أحـدث حطامـا، كانـت أربـع وعشـرون سـاعة عاديـة، لا عيـد ميـلاد ولا فرحـة ولا شـيء، روتيـن كباقـي الأيّـــام، مـن العمـل إلـى البيـت ونـوم دون إغمـاض جفـن، تُحسـن الأيّـام خياطـة ذلـك الجـرح ولا دواء فـي الصّيدليـات يعالـج الوضـع.

تمـادت السـاعة فـي إكمـال دقائقهـا، تتمـرّد الأرواح بعـد طـول فـراق لتسـتدير بوصلـة الذكـرى نحـو موقـع الإصابـة.

السـاعة الثانيـة عشر منتصف الليـل، يـوم عـاديّ بالنسـبة لتيـم، لـم يكـن لـه أيّ معنـى عكس مـا تكنّـه هـي ليـوم ولادتـه أو أنّـهـا تتمـادى فـي جعـل لبعض الأيّـام قدسـية هـذا مـا كانـت تعتقـده

"ليتـه أتـى متأخّـرا لكنّـه لـم يـأت، ليت الزمـن يعيدنـا للـوراء لنتجاهـل كلّ مـا كان يزعـج راحتنـا، وكلّ الأشـخاص الذيـن سـبقونا لذلـك"

صـورة ذلـك العـازف الحزيـن تلـك التـي صنفـت كأكثـر اللّقطـات إثـارة للمشـاعر فـي التاريـخ الحديـث للبرازيلـي ديـكـو فـرازاو توكاتـو الـذي تسـاقطت دموعـه وهـو يعـزف فـي جنـازة معلّمـه مقطوعتـه المفضّلـة الـذي أنقـذه مـن بيئـة الفقـر والإجـرام، تشـبه تمامـا دمـوع رودينـا التـي ذرفتهـا حيـن زفّـت أيامهـا لأخـرى وهـي تعـزف بداخلهـا غصّـة الحسـرة فـي جنـازة الثّقـة العميـاء وسـخرية الحـبّ الـذي أودى بهـا فـي بئـر التّعاسـة .

فارقهـا الفـرح لتصبـح أحـد النّـزلاء بسـجن الفـراق، لتكتـب لهـا الإصابـة بالشـلل لا تسـتطيع الوقـوف أمـام واقـع تتجـرع فيـه الآلام عاجـزة خلـف مرارتـه نتيجـة نصيـب مقـدّر.

لـم يكـن لهـا جـرم ولـم تنتهـك قانونـا ولا عرفـا، ولـم تخطـط يومـا أن تقضـي محكوميـة فـي حيـاة ينمـو علـى حوافهـا العـذاب.

كقضيـة منسـية، ذاك الحـبّ، ضاعـت بـه سـنوات مـن العمـر وأحالهـا إلـى حبـس ينتـج مكمـلات نفسـية تحفـز الشـيخوخة المبكـرة لتصبـح الـروح محكـوم عليهـا بالأحـزان والبـؤس والهمـوم.

دموع تمكث في غرف الندم وأخرى حكم عليها أن تنزل قهرا بتهمة خطأ.

تتمـزق أحشـاء وتعلـى صيحـات مسـتعصية، حيـن يصبـح النـدم ثانـي غلطـة يقترفهـا المحـبّ حيـن يـزجّ بـه داخـل عنابـر الوحشـة، مـا حـال مـن لا ذنـب لـه حيـن أصـر الحكـم علـى ظلمـه ليعدمـه اليـأس دون إنصـاف علـى مشـنقة لا ترحـم، تتقـن التعذيـب المتدفـق لا تتقـن الشـنق والقتـل مـرة واحـدة ليكتـب اسـمه فـي زمـرة ضحايـا ظلـم الحـبّ ببـراءة تامـة.

اسـتطاع الفـراق تشـييد أسـوار علـى مسـاحات شاسـعة مـن القلـب تلقـى داخلهـا سـنوات مـن العمـر لتمـرّ عجافـا، محرومـة مـن طعـم الحيـاة، تـزرع الضيـاع فـي نفـس مهزومـة تأبـى الدنيـا الوقـوف بصفهـا، تعلـن فيهـا الأيـام غدرهـا وترسـم تفاصيلهـا المريـرة لتصنـع حائـط حـزن لقصـص مهجـورة، لنفـوس تملكهـا الشـعور بالإهانـة لـم تسـتطع التعـود علـى حيـاة بيـن أشـرس أنـواع العزلـة والوجـع والوحـدة، فـي حيـن عجـز الحـبّ علـى بنـاء رقعـة تطـل عليهـا شـمس التمسـك، لا تحتـاج إلـى بـذل مشـاعر تضاهـي النّهايـات.

"ابتعدي"

"إيّاك أن تبعثي برسالة أو تتّصلي.."

الأمـر مـؤذٍ، كلمـات موجعـات أرسـلها تيـم، كانـت سـببا ليشـعر قلبهـا بالعـار، فـي حيـن انتظـرت شـيئا أرحـم مـن هـذا، يصعـب شـرح ذلـك، لأنّـه ألـم يصعـب الاعتنـاء بـه كـي يخـف، تجاهـل ذلـك قـد يسـتغرق وقتـا كبيـرا وقـد لا يسـع أبـدا.

"لا نريـد منـك سـوى الوقـت" عندمـا يطبطـب النّسـيان علـى الجـروح حيـن تداهمهـا الذّكريـات، هـل كانـت كلماتـه بتلـك القسـوة؟

تمضي سنة على ذلك اليوم، يعود الشّتاء فيتراكم الحنين ليحيي ما كاد يذبل ويموت، توقّفت الأمطار في الخارج، حينها أوصدت باب الغرفة وجلست تفكّر: عام كامل من الفراق، أليس كاف لمراجعة القلب؟ كانت تعلم في قرارة نفسها أنّه لا مجال للرجوع أبدا، لكن كانت تتعمّد اختراق فؤادها، لتترك العنان لدموعها وتنفّس عن غصّتها، ليتها تقوى على إنهاء تلك المهزلة الّتي كانت تشتّت روحها، لم تستطع تجاهل وقاحة ذلك الوجع الذي ظلّ يعبث بها ومن دون أن تشعر كانت تبدو مجنونة حين تنفرد، تعتقد أنّها قوية لكن الضعف كان يحطّم مناعتها.

لم تكن جرعات الزمن كافية لعلاج نفسيّتها، ما مضى أثّر عليها اليوم فتركت عملها بالصّيدلية بعدما رمقتها صاحبتها مرّة بنظرة طويلة قائلة:

تبدين غير مهتمّة بالعمل، لماذا تأتين إذا؟

أصبح الشيء القليل من الوقاحة يستفزّها، لم تعد تتحمّل المزيد، حينها ابتسمت رودينا في مرارة ولم تجب، لكن ما إن استمرّ الوضع كذلك ظلّت في كلّ يوم تداوم فيه تتعمّد ترقّب أخطائها، وفي آخر مرّة تمالكت نفسها وحاولت التّجاهل وقالت في برود:

سأتمّ كلّ العمل كيفما يجب، لا تقلقي..

حينها كانت تريد الانتهاء بسرعة والعودة إلى البيت.

تنتهي صلاحيّتك بانتهاء مصالحهم، لا شكّ أنّ الكثير يرهق نفسه بالعمل، بالنّهاية لا يحظى بشيء من التّقدير، لا تفكّر قطّ وغادرت مقتنعة بعدم العودة.

مع مرور الوقت أصبح التّعب يهدّد صحتها، منظرها يدلّ على أنّها تقاوم شيئا مريرا، لازمها الضّيق طيلة تلك الفترة، كان الزّحام شديدا على رصيف أيّامها، عطّل رجوعها لنفسها مجدّدا، باتت تخاف من الذّهاب إليها.

فـي ليلـة شـعرت برجفـة سـرت فـي أوصالهـا، وضعـت رأسـها علـى الوسـادة فسـالت دمعـة علـى امتـداد وجنتهـا، تـذرف المزيـد، لا زال كلّ شـيء يعنّفهـا حيـن أدركـت ولادة بنـت لتيـم ، "روزيـن" كان اسـمها.

هكـذا هـي الأقـدار تضعنـا فـي مواقـف صعبـة لا نجتازهـا سـوى وقـد تركنـا شـيئا مـن أرواحنـا فـي ذاك المـكان، اسـتفرغت دموعهـا وأغمضـت عينيهـا، تقـاوم ميلهـا للسـقوط ثانيـة، كانـت كذبـة بشـعة، مـا عاشـته كان أسـوأ مـن كلّ شـيء، كانـت تتنفّـس ببـطء وتتنهّـد بإنهـاك.

"حظّي..

أريد أن أكتب لك على انفراد..

رجاءً لا تخبر شامتا بي أنّك سيّء

فذاك الشّامت لا يعرف أني أؤمن بالقدر لا بك."

قد تصبح لدينا القدرة على جعل المساء شديد الحزن،

وقد يصبح بإمكاننا قتل بهجة الصباح بكلمة واحدة، فيتحاشانا الجميع هربا حفاظا على سعادتهم

بعذر أننا تغيرنا وتمادى فينا الشعور

كأنه لم يكن فينا يوما..

ذلك الذي كان موجودا دائما، مكتوما ينخر عظام الصدر

ولا شيء تغير سوى أنّ مساحات الكتمان أضحت مستعمرة

انتهكت فيها الأوجاع أغلب جوانب الروح، اختنق بها الصمت واحتاج لكلمات تسعفه، فسمي فرط شعور حين نطق بعد أن ادّعى البكم سنين، رغم أنّه يحسن لغة الكلمات

أنت الذي اعتدت على التحمل...

اعتاد الناس على كونك أبكم المعاناة

البوح جريمة ضحايا الكتمان المفرط، معتنقي الصّمت، زاهدي الثرثرة..

ما فائدة الاعتراف بالاحتياج، لا حاجة للشكوى والعتاب..

مادام الجهر بالضعف لن يفيد بل أصبح يشكل ضغطا يسارع في استحضار بوادر الغصة، أكثر من تلك المعهودة عند محاولة الكبت.

مرهق جدا إخفاء ما نشعر به، لكن ليس سهلا أبدا إبداءه.

فلا أحد يستطيع استيعاب آلامك، في زمن فيه البوح أشد إيذاءً.

ستكتشف في النّهاية أنّ نتيجة البوح أسوأ بكثير من الكتمان.

وإن داهمتك لحظة فضفضة لا تخبر أحدا بكلّ تلك المشاعر الساكنة فيك، وتلك الذكريات التي تطاردك وتتمنى رميها في مكان آمن، أحفظها بداخلك

واحـذر مـن الحديـث عليهـا سـتجد نفسـك ممزّقـا بيـن كرامتـك وبيـن إدراكك أن تفاصيـل مشـاعر ليتـك لـم تبـح بهـا.

لا أدري لمـاذا أحببتـه؟ لـم يكـن يذكرنـي فـي شـيء، عندمـا كنـت أخبـره أنّـي متعبـة كان الـردّ يسـتدعي أخـذ جرعـات متتاليـة مـن مخـدّر لتهدئـة أعصابـي.

ردّ بارد: سلامتك.

تبّـا لرسـائلي، ليتنـي لـم أعتـرف بضعفـي، انتظـرت ردّا يمنـح شـيئا مـن العـزاء علـى الأقـلّ.

"غادريه فالرّسائل لم تعد لك"

***

السّـاعة تقـارب منتصـف اللّيـل، كانـت سـتخلد للنّـوم بعدمـا انتهـت مـن قـراءة جـزء مـن القـرآن، وضعـت رأسـها علـى الوسـادة وراحـت تتهيّـأ للغفـوة بعيـدا عـن الصخـب شـعرت فجـأة بالعطـش، ذهبـت إلـى المطبـخ لتحضـر قنينـة مـاء وفـي طريقهـا أصابهـا دوار، أمسـكت بالحائـط ثـم انسـحبت للأسـفل لتجلـس علـى الأرض، ظلّـت كذلـك إلـى أن بـدأ الضّبـاب يتبـدّد مـن عينيهـا شـيئا فشـيئا، انتظـرت مـدّة قصيـرة ثـمّ دخلـت المطبـخ، جلسـت تشـرب ثـمّ بحثـت فـي الثّلاجـة شـيئا تأكلـه، توقّعـت أنّ ذلـك نتيجـة لعـدم الأكل بسـبب فقدانهـا الشّـهيّة منـذ مـدّة.

حتّـى الآن مـرّت سـاعة تجلـس لوحدهـا: لمـاذا أفسـدت كلّ شـيء تيـم؟ تمتمـت ذلـك فيمـا هـي تنهـض والدمـوع تسـيل مـن مقلتيهـا.

أسابيع أخرى..

مجدّدا.. تعاني من غثيان، تعب وإرهاق بسبب الحمّى، شعرت بالحزن على حالها، ليس من عادتها النّوم كثيرا، لاحظت زينب ذلك فدخلت غرفتها حين تجاوزت الساعة العاشرة صباحا، نظرت إليها بحنان ثمّ قالت:

لمَ لم تستيقظي بعد رودينا؟

بدت نائمة في زاويتها، لكن بعد سماعها تنادي عليها أدارت وجهها نحوها، بملامح شاحبة ردّت بتثاقل: لم أستطع أمّي، في اللّحظة ذاتها أسرعت ووضعت يدها على جبينها:

حرارتك مرتفعة حبيبتي، لست على ما يرام؟ ردّدت في خوف.

بوجه متشنّج أردفت: أعاني من إرهاق كالعادة، سأرتاح قليلا، سيمضي.

ألم أقل يجب عليك الفحص رودينا، ما هذا التواطؤ في حقّ نفسك؟ ثمّ أردفت:

حسنا، ابقي مضطجعة، أنت بحاجة للرّاحة.

كانت تضمّ بيديها الغطاء ولم تتلفّظ بأيّ كلمة علنا وفي سرها تهتف: إنّني ميتة، ثمّ على نحو مؤلم استدارت، أفلتته وغفت من جديد.

ثوان بعد، أحضرت زينب ثلجا لتنزل حرارتها، كانت تضعه على جبينها، تربت على يدها، بينما لم تستفق أثناء ذلك إلّا بعد ساعتين، غير أنّ الحمّى توازنت خلال دقائق.

في الغد، أحسّت أنّها بخير فراحت تتفحّص خزانة الملابس، رغم ذلك بدت منهكة وكأنّ كلّ شيء قد ترك أثرا قاسيا عليها.

بعدها ذهبت للفحص، بعد معرفة الأعراض طلب منها الطّبيب إجراء فحوصات كانت نتيجتها بعدها نقصا في نسبة الهيموغلوبين، استدعى تناول

أدوية فقر الدّم ممّا جعل حالتها مستقرّة.

إلى أين نمضي حين يدمن الحزن أضلعنا؟

فالبقاء فيه لن يحلّ شيئا.

كانت بخير هذه المرّة، في ذات الشهر تلقّت رسالة من أحد زميلات الجامعة، تحمل دعوة لإقامة معرض جماعيّ بالمشاركة مع طلبة كليّة الفنون بجامعة حلب، في أقلّ من ثانيتين أرسلت الموافقة، غالبا الفكرة كانت بالنسبة لها جيّدة، كان عليها أن تنشغل كي تنسلخ من عزلتها والعودة بنفسها إلى الوراء قبل أن تفقد تيم، قبل أن تعرف تجربة الموت.

"سهى.. ومنذ أن غادرنا ذلك البيت لم نتحدّث، لم تعد تأتي لزيارتي، في بداية الأمر انشغالي بمشاكلي جعلني أعجز عن التّواصل معها، لست أدري لمَ كانت تضايقي تصرّفاتها، لكن في الحقيقة كانت الوحيدة المتواجدة معي تلك الفترة بشيء قليل دائم، كنت أحسّ أنّ البوح لها أحيانا جريمة غير أنّها كانت تعالج ذلك بنسيانها لأحاديثي.." هذا ما قالته رودينا.

كانت ردود فعل سهى اتّجاه أوجاعها تستفزّها، لكن من حسن حظّها أنّها لا تركّز معها، كانت كبئر ترمي فيه بمتاعبها لتنعكس منها صوت يصرخ بدلا منها ثمّ يختفي، حساسيّة رودينا الزّائدة اتّجاه كلامها كانت تشعرها بالاستهزاء منها فتقيم ضجيجا بداخلها، لكن إدراكها أنّ ذلك عفويّ منها جعلها تتأقلم مع شخصيّتها.

مع الأيّام تلك القناعة ساعدتها بشكل كبير لإبقائها الوحيدة بجانبها.

على وشك النّسيان

أعتقد أن النسيان هو مطلب لا اعتبار له في قانون الذاكرة،

وقد يكون كل وقع في الحياة جزءا من أملاكها".

قـد يمـرّ بنـا الوقـت لنتناسـى لكـن مـا يعبـث بنـا أننـا لا نسـتطيع تغييـر لا الأيّـام ولا التّواريـخ ولا الأماكـن فـي خارطـة الذاكـرة، أيـن تتجمـع سـحابات الأشـياء لتحـاول بكائنـا مـن جديـد، فتعيـد خصوبـة الجـروح وتتكالـب الأحـزان ويفتـح بـاب الذكريـات الأليمـة علـى مصراعيـه ويلـف الحـزن حبالـه السـوداء علـى رقابنـا ليخنقنـا دون رحمـة.

حقيقـة "لا الأيـام تنسـى ولا نحـن نتناسـى، هنـاك أمـور تتوقـف ذاكرتنـا عندهـا عنـوة، فتأبـى المضـي قدمـا، وترفـض نفـض الذكريـات بسـلام" سـلمى الجابـري (رمـد الذاكـرة).

فـي كل مـرة تخبرنـا الذكريـات قيمـة خسـارتنا، بحجـم مـا كان لهـا مـن جمـال، بحجـم مـا تركتـه مـن سـمّ يدسّـه الحنيـن إليهـا ليعقـد الشـوق رباطـه حـول أعناقنـا يخنقنـا ولا تعـود هـي إلينـا لتنتشـلنا مـن أنفسـنا.

الذكرى..

كلّمـا مـرّ عليهـا الوقـت لا تسـتطيع سـقيانا بنفـس السـقيا فنذبـل، حقيقـة نذبـل بـكل مـا فينـا مـن قـوة ولا نسـتطيع تجاهلهـا ولا بأيدينـا محوهـا لأنهـا حفـرت وتغلغلـت بيـن سـطور حياتنـا، وضعـت بدايـات الحـروف ونهاياتهـا، خطّـت الفواصـل والنّقـاط بدقـة فكتبـت حكايـات حفظـت بيـن رفـوف الذاكـرة، ليلجـأ إليهـا القلـب مـن حيـن لحيـن، كلّمـا احتـاج ذلـك ليكمّـد جراحـه، بينمـا لا يشـكّ العالـم أبـدا مـن حولنـا أن الجـرح يـزداد بداخلنـا عمقـا.

فـي مثـل هـذا اليـوم والسـاعة وفـي كل دقيقـة وثانيـة مـن السـنة الماضيـة كان كل شـيء مختلـف والروتيـن الوحيـد الـذي لا يتغيـر هـو الاسـتماع لشـريط الذكـرى.

تعيدنـا الأيـام للخلـف، لذكريـات تأبـى أن تركنـا، تنتـزع منّـا حـق العيـش بسـلام.. ومحاولـة الهـروب منهـا هـو مجـرّد تكـرار للألـم والحنيـن.

الألـم الـذي اسـتطاع أن يكسـر كل جانـب منـا ليضيـع مـا يكفـي مـن الزمـن ولا يلتئـم، طالمـا تظـل الذكـرى تتمـرد، نصبـح عبئـا علينـا أرواحنـا، مـا يدفعنـا لطـرق أبـواب لعلهـا تفتـح لنصعـد سـلم النّسـيان، البعـض يصعـد درجـة البـكاء لينسـى، والبعـض يداريـه بضحكـة، وآخـر ينـام، يصمـت و يعتـزل الدنيـا، ومنّـا مـن يخـون لينسـى ليعلـو أسـوأ درجـات المحاولـة

أخبروا العقول أن القلوب لا تنسى.

مر العمر، ولم ننسَ...

لقـد تهالكـت أعمارنـا بحثـا عـن النسـيان، أضحـى داخلهـا متهشـم، فغيـاب الموجوديـن بداخلنـا، رائحـة الغائبيـن، نصيـب لـم يقـدّر، فـراق علـى غيـر اتفـاق، فقـدان مـن كان يصنـع أجمـل الذكريـات، أوجـاع مقيـدة وأفـراح تلاشـت جعلـت أيامنـا تمـوت كمـا تولـد.

مـا أصعـب صحـوة الذّاكـرة حيـن يسـاعدها التّاريـخ لتقبـض روح الأحيـاء وتبـث الحيـاة لـكل مـا مـات فينـا ليحتلنـا سـرب الماضـي وينهـش مـا تبقـى مـن تلـك الـروح، كيـف يمـرّ عيـد الأمّ علـى اليتيـم ومـا حجـم الألـم الـذي تكتمـه مـن تتمنـى الأمومـة ؟

ما حال فاقدي الحبّ؟

كيف هي أعياد الوحيدين؟

ما فائدة أعياد الاستقلال وداخلنا مستعمر؟

متـى تصـارع الجـذور الـرّكام وتعـود لتمطـر ياسـمينا بدمشـق وحلـب بالوريـد ويزهـر القلـب؟

نعانـي اضطهـاد الأحـداث كل مـرّة و كلمـا حاولنـا طـرق بـاب النّسـيان صـدّ عنّـا وغيّـرت أقفالـه، فـي حيـن تبقـى الذّكـرى تحفـظ الأماكـن عـن ظهـر قلـب.

فلـو كان قـرار النّسـيان فعليـا لاتخـذ كل منـا قـراره ووضـع يومـا لـه، ليذكـره ذات اليـوم بذكـرى ذلـك النسـيان.

لا مفرّ في مدينة الذّاكرة.

"الشيء الوحيد الذي لابدّ أن لا نسامحه هو ذاكرة القلب".

فـي مدرسـة الذّكريـات لا يأتـي النسـيان كامـلا، ومـا ظـل راسـخا فـي أذهاننـا مـن تلـك الـدروس التـي تركـت فينـا صـورا نحفظهـا كمـا نحفـظ أسـماءنا، تلـك الّتـي نـودّ التّخلـص منهـا هـي فـي الحقيقـة مـن أهـم الأشـياء التـي تنمّـي عقولنـا وتعطينـا نظـرة جديـدة للعالـم، لنفـرق بيـن الوفـيّ والخائـن، بيـن الصّديـق والعـدوّ بيـن الخطـأ والصّـواب.

علـى قـدر مـا تأتـي الذّكـرى لتصـب علـى الجـروح علـى قـدر مالهـا مـن قـدرة لبعـث الحيـاة للقلـوب مـن جديـد.

النسـيان لا يكتمـل أبـدا، فلـو مـات شـارب النسـيان لظـل فـي رأسـه شـيء مـن الذكريـات، تلـك النـدوب مصممـة علـى النضـال للبقـاء بداخلنـا.

لذلـك مـا تفرضـه أيامنـا هـو التعايـش مـع كذبـة النسـيان بيـن ذكـرى حـزن وأخـرى ترسـم الفـرح والشّـوق للأمـس.

تظل الذكريـات تغـازل تجاعيـد حياتنـا إلـى أن نفارقهـا للأبـد لنصبـح نحـن ذكـرى نرسـمها لمـن بعدنـا وكأنهـا الميـراث الـذي تسـاوى فيـه كل البشـر.

أولئـك الأشـخاص الذيـن حاولتـم جاهديـن سـنين لنسـيانهم، آسـفة لأنـي بكلماتـي هـذه قـد ذكّرتكـم بهـم..

***

تقول رودينا:

لـو مـرّ علـى قلبـي بعد أن أشـعل نـار الخيبـة بكلمـة اعتـذار صادقـة وعـذر يوقـف الحريـق بداخلـي لربّمـا كنـت قـد سـامحته ومضيـت، لكنّـه أبـى فتوالـت مواسـم الصّقيـع علـى قلبـي ولـم يشـعر، كنـت أظنّ أن الحـزن هـو الضريبـة التّـي أدفعهـا لكـي أسـترجع مـا فقدتـه، فكنـت أبالـغ فـي تسـديد ملاييـن الأقسـاط مـن الدمـع، إلـى أن أفلسـت روحـي، فقـدت نفسـي ولـم أسـترجعه.

تسـاءلت مـرارا مـاذا بعد؟؟ وقـد كان السـؤال يدمـي قلبـي، بمـا أجيـب؟ فقـد أخـذ مـا قبـل منّـي كلّ شـيء.

غـادر محطتهـا بـلا سـبب مقنـع وبـلا كلمـة أخيـرة تسـجلها فـي الذاكـرة لتشـعر أنّ تلـك العلاقـة لـم تكـن سـوى محطـة تافهـة لا تسـتحق حتـى تلويـح وداع وأن المسـاحات الشاسـعة مـن الاحتـرام والحـبّ لـم تكـن سـوى بقعـة لممارسـة كذبـة.

فتـح نوافـذ حكايـات الخـذلان والوحـدة ولـم يلتفـت حيـن أطلـق للغيـاب أقدامـه،

ليرحـل وقـت المطـر ووقـت البـرد والرعـد ليسـرق منهـا فرحـة الشـتاء بعدمـا نهـب مـن أيامهـا ليغـادر بصمـت الجبنـاء.

أصـر علـى تلـك النهايـة الصغيـرة دون الحـرص علـى وضـع زهـور النّهايـة علـى قبـر علاقـة كانـت تضـجّ بالحيـاة.

مرّت عدة أشهر على الفراق ولا يزال الشعور فظيعا..

في ليلة قديمة مثل هذه كنّا نتحدّث

ثـم ضـاع مـا تبقـى مـن أمـل، بـدأت تؤمـن أنّ ضحايـا الانتظـار لا يختلفـون عـن ضحايـا الحـرب، أحقـا لـم يعـد موجـودا؟

والله ما راهنت على شيء سواك

ردّني لنفسي

أريد العودة لي..

تدهـورت صحتهـا النفسـية والجسـدية بشـدّة بعـد تلـك اللّيلـة، وقضـت كلّ مـا بعدهـا طريحـة الاكتئـاب، تملّكهـا الصمـت والغربـة كمصـاب اسـتيقظ بعـد أيّـام مـن الصّدمـة كأن تكتشـف أنّ أقـرب النّـاس كان كذبـة.

اقشـعرّ بدنـي حيـن قـرأت مـا كتبـه أشـرف الخمايسـي فـي روايتـه منافـي الـرّب عبارتـه المؤثّـرة:

"لماذا يدفن الناس موتاهم، بأيّ قلب يدفن الناس أعزّ النّاس؟"

فعـلا... كيـف بأعـز النـاس لـو كان علـى قيـد الحـب، علـى قيـد الحيـاة، شـيء يضاهـي المـوت ببشـاعته حيـن نـرى شـخصا لا يسـتحق الانطفـاء قـد انطفـأ.

بعد أن حزمـت حقائـب الوجـع وشـدّت رباطهـا بالنسـيان لـم تسـتطع اسـتيعاب تلـك الخيبـة، كل يـوم تصحـو بنفـس الذّاكـرة، لـم يفلـح شـيء فـي إذابـة ذلـك الحنيـن المزمـن ولا فـي تعزيـة المصـاب الجلـل.

"أردت أن أسير خطوة نحو النسيان إلّا أنّ قبضة موجعة في صدري منعتني، تأبى الذّكرى تركي، تحاول جاهدة الالتفاف على عنقي، لم أدعُ الله يوما أن يهبني نسيانك، لا أستطيع ذلك" هتفت رودينا في أعماقها.

في تلك الليلة كانت السّاعة على الحائط تشير إلى العاشرة وتقريبا النصف ليلا، كان صوت دقّات عقارب الساعة واضحا يهمس للهدوء بكلّ ثانية، حينها بخطوات متثاقلة خرجت رودينا من المطبخ حاملة كوب شاي متّجهة نحو غرفتها حيث تنام معها أختيها، تحاول الدخول ببطء كي لا تحدث صوتا يوقظهما، كانتا نائمتان فقد انتهى يوم الإجازة الأسبوعية ويجب أن يرتاحا فغدا يوم دراسة، هي أيضا عند انتهاء موعدها مع الذكرى ستحاول النّوم ما استطاعت من السّاعات، جلست على فراشها تنتظر أن يبرد كوب الشاي السّاخن، بعد ثوانٍ قليلة نهضت واقتربت من مكتبها الموجود هناك على يمين الشّرفة، مكتب صغير وكرسي وعلى اليسار سرير مخصص لها وعلى الأرض فراش أين تنام الصغيرتين بجانب بعضهما.

بأعين تشبه في بريق شوقها تلك التي تنتظر رؤية أحدهم للمرة الأخيرة، فتحت الدرج الأخير أين تضع رسومات قد أنهتها قبل حوالي شهر، وبقية الأغراض مبعثرة تماما كما تركتها منذ ذلك اليوم، كل الصور تشير إلى نفس الملامح، وجه شاب يعلوه شعر كثيف مرتب، بلحية متناسقة، جبين متوسط العرض، أنف وعينان تضيف له الوسامة..

تمردت عيناها فنظرت إليها خلسة نظرات عتب احتال عليها الحزن، وضعت ما بيدها على الأرض وأخذتها جمعتها على يمينها فوق سطح المكتب، تاركة

واحدة كانت رسمة بالقلم الجاف يبدو أنها لم تكملها، استغرقت وقتا سارحة فيها، فجأة بأنامل مضطربة ونبضات غير ثابتة أمسكت القلم.. لابدّ أن تكون آخر الرسومات لتحرق هي وسابقاتها وتكون بداية النهاية.

تنهدت قائلة ظننته حبّا.. ظننت بك خيرا..

سأغادر غير آسفة على الرحيل منك فقط أجبرت على أن أحط أقدامي في أرض المنفى بعيدا عنك.

كم هي ثقيلة تلك الحقائب..

استدارت ناحية باب الرّحيل لتخرج فإذا بها تسمع حفيف تلك الأوراق هناك، هبت ريح كبرياء قوية أغلقت الباب أمامها حاولت فتحه دون جدوى، تساءلت ما السّبب؟

لن يفتح إلّا إذا وضعت للذي اخترق الضلوع نهاية صلاحية لا يشبه أبدا تاريخ ميلاده، فما عاد في القلب متسع للأذى.

تراجعت بضع خطوات مميتة بعيدا عن الحزن والفوضى، تجلس رودينا لتكتب شيئا، على ظهر تلك الصورة خطّت...(آخر رسالة).

لا خيار لها غيرها لابد من تسطير تلك الكلمات المركونة في حلقها قبل آن تودي بحياتها خنقا، كيف لرسالة أن تكون وسيلة أخيرة للتخلص من خيبة سنين!

"ثق بأنّ من تركك سيندم، وستكون أنت أجمل ذكرى بحياته
سيحاول إعادتها ولن يكون بمقدوره"

بجرعات لا تختلف في الألم كتبت:

الرّسالـــــــة الأخيـــرة

كيف لي أن أستيقظ في الصّباح لأواصل حياتي بشكل طبيعيّ؟ وكيف أتقن فنّ الاعتيادية للآلام؟ أسئلة طالما حاصرتني..

أتعلم كيف حالي؟ أو بالأحرى كيف كان؟

بعيدة جدّا عن كوني بخير

واليوم.. وبعد أن كانت أولى خواطري كما تعلم "رسالة حبّ" التي وحين كتبتها غلب عليها أسلوب التّمني، فيها لم أتمنّى شيئا سواك سيطر إيماني بالشعور من غير ندم ولم أحسب حسابا يوما لرسالة كهذه، الآن لن اكتب رسالة ثانية ثالثة أو رابعة فلتكن هذه الأخيرة وليس بعدها شيء اتخذت فيها أسلوبا جديدا في الأدب، أسلوب النزيف.

أضع هذه الكلمات بعد ثلاثمائة وخمس وستين يوما من النّوم المتقطّع، من غصّة قلب تشبه شعور نبيّ الله يعقوب لفقدان ابنه، قد تعادل من إحساس مريم حين أتت قومها.

مـاذا يقـول عـادة النّـاس فـي رسـائلهم الأخيـرة؟ كيـف يسـتطيعون ترتيـب الحـروف حيـن يودّعـون أشـخاصهم المفضّليـن؟ مـا الأبجديـة الّتـي تتحمّـل عنّـا كلمـات الـوداع؟ وداع أماكننـا الآمنـة ووجوهـا تفقههمـا عيـون الحـبّ.

اليـوم هـا هـي أمطـار الذكـرى تعـود بـي لتهديني ليلـة مـن ليالـي الحنيـن محملـة بالدّمـوع.. ليلـة حـزن زرعـت بقلبـي غصّـة أليمـة

ظلـت أفـكاري تشـغلني وندمـي يشـتتني، أمامـي أسـئلة حائـرة، أبحـث لهـا عـن إجابـات ترضينـي..

كيف بدأت؟

إلى أين انتهيت؟

أين الوعود؟

لماذا تركتني في طريق دون لائحات تدلني على راحتي؟

هـا أنـا أعـود إليهـا ليمسـك القلـم بيـدي ويناولنـي كلمـات أثقلـت مـا بداخلـي، عـدت إليهـا لعلهـا تكـون المنجيـة وتنتزعـك منّـي كمـا فعلـت دائمـا مـع أحزانـي السّـــابقة.

بوسعي أن أقضي عمري كلّه مسكونة بمثل هكذا أسئلة...

هل يغيب الغياب وتكون له نهاية؟

أم وحده الحبّ يبدع في النّهاية؟

لماذا لا يكون الفراق مستحيلا بدل اللّقاء؟؟

كيف تغيب الأشياء التي بدت وكأنها ستبقى للأبد؟

أعـود دائمـا لاحتضـان الحنيـن والنـوم فـي جحيـم الذكريـات وأطيـل النـدم علـى كل شـيء انتهـى.

أتدرك كم كان يلزمني من القوة لأتخلى عن أكثر أشيائي حبّا؟ لا أحد الآن يلحظ رجفة قلبي سواي..

كيف ألحقتني إلى هزيمة ساوت كل مشاعري بالأرض وجعلتني انقض هذا العهد.

من الصعب أن ترغم نفسك على النسيان وتختار الانتظار كأمل تأمل أن لا يخيب، الأمر أشبه بعدّاد يقذف الموت بكل دقّة.

لم يعد في القلب أماني، فقط حبّك هو ما كان يصنعها، لكن ها أنا أقف مبتورة الكلمات، لا أقوى على صياغة ما بي من وجع، لا أدري إن كانت العبارات قد غدرت بي، أتتخلّى عنّي هي كذلك؟

لطالما كانت تسعفني، تحتضنني وتهزّ على كتفيّ كي تخفّف آلامي، أم أنّ أمثالي وجدوا ليكتبوا حبّا لا فقدا؟

حسنا يجب أن أبدأ من جديد، سأحاول..

بعد أن أغلقت أبواب الفؤاد وألقيت نظرتك الأخيرة علي ورحلت، كان ذلك قاسيا جدّا.

أعلم أن الفراق أصبح آفة العصر، لماذا كان علينا تتبعها؟

لماذا لم ننجُ بأنفسنا منها؟ لماذا كان يجب أن أكتب كي أتعافى منك أو كان ينقص الأدب المزيد من الجروح؟ أكان ينقصه المزيد من الندوب ألم يكتفي بعد؟ بين يد المسعف والجرح لربّما نحتاج لمواساة..

دعني أكمل..

لماذا لم نكن استثناء؟ لن أخبرك أني ندمت لأنني أحببتك وأنّني ما كان أن أؤمن بالحبّ وأنّه لا أحد سيبقى لأحدٍ..

لـن أكتـب تلـك الجمـل المعتـادة فأنـا أشـمئزّ منهـا ولا أجيـد الإيمـان بهـا حتّـى، لـن أفعل مثلهـم وأنحـرف فـي دائـرة التكـرار مـن جديـد.

سـأحاول أن أكـون اسـتثنائية ككلّ مـرّة، بقامـوس جديـد سـأكتب شـيئا يليـق بـي..

لعلّـك تسـقط مـن قلبـي فـي ورقـة مـا، فـي قصيـدة مـا..

يا قاتلي..

آمنت أنّ كلّ ما فعلته كان يستحق مهما كلّفني ذلك

كنت أتلقّى الصّدمات

مع ذلك واصلت القتال

لأنّي آمنت بك

في النهاية أدركت أنّي اعتنقت حبّا لا مصير له.

فعلـت مـا بوسـعي كـي أدفـع هـذا الألـم بعيـدا لكـن كلّ يـوم اصحـوا وأجـده، تقلّصـت عـدد المـرّات الّتـي انهـض فيهـا وحـدي، أصبحـت أسـتيقظ بفعـل الضّـرورة علـى ضجيـج المنبّـه

تغيّرت اهتماماتي.

يهمنّـي الآن أن تـزول مـن داخلـي، هـذا الإنهـاك جعلنـي أبـذل جهـودا جبّـارة للحفـاظ علـى فكـرة وجـودي.

للمـرّة الأولـى أشـعر أنّـه لـم يعـد يهمّنـي وصـول رسـالة أو مكالمـة، لـم أعـد أنتظـر حدوث شـيء..

للمرّة الألف أنا أكذب..

أحتـاج لعنـاق وحيـد يوقـف الحـرب الطّاحنـة الّتـي أقودهـا داخـل نفسـي، معانقـة نفسـي القديمـة عناقـا يطبطـب علـى تعبـي، فنفسـي مدينـة وأنـت مديـن لـي جـدّا بأكثـر مـن اعتـذار.

أعرف أنّك لن تستطيع نسياني، لا أحد يستطيع نسيان شخص وهبه هذا الكمّ الهائل من الحبّ والاهتمام، لم ولن تجد مثله ما حييت، ستشعر بالنقص ولن يقدر قلبك على التغافل عن كل ما فعلته لك، ستعيش عاديا وستتذكرني في زحام يومك، لن يتكرر في حياتك أمثالي، لن تنسى مهما فعلت.

أقلت مدين باعتذار؟

عن أيّ اعتذار أتحدث؟ فتلك أعذار سخيفة.

آسفة فالعفو قد فاق المقدرة.

فعلت ذلك بعد أن نفذت محاولاتي واستسلمت لفكرة أنّني سقطت من قلبك وتجاوزتني، انتهينا حقّا.

"أحبّك" كنت أكتبها برعشة أحسّ بها قلبي وظلّت لا تهدأ ولا تتوقّف منذ اعترفت لك بحبّي لأوّل مرّة.

تلك.. لا أستطيع قولها الآن، الحزن أكبر، شعور الإدراك بالألم في كلّ مكان بجسدي "لم أعد أحبّك ولا تهمّني"

اليوم وقد أعلنت رحيلي عنك، لا تنتظر منّي رسالة في بريدك الوارد فلن تجبرني نسمة حنين متهوّرة مجددا على بعث كلمات أندم عليها حين تمرّ، لا أريد أن يؤلمني جوابك، سأضع لك الرّسالة في مكان ما، في رواية ما، فقد أيقنت أنّه

"ما نال القلب يوما مراده"

وثقت بك، صدّقتك وما الذي فعلته؟ آذيتني

خذ كلّ ذكرياتك وارحل، لا تعد، أنا فعلا أريد أن أنسى

أخيرا عندما تكمل قراءة رسالتي أتلفها، كما أتلفتك.

(رودينا)

بعد ساعات من السهر أنهت تلك الكلمات ويداها ترتجفان بشدة كان الخط يظهر تماما كمية الوجع، كانت ككتابة رسالة انتحار على بعد لحظات من الموت، كلمات متأرجحة غير ثابتة تتحاشى الاستقامة وبصمات دمع كانت كفيلة دون أن تضمّ أحرفا أن تقول كلّ شيء.

ساعة وربع بقيت لطلوع الفجر، أطفأت نور المكتب وانجرفت نحو فراشها هاوية كجثة نامت متعبة

استفاقت باكرا في الصباح، لا تستطيع مغادرة الفراش لأنها لم تنم حتّى ساعة متأخرة من اللّيل قامت بطيّ الورقة التي كتبت عليها وجعلتها بين دفاتر مهملات ومسحت دموعا رسمت منعرجات على وجنتيها علّها تصاب بنفحة من النسيان، لم تعبر عن أساها يوما يمنعها الكبرياء، لكن انطفائها كان واضحا جدا ومؤلما.

نظرت إلى نفسها في المرآة، ابتسمت قائلة..

ثمّ إن العفو لن يحصل والذنب لن يغتفر.

وإن كنت معصيتي

فحقّ لي النّدم على المعصية..

وذلك النّدم نؤجر عليه.

أخبروها أنّه كان مجرّد حلم وانتهى..

وبعض الأحلام تزورنا لتخبرنا أنها لن تتحقق..

فهل للحبّ مغفرة؟

الفرق بيننا وبينهم أنّنا أوفياء جدّا، وفي الوقت الذي يكتشفون الأمر يكون الوقت قد فات وأمضينا على ورقة النّسيان.

أسوأ تسعون يوما وليلة تمضيها رودينا بساعاتها وثوانيها، بشمسها حتى الغروب، بفوضى داخلية أحدثها لهيب الحزن وحقن بجرعات موجعة بالوريد، أنين قلب يعجز على النبض بشكل يليق بنقاوته.

اليوم تشرق الشمس من جديد، لتجفّ كل دمعة وتشهد على لحظات الوداع.

وداع الأعين للدموع

ووداع الروح للتنهيدات والانكسار والتهشم.

مغادرة طاولات الحنين، الشوق والعتاب..

طي صفحات الإهانة والتخلص من رواسب الحبّ.

استرجاع تكاليف الوفاء

نسيان بشاعة الأمس

وختام خامس الفصول(فاللي ضيعنا بالقصد مش هيلاقينا تاني بالصدفة).

ما ذنبنا حين تعلّقنا الحياة بشيء لا نستطيع امتلاكه؟ لمَ توهمنا بواقع لا يكون من نصيبنا؟ لمَ تجعلنا نبني أحلاما زائفة، فنهلك مشاعرنا وأجسامنا بتذكر أشياء توجعنا.

لماذا نحن نؤذي أنفسنا بأيدينا ولا نفكر هل سنتألم بعد خوض الحبّ في تلك العلاقة التي كلّما استعملنا فيها سلاحا جميلا ردّ علينا بعبارات وأفعال لا تخلو من جرح من الذين عند لقياهم جاؤوا بسعادة، فرحّب بهم القلب وبأيام معدودات تغيرت المعاملة وانقلبت الموازين وأصبحنا ندفع مقابل كل بسمة

ألـف دمعـة، ومقابـل بضـع سـعادة أكثـر مـن سـؤال

لماذا أدخلناهم واقعنا؟

لماذا أيها القلب أرغمتنا على أن نتبع خطواتك؟

لماذا وكيف وما الحيلة؟

هل أخطأ الحب في حقنا، أم نحن المذنبون؟

انتهى الانتظار وسقطت دمعة صغيرة من عينها

بينمـا هـي تحـادث نفسـها بذلـك، قاطعتهـا السـيّدة زينـب تدعوهـا لتنـاول فطـور الصّبـاح، انتبهـت رودينـا لصـوت أمهـا تنـادي.

سأنهض بعد قليل، تنهدت في ألم كبير، استدارت وعادت للنوم.

مـرّ وقـت ولـم تسـتيقظ، بعدهـا دخلـت زينـب الغرفـة كانـت التاسـعة صباحـا لتوقظهـا مـن جديـد، جذبـت سـتائر النافـذة فتسـلل الضـوء اسـتدارت فـي خمـول: جاءتها قائلة: صباح الخير أمّي، لا أدري كيف غفوت..

الحمـد للـه لـم يفتـك الوقـت، لذلـك تركتـك. ردّت الأمّ وهـي تربـت علـى كتفهـا الأيمـن.

ابتسمت رودينا في امتنان وقالت: يا لك من أمّ رائعة.

لـم يكـن الحـزن يبـدو يومـا عليهـا، كبريـاءها يقيّـده، لـم تتـرك لـه فرصـة القضـاء علـى ملامحهـا، كان كل مـن يراهـا بتلـك الضحكـة الدائمـة يحسـدها علـى سـعادتها ومـا وراء ذلـك أمـور جمّـة قاسـية.

خرجت رودينا من الغرفة بعد أن حضّرت نفسها للذّهاب لكلية الفنون الجميلة، ركنت حقيبتها بجانب مائدة المطبخ، جلست على الكرسي وأخذت تسكب القهوة، استنشقت الهواء القادم من شرفة المطبخ المطلّة على فناء البيت. "واو.. رائحة الياسمين عطرة" تلك الشجرة اليانعة في إحدى جوانب الفناء، أخذت وقتا تشرب فنجان القهوة إلى جانب قطعة من الخبز وعند خروجها أخذت تجمع الياسمين المتساقط على الأرض.

بدلوٍ صغير تأخذ من الماء الذي تصبّه النّافورة في الحوض الموجود في وسط راحة البيت تسقي به تربة شجرة الياسمين، وتلك الواردات التي التقطتها تلقي بها مبعثرة على سطح الحوض فتأخذ ماء وتزرع وردا فيبدو بحلّة بيضاء جميلة.

جلست على حائط الحوض تداعب يداها الماء، طاولة منخفضة صغيرة وأربع كراسٍ كانت موضوعة في جانبه على بعد مترين تقريبا، تحت الياسمينة، أين تجلس زينب غالبا تجهّز الغذاء أو للعشاء.

البيت الذي يعشن فيه لم يسكنه أحد منذ سنين وبقي على حاله لا يزوره أحد هو ملك لجدّة أمها، أحضرها له أخوها بعد انتهاء علاقتها بزوجها، وجدته كمعجزة أنقذتها من الشارع، منزل قديم في دمشق بثلاث غرف وساحة كبيرة، واحدة متهالكة فاستقرّين في الباقيتين، استطاعت أن تحتمي فيه وبناتها من كلّ ما يؤذيها، اهتمت بإرجاع الحياة إليه للاستقرار به.

السّاعة التاسعة والنّصف رودينا، حان موعد ذهابك.

نادتها أمّها بصوت عالٍ.

رفعت رودينا رأسها في دهشة: نعم

أزاحت الشعر المنسدل على كتفيها ليغطي كلّ ظهرها، أخذت تنسّق ملابسها، قبّلت أمّها كالعادة:

لا تقلقي لن أتأخّر، أليس كذلك؟

الله يوفقك ويحميك.

ردّدت بعد أن أقفلت الباب وراءها.

على وقع الأنشطة الّتي تنظّمها الكليّة كانت رودينا تملأ ساعات الصباح بالذهاب للمساعدة في التحضيرات للمعرض في العطلة الرّبيعية، أمّا باقي الأيّام تنظّم ساعات اليوم بين تدريس الصغار الهوّاة وبين رسم اللّوحات. بعد خروجها من البيت، مشت خطوات بأزقة الحيّ ثم ركبت الحافلة، كانت الحركة تسير على ما يرام مثلما في العادة بساعات الصبح، الوجهة ليست بعيدة وما هي إلا ربع ساعة ووصلت.

في الكليّة تسير نحو مكان التحضيرات بعد أن سألت الحارس على الباب، لم يحضر الجميع بعد، جلست في قاعة انتظار بالخارج وتضمّ يديها فوق ركبتيها تحرّك أصابعها في توتّر.

امتدّ نظرها هناك ولمحت شخصا تعرفه:

وأخيرا جاءت سهى ، الحمد لله لن أكون وحيدة هنا تفوّهت بهذه الكلمات وعلى شفتيها ابتسامة مشرقة

ابتسمت سهى في سرور قائلة:

كنت خائفة كذلك أن أجد نفسي غريبة وخاصة إن لم أجدك رودينا..

حسنا وهل سننتظر وقتا طويلا؟

أجابتها رودينا: لا أعلم بالضبط، لكن لا أعتقد ذلك، ما أعرفه أنّنا لن نندم على مشاركتنا.

اختـارت رودينـا إحـدى لوحاتهـا وهـي علـى درايـة علـى أنّهـا سـتكون بسـيطة بالنسـبة لمـن يراهـا ولكنّهـا ذات قيمـة بالنسـبة لهـا، وسـتكون هديّـة لشـخص مـا؛ فالأمـر كان محسـوما وسـتعمل كلّ مـا بوسـعها ليكـون لهـا حيّـز فـي معـرض اللّوحـات الجداريّـة.

سـألتها سـهى عـن نـوع اللّوحـة الّتـي ستشـارك بهـا تهرّبت قائلـة: لوحـة كغيرها.. لا أعـرف سـتعطينني رأيـك فيمـا بعـد، مـا يسـعدني هـو أن كلّ مـا ألقـي بـه علـى الـورق يشـبهني كلهـا تعبـر عـن جـزء منّـي.

بينمـا يتحدّثـان، فجـأة التفّتـا بحركـة واحـدة حيـن سـمعا صـوت مفتـاح البـاب هنـاك وإذا بـه أحـد منظمـي الحـدث، أسـتاذ وفنـان تشـكيلي كبيـر، قامتـا ليلقيـا عليـه التحيّـة، لـم تـدم سـوى بضـع ثـوان حتـى دخـل معظـم المشـاركين مرشـدا إيّاهـم الأسـتاذ نحـو القاعـة، كان اليـوم الأوّل للتحضيـر:

جلـس الفنّـان بعدمـا أنصـت الجميـع: سأشـرح لكـم طريقـة العمـل وسـأترككم تبدعـون.

كان النّقـاش حـول التنظيـم ونـوع اللّوحـات الّتـي سـتختار للمعـرض وتحديـد يـوم الإعـلان عـن العـرض، الإضـاءة وتزييـن الجـدار الداخلـي أيـن سـتعلّق الرسـومات. دامـت فتـرة التحضيـرات قرابـة الشـهر وفـي كلّ مـرّة كانـت تقـدّم رودينـا اهتمامهـا ولاحـظ الجميـع سـرعتها فـي إتمـام الأشـغال وتنظيمهـا الواضـح، لذلـك كان الأصدقـاء يأخـذون برأيهـا فـي كل مـرة حـول طريقـة العمـل ويتركـون لهـا الفرصـة فـي الاطّـلاع لهـا بالكامـل.

الثانـي عشـر مـن شـهر أكتوبـر كانـت نهايـة الأشـغال وتـمّ تعليـق كلّ اللّوحـات فبـدا المعـرض رائعـا والمنظمـون سـعداء جـدا بشـكله النّهائي.

تغريدات على صفحة نسيان

رفقا بما تبقى من الـــذّاكرة..

تنسى كأنّك لم تكن..

أيستحق من كان وفاءه أزليا أن تقلب صفحته.

لا تفرط في العطاء ستنسى مهما فعلت.

جاءتني رسالة لم تكتب بالأحرف، رسالة بكماء كانت بمعنى "نسيتك" حتى عدم الردّ، ردّ.

لا تدع البدايات تبهرك، فقط انتظر النّهاية وحدثني عن شعورك

لايزال حكم الأيّام على أرضيّة النسيان يمنح فرصا للتّعادل.

لا أعتقد أن هناك أشياءً تمرّ وتنسى.

لطفا لا تحزني

"سامحيه يكفي أنّ امرأة مثلك تظلّ عالقة في رأسه كالذنب الذي لا يغتفر..
يكفي أنه يبحث بين النّســاء عن وجهك ولا يجده.. ويجنّ"

ماجد مقبل

✍ نكتب..

حين يرتشف القلم القهوة بدلا منّا

وحين تتذوق السطور طعم الأسى

وتنتشر رائحة الحنين لتظهر بوضوح بين زخات المطر

حين يضيع الياسمين تحت الركام.

ويتشابه الجزء الأوّل من الصّباح والجزء الأخير من المساء.

✍ نكتب..

للحبّ، للوطن، للسّعادة، للحزن

حين لا نجد من نخبره عنّا

حين ننكسر، نضعف ونتلاشى

من شدّة الفرح ومن اعتصار الألم

عندما يطرق الحبّ أبوابنا

يهزمنا الشّوق ويقتلنا الانتظار

حين نظلّ طريقنا وتسدّه الخيبة

لنعترف ونبوح، نبكي ونبتسم

حين تخوننا حتى الوسائد ويحنّ الحجر

نثرثر على الورق ففي السطور متسع لكل شعور

مرحبا هل تلاشى بكاء البارحة أم مازال قلبك يئن؟

كتبت الروائية الرائعة أحلام مستغانمي:

"عندما نفقد حبيبا نكتب قصيدة وعندما نفقد وطنا نكتب رواية"

كيف لو كانا الاثنين؟ لو فقدنا الحبيب والوطن، كيف وما حجم تلك الوقعة على القلب؟

من منّا يحب لحظات الفراق؟

لا أحد.. لكن كان علينا أن نحبّ الصدق الذي يملؤها فبالعادة تكون الأشياء الصادقة جميلة كيف أضحت موجعة؟

حين نغادر صديقا، نفارق حبيبا، نغير عملا، نسافر، نهجر وطنا، نغترب، يرحل عنّا عزيزا إلى الأبد، نذهب بعيدا عن كل شيء ألفناه والكثير الكثير، تلك الأيادي التي تلوّح بالوداع، أو تتمسك بمن يغادرنا غير قادرة على الفراق، تسقط أرضا وتصرخ ولا جدوى، تلك الدموع والقبلات ووحشة اللّحظات صادقة.. صادقة جدّا.

***

شهرين بعـــد..

"فراقك كان مخدّر لما يأتي بعده من آلام"

مضت أيّام وليال بعد أن كتبت رودينا رسالتها الأخيرة، اليوم أوّل أيّام المعر ض، نهضت باكرا، كانت الشّمس قد أشرقت وغزت بخيوطها نحو الغرفة، بعد أن تناولت فطور الصباح اتجهت نحو خزانة ملابسها، ارتدت أجمل ما لديها ووضعت بعضا من مساحيق التجميل، أسدلت شعرها، أحدثت نفسا عميقا وهي ترتّبه، زفرت بقوة ثم فتحت درج مكتبها بحثت عن تلك الـــرّسالة، ابتسمت ساخرة تمسكها لتمزّقها، ما كادت تفعل حتّى نادتها زينب، حينها تناولت حقيبة يدها وضعتها بداخلها ثم أطلّت برأسها من شرفة الغرفة وردّدت: قادمة، قادمة..

المسـافة إلـى المعـرض كانـت كبيـرة، تحتـاج أكثـر مـن أربـع سـاعات علـى الطّريـق، فـي حيـن خرجتـا مـن أزقـة الحـيّ الضيّقـة، أشـارت الأمّ إلـى أوّل سـيارة أجـرة مـرّت عليهـنّ، تقـدّم بهمـا السـائق بضـع أميـال ليقـف عنـد بيـت عمّهـا لأخـذ سـهى، فـي الطريـق أسـندت رأسـها علـى كتـف أمّهـا وتنهّـدت، بعدهـا شـردت تتتبّـع تفاصيـل الطريـق مـن النّافـذة الزجاجيـة، لكنّهـا بـدت مرتاحـة وكأنّهـا تجـدّد عقدهـا مـع الحيـاة مـرّة أخـرى، تتخـذ منحـى جديـد لابـدّ أن يكـون.

كان السّـــفر متعبـا وحيـن وصلـن المـكان، نزلـن ببـطء وتوجهـن نحـو صالـة العـرض تنقّلـن بيـن الحضـور واختـارت رودينـا الوقـوف أمـام لوحتهـا، سـعدت وهـي تـرى جـزءا مـن أحلامهـا يتجسّـد أمـام عينيهـا، مـا هـي إلّا لحظـات حتّـى لمحـت شـخصا تعرفـه، حيـن رأتـه اسـتدارت وقـد اسـتيقظت حواسّـها دفعـة واحدة.

إنّـه تيـم، لـم تصدّق مـا رأتـه تمعّنـت قليـلا حتـى اختفـت الابتسـامة مـن شـفتيها، لكـن جاهـدت لاسـترجاعها، فـي تلـك اللّحظـة كان التّوتـر علـى أشـدّه، تسـاءلت فـي نفسـها: كيـف؟ لابـدّ أنّ عينـاي تخطئـان، لـم تفهـم شـيئا وفيمـا هـي تسـتدير بانكسـار همسـت بداخلهـا: مـا الـذي يفعلـه هنـا؟ بينمـا كانـت كذلـك اسـتجمعت نفسـها، لاحظـت سـهى ذلـك وتوقعـت أن تراهـا تخـرج مغـادرة، لحقتهـا:

رودينا ما الأمر؟

لا شـيء، اختنـق صوتهـا بعبراتهـا تـكاد تبكـي لكـن تحـاول التّماسـك، ثـمّ أعقبـت قائلـة: كل شـيء بخيـر.

متأكدّة؟ سألت سهى محاولة أن لا تزيد الطين بلّة.

ثـم تراجعـت وعـادت نحـو الصّالـة، وقفـت بصعوبـة وتقدّمـت نحـو مـكان الحضـور بخطـوات متبعثـرة، تشـعر بـكلّ مـا مـرّ بهـا وأنفاسـها تـكاد تنقطـع، تخشـى أن تخذلهـا قدماهـا، لكنّهـا تكابـر لـن تريـه المزيـد مـن ضعفهـا.

استدارت في حركة حادّة، ببسمة نادرة بدت واثقة، لا تعطيه اهتماما كأنّها لم تره، استقالت منه، ذاك الذي جعلها تعيش أيّام الوحدة والألم لم يعد قادرا على تشويش مشاعرها.

دنت بخطواتها واحدة واحدة نحو لوحتها، تحاول تسليط الضوء عليها بقدر ما تستطيع بضحكة مشرقة؛ فالابتسامة قيل عنها أنّها تجارة رابحة لا تحتاج لرأس مال.

كان هو يحاول لفت انتباهها له، كيف لم تجر نحوه كعادتها، اكتفى بمحاولة يتيمة، لكن طوت كلّ شيء وانتهى.

فقدت حبّ الحياة وانتهى.

تتحدّث للحاضرين عن لوحتها التي تتحدث عن المرأة المعنّفة وفي كلّ مرّة كانت ترفع خصلات شعرها مكابرة كان تيم يتأفّف وهو يلاحظها، لا يبدو على ملامحها التأثّر وداخلها ينهش، يريد الاقتراب ولكنّه لا يملك الشجاعة لمواجهتها، فلا شيء يستطيع وصف ما في القلب اتجاهه.

لم تكن تدرك أنها ستصل إلى هذه المرحلة من القوّة، فقد كان تعلّقها به عميقا وكان يومها مجرّد سماع اسمه كافيا لاستمرار الحياة بداخلها.

كانت أكثر ثباتا، تنقلت نحو سهى وسألتها: هل رأيته؟

سهى مجيبة وهي تنظر إليها خائفة عليها: نعم رودينا

بعدَ ماذا جاء إلى هنا؟ لا بدّ أنّه لا يزال يحبّها أو على الأغلب دائما أحبّها، حين أجابتها سهى لبثت في مكانها ترمقها دون أن تتلفظّ بكلمة حينها كان صوتها قد تهدّج ومال إلى البكاء وهي تتساءل، لكن بقيت متماسكة إلى إن اختفى ولم يظهر، مررت بصرها فلاحظت أنّه ينصرف، استجمعت قوّتها

بسـرعة نحـو حقيبتهـا كانـت تمسـكها لهـا أمّهـا، سـارعت بأخـذ الرّسـالة منهـا، توجهـت نحـوه بخطـوات متسـارعة وهتفـت فـي لهفـة تخفيهـا:

تيم..

استدار نحوها مبتسما: رودينا، كان يبدو متودّدا.

سـادت بينهمـا لحظـة صمـت، بنظـرات تحضـن بعضهـا فـي شـوق، تمكّنـت حينهـا مـن إظهـار قوّتهـا أمامـه، تسـارعت دقّـات قلبهـا وهـي تمـدّ يدهـا باتجـاه يـده، أمسـكته ووضعـت الورقـة بهـا قائلـة:

كنـت سـألقي بهـا فـي المهمـلات لكـن سـمحت الفرصـة بإلقائهـا بيـدك، انتظرتـك طويـلا ولا تسـتحق، لـن أسـامحك بهـذه السّـهولة..

أنزل رأسه ولم يقل شيئا ثمّ أردفت:

تيم ما فعلته بي لن أنساه ما حييت.. تردّد وهي تمسح دموعا غافلتها

أخـذ وقتـا طويـلا متمهّـلا لقـول كلام يعلـم أنّهـا لـن تفهمـه ولـن تتقبّلـه، لـم يسـتطع التفـوّه بكلمـة وهـو ينظـر إليهـا نادمـا ثـمّ تحـدّث:

أنا أحببتك حقّا، أحببتك كما لن يحبّك أحد، لا تنسي ذلك رودينا.

عضـت علـى شـفتيها لتحبـس شـهقة كادت تفلـت منهـا، تعمّـدت أن تشـعره بالذنـب هـذه المـرّة، قـد انتهـى كل، شـيء و لـن تضعـف مـن جديـد مهمـا كان.

تمتمت في نفسها:

أليـس غريبـا، كأنّنـا ابتعدنـا كثيـرا وأيّ ابتعـاد يشـبه بشـاعة غربـة الـرّوح عـن الـرّوح..

كان يشـبهني وأشـبهه، مـا حاجتنـا اليـوم لقامـوس يشـرح مـوت شـعور كنّـا نتشـاركه، منـذ زمـن ونحـن نحتـرق، افترقنـا بلقـاء آخـر.

"اعتزلنا الدنيا ومازلنا نتأذى، بداخلنا بقايا انكسار تؤذينا أكثر"

***

كلّما زادت أعمارنا، يئسنا من الانتظار وزاد إحساسنا بقصر الأيام والزمن يمشي بسرعة، نتسابق معه، تسقط منّا أشياء تمنّيناها، نحتفظ بما تبقّى منّا، نضطرّ للتّعوّد ولا يعود لدينا وقت فراغ، يطغى الروتين وتتبعثر الأماني ولا نستحق أن تفلت منّا، تخوننا هي أيضا، وإن تمسّكنا بها عنوة نكون قد اخترنا طريقا صعبا.

تلك المكابرة تجرّعت من الخذلان حتى الثّمالة، تداركت بقاياها المحطّمة بعد فوات الأوان، أصبحت قويّة بضعفها، غامضة بصمتها، تبعثر فوضاها لوحدها وتجمعها، أكملت تجارب الحياة قبل سنّ قانونية، ولا أحد يصدّق حزنها ووجهها مزهر.

الأسود الذي ترتديه لم يعد له علاقة بحداد القلب، عادت نحو صالة العرض ومسحت دموعا جرت على وجنتيها، وقفت عند الباب قليلا وجالت ببصرها في أرجاء الحضور ثم دخلت بخطوات متثاقلة.

كانت صديقتها سهى وجميع المشاركين منهمكين في شرح لوحاتهم للحضور، أمعنت أمّها النظر فيها ثمّ قالت متعجّبة:

ما بك رودينا؟

وقفت بجانبها وأجابتها بارتباك: لا شيء أمّي.

بعـد أقـلّ مـن عشـر دقائـق مـن ذلـك عـاودت الخـروج مـن المـكان، تمشـي بنظراتهـا عسـاها تلمحـه فـي ركـن مـا، لمـرّة أخـرى تخـاف عليـه، فكّـرت للحظـة أن تذهـب إليـه ثـمّ تراجعـت، بعدهـا تابعـت عـرض لوحتهـا وكانـت تتلقّـى فـي كلّ مـرّة استحسـانا مـن الحضـور وفـي نفـس الوقـت تشـعر بالقلـق، شـعور مبهـم هـي نفسـها لا تـدري مـا هـو..

لربّمـا كانـت اللّحظـة تلـك هـي نفسـها التـي أدركـت تغيّـر نظرتهـا إلـى تيـم، هـي فاصلـة تعلـن بعدهـا مرورهـا إلـى مرحلـة بعـد النّهايـة.

"في النّهاية قد أخلفنا الوعد"

قـد يقتـل الرّجـل إتقـان التّجاهـل مـن امـرأة أحبتـه جـدّا لـم يعتقـد يومـا أن تفعـل ذلـك.

اليـوم الأول مـرّ وانقضـى والمعـرض مفتـوح لمـدة ثـلاث أيّـام متتاليّـة، كان الحضـور كبيـرا، ومختلفـة كانـت عناويـن اللّوحـات.

لوحـة رودينـا كانـت واضحـة جدا صـورة لامـرأة معنّفـة تحمـل صغيرتهـا وتضمّـه إلـى صدرهـا، تحمـل ملامـح السـيدة زينـب التـي كانـت مـن بيـن الحضـور وحيـن رأت أن ابنتهـا شـاركت بهـا لـم تسـتطع إخفـاء دمعتهـا كانـت اللّوحـة بعنـوان "أمّ برائحـة الـورد"

بعـد زينـب وبناتهـا إلـى البيـت سـعداء باليـوم الـذي مـرّ، بعـد أن ارتاحـوا وعلـى طاولـة العشـاء أظهـرت قمـر سـرورها:

أتمنّـى أن أصبـح رسـامة مثلـك رودينـا وأرسـم مثـل تلـك اللّـــوحات فـي المعرض، لكنّنـي لا أتقـن ذلـك.

فهي تبدو صعبة.

ضحكت الأم وقالت: ستتقنين ذلك مع الوقت.

انتهـى اليـوم وغدا يـوم آخـر سـتكون فقـط رودينـا حاضـرة وحـبّ كهـذا أم موهبـة .. هـي بالنسـبة للكثيـر مـن النّـاس "أشـياء ليتهـا تشـترى".

***

"محظوظ جدّا ذلك الذي يمتلك موهبة "

صبـاح آخـر والحـظّ الفضفـاض هـو مـا تتمنّـاه رودينـا للنجـاح فطالمـا كان حظهـا سـيء بقـدر جمالهـا أتمنّـى أن يكـون فـي صفّـي هـذه المـرّة، المـرّة التـي لـم أعـد أسـأل فيهـا الصّبـاح:

هل توجد رسائل لي؟

قالـت متمتمـة: تذكّـر تيـم أنّـك مـن أسـاء ونكـر وغـدر واعلـم أنّـك أخطـأت بحقّـي وأنـت وحـدك مـن خسـر.

تذكّر كنت أكبر خساراتك على الإطلاق وكنت أنت حزني الأعظم في الحياة.

"على خلاف الأحزان، السّعادة ليست متاحة للجميع."

مـرّت قرابـة خمسـة أشـهر علـى حصـول رودينـا المرتبـة الثانيـة بالمعرض، اليوم 24 مـن آذار (مـارس) وكانـت قـد قبـل أيّـام نشـأت اضطرابـات بالبلـد والحديـث كلّـه عـن السياسـة، احتجاجـات، اعتصامـات واعتقـالات وشـعارات، لوحـة أخـرى يجسّـدها الواقـع العربـيّ.

بينمـا كانـت الأمّ زينـب بالبيـت تحضّـر شـيئا لقهـوة المسـاء، السّـاعة تشـير إلـى الثّالثـة واثنـان وخمسـن دقيقـة بعـد الظهـر، صـوت سـيارة مرتفـع بالخـارج، وقفـت تتمعّـن مـن الـذي سـيأتي فـي هـذا الوقـت، أطفـأت الفـرن، مسـحت يديهـا بسـرعة ووضعـت علـى رأسـها خمـارا أبيضـا ومـرّت راكضـة نحـو الخـارج، شـقّت البـاب علـت وعلـى مرآهـا سـيارة إسـعاف، فتـح بابهـا الخلفـي ونزلـت رودينـا بينمـا كانـت تمسـكها إحـدى صديقاتهـا خوفـا أن تقـع، شـدّت علـى فمهـا خائفـة هاتفـة: يـا رب اسـتر يـا رب اسـتر ثـمّ خرجـت مسـرعة، احتضنـت ابنتهـا بقـوّة تـردّد قائلـة بصـوت مضطـرب تتملّكـه العبـرة: أنـت بخيـر، مـا بـك ابنتـي؟ مـا الـذي يحصل ؟

أخـذت تحمـد اللـه مـرات عديـدة علـى وصولهـا بخيـر ثـمّ أجابـت بتعـب: اهدئـي أمّـي لا يوجـد شـيء .

بلحظـات بعدهـا تمكنّـت مـن الوصـول لغرفتهـا والاسـتلقاء علـى السّـرير، بينمـا أخـذت تتسـاءل زينـب حاولـت النّهـوض بجهـد متّجهـة نحـو الخزانـة لتهـرب مـن الإجابـة، لا شـيء أمامهـا سـوى نظـرات والدتهـا ترمقهـا بخـوف.

لا تخافي ماما، لا يوجد ما هو مهم.

قالـت ذلـك بينمـا كانـت تبـدّل ملابسـها، أعـادت سـؤالها: تحدّثـي كيـف تـمّ نقلـك للمشـفى؟ لـمَ لـم تتّصلـي بـي؟ توقفـت عـن الـكلام هنيهـة ثـمّ أردفـت: رودينـا أخبرينـي.

كأنّ التعـب والإرهـاق عـاد مـن جديـد أجريـت الفحـص وكانـت التحاليـل تشـير إلـى.. ثـم توقّفـت عـن الـكلام، فـردّت الأمّ مضطربـة: مـاذا؟

المفتـرض أن يكـون تضخّـم فـي اللّوزتيـن، سـآخذ الأدويـة المناسـبة، وسـيكون كلّ شـيء بخيـر.

أجابـت بصـوت مطمئـن، حينهـا طلبـت منهـا أن ترتـاح، فقـد تضطـر كالعـادة لإخفاء مـا تشـعر بـه الآن فالمـوت ليـس قاسـيا كالعيـش فيـه، أن تضحـى الـرّوح شـهيدة آلامهـا وتدفـن فـي جسـد ضعيـف قـد لا يكـون منصفـا فـي حقّهـا، لكـن أحيانـا لا يكـون هنـاك منفـذ للهـروب ولا دليـل للرجـوع بهـا ولا خطّـة للبقـاء بعيـدا عنهـا.

إنّها الآلام.. إنّها جروح الرّوح.

كان التفكيـر يهلكهـا لـم تتخيّـل يومـا الـذي يحـدث، تـدور فـي دوّامـة لا تتوقّـف، شـتات وألـم وعجـز، طالمـا كانـت تنتظـره، تتابعـه، تراقبـه، تضيـق فـي غيابـه، تتألّـم لتجاهلـه، تـودّ لـو يطـرق بابهـا ليخبرهـا أنّـه لـم يكـن مزيّفـا وأنّـه لا يـزال علـى الوعـد، كانـت فـي كلّ مـرّة تحـاول الهـروب منـه تأخـذ طريقـا يتّجـه إليـه.. كلّ هـذا كان ينهشـها.

بعد حين فتحت الأمّ باب غرفتها في رفق حين سمعت سعالها، كانت غارقة في النوم وتزعجها نوبات ذلك السّعال، اقتربت دون صوت تأملتها ثمّ جلست على كرسيّ كان من الواضح على وجهها الخوف، كانت مضطربة للغاية، زفرت في قوّة بعد أن أصابتها غصّة مؤلمة على حال ابنتها، بقيت قليلا ثمّ انصرفت بخطوات حذرة بينما هي كذلك أغلقت النافذة بطريقها فقد كانت الرّياح المعبأة بالغبار تحدث صوتا بالخارج.

مرّ الوقت وصلوات الأم تذرف خوفا على سجادة الدّعاء، حينئذ استفاقت رودينا وقد كان السّاعة مغربا، أرادت طبع ابتسامة على وجهها أمامها، لكن كان كلّ شيء سيّئا لدرجة أفقدها الصّبر والأمل والرغبة، اختطفتها دموع انسابت حسرة على أجزاء جسد ركض فيها الألم في صمت بسبب تمرّد اليأس في ذلك الجزء الصّادق، دنت منها ثمّ تنفّست برفق وبدأت في الكلام، لم يعد باستطاعتها مواجهة الخوف لوحدها:

صرت أحسن بعدما ارتحت ثمّ أردفت: ظننت أنّها نزلة برد في البداية، أجابت الأمّ متسائلة في دهشة: ثمّ ماذا؟

قالت: أمّي، قبل بعد إجراء تحاليل الدم والأشعة اتّضح وجود كتلة في الرّقبة، لم أخبرك بذلك وبعدها راجعت الطبيب لأخذ عيّنة من الكتلة لإجراء فحوصات إضافيّة..

قاطعتها زينب وقد اتّسعت عيناها في دهشة: يا الله رودينا، ما الّذي تحاولين إخفاءه؟

لا بأس، ثمّ أكملت في توتّر: كانت النتيجة أنّ الورم خبيث.

صرخت زينب: ماذا؟

تقول نافية: لا أنت تمزحين، لم تتمالك نفسها فوقعت على الأرض تبكي.

حاولت أن تهدّئها، أخبرتها أنّها كانت تشعر بالخوف لكن إيمانها قلّل من حزنها، لكنّها لم تقاوم، قالت في قرارة نفسها بمرارة:

لمَ بنيّتي تعانين كلّ هذا لوحدك؟ ثمّ رفعت رأسها موجّهة نظراتها إليها، بابتسامة باهتة طلبت منها دخول المستشفى للعلاج.

بعد ثلاث أسابيع من دخول المستشفى، كانت وضعيّتها تسوء وكان من حولها يشعر بالتخوّف، في نهاية اليوم اتّصل خليل زميلها أيّام الجامعة بأمّها كي يطلب بعض الوثائق اللاّزمة لحجز موعد لها للعلاج بتركيا، في تلك اللّحظة التي رن فيها هاتفها تفاجأت بالمتّصل واستغربت وبينما هو يخبرها رسمت بسمة قد تخفي خيبة أمل، ارتبكت ثمّ كان عليها أن تأخذ قرارا مباشرا بالقبول في حين كان الوضع على محمل الجدّ.

طوال أيّام كانت تبكي وتبتهل بالدّعاء لرودينا، فمنذ تلك الصّدمة لم يغمض لها جفن والخوف يعصف بقلبها، الأمر سيتطلّب الكثير لكنّها تمضي لفعل كلّ شيء من أجل شفائها، بأيّام بعد أتت بنتها قائلة:

لقد انتهيت من التجهيزات، ردّت رودينا بصوت منخفض: ماذا أمّي، أيّ تجهيزات؟ ثمّ اتّسعت عينيها في دهشة بعدما أعلمتها بالأمر، استوت في مجلسها، شربت بعض الماء، تردّدت قليلا ثم تساءلت: كيف ومتى و..؟ قاطعتها أمها: رجاءً.. وضمّتها بشدّة بعدما رفضت، انتظرت إجابتها بعدما تناقشتا في الموضوع وفي النّهاية كان عليها الرضوخ لإلحاح أمّها.

***

فـي ذلـك اليـوم الّـذي تلقّـى فيـه تيـم اتّصـالا مـن خليـل، لـم تكـن لـه القـدرة علـى التحكّـم فـي وجعـه تلـك اللّحظـة، رمـى بهاتفـه بعيـدا وأفلـت مـن مضطجعـه، لـم يسـتطع فعـل شـيء سـوى التفكيـر، انقطعـت أنفاسـه واسـودّت الدّنيـا فـي عينيـه، ثـمّ تـرك البيـت بعـد افتعـال شـجار مـع لقـاء، خـرج والغضـب يمـلأ روحـه وراح يجـوب الشـوارع بأربيـل، يقـود بسـرعة، كثـور هائـج بعـد أن صفـع بالخبـر، كلّ مـا فكّـر بـه ذلـك الوقـت هـو عـدم البقـاء علـى قيـد الحيـاة.

أصابه الذعر والحسرة، يهتف بداخله:

"ماذا فعلت لك؟ كيف سأسامح نفسي.."

ثـمّ أردف بصـوت تتملّكـه العبـرة: "اشـتقت لـك بـكلّ مـا يحملـه العالـم مـن ألـم، الألـم الـذي أصبـح موطنـا لنفسـي وملجـأ لروحـي ولا هـروب منـه إلّا إليـه، وجعـك يحطّـم فـؤادي يـا حنانـي..

أعـرف مـدى حقارتـي وخذلانـي ذلـك اليـوم، صـوت ضميـري ظـلّ يصـرخ بعـد الاعتـداء علـى روحـك..

"ثـمّ توقّـف فـي إحـدى الأماكـن، كانـت السـاعة تجـاوزت منتصـف اللّيـل، حينهـا اتّصـل ولـم تـردّ، عـاود الاتّصـال مجـدّدا، كان يصـارع فكـرة أنّـه السّـبب، لـم يطمئـنّ قلبـه ولـم يرتـاح منـذ أن تركهـا، تمـرّدت يـده فبعـث برسـالة مطوّلـة بينمـا كان يحـسّ بـأرذل أوقـات النّـدم، كان تحمـل فـي أسـطرها:

"اشـتقت، ويـا ليـت كلماتـي تطفـئ القليـل مـن نـار قلبـي، اشـتقت لصوتـك، ضحكتـك وحتّـى صراخـك، لعنـادك، بكائـك، لشـجاراتنا القديمـة، غضبـك، اهتمامـك وغيرتـك..

لطلّتك عليّ بكلمة بعد يوم شاق، لابتسامتك التي تحتوي أحزاني، أحنّ لهداياك ونور عيناك، ما يقتلني أنّك لم تغادريني، أنت قطعة منّي، أنا اليوم لا ملجأ لي ولا يد تطبطب عليّ، أصابتني الرّعشة، قلبي يتفطر ولا أفكّر في شيء سوى تركه كلّه والعودة إليك، رحت أبكي واختبأ في حضن ندمي، معاناتك وقعت عليّ كصاعقة وها أنا لا أستطيع تحمّل نفسي، أنت تتألّمين لوحدك.."

طوال اللّيل بات ينتظر الردّ لكن..

انتهى وقت ترقّب الرّسائل..

ولا مجال للمزيد.

***

اليوم، هوت الأرواح على الأرض، بنظراتهما يبدوان غير مصدّقين أنّهما التقيا مجدّدا بعد فراق تجاوز السّنة، حينها أيقظ فيها جراحا كانت تودّ نسيانها، كان وداعا بلقاء أخير.

أيّام قليلة جدّا وعاد تيم إلى العراق، قضى اليوم الأوّل من ذلك نائما وبالغد أعاد قراءة الرّسالة بعدما ألقى نظرة عميقة على رسمة وجهه بالخلف، أصابه ما يكفيه عمرا من النّدم، حين أكمل بقي شاردا، أسند ظهره على الحائط، كان الإحساس بالرغبة في العودة لها جارفا بداخله، وراح يلملم أخطاءه وهو يبكي بصوت خافت:

مـاذا فعلـت بجوهرتـي؟ ثـمّ لاحـظ عـودة لقـاء إلـى البيـت، حينهـا خـرج مـن الغرفـة دافعـا البـاب بقـوّة، خـرج قليـلا ثـمّ عـاد، سـار إلـى الغرفـة مجـدّدا دون أن يرفـع رأسـه ، بعدهـا بلحظـات رفـع آذان العصـر، بقـي تيـم صامتـا طيلـة الوقـت، لكنّهـا لـم تسـأله عـن الموضـوع باعتقادهـا أنّـه منزعـج حيـن علـم أنّـم لـم يقـدّر لهـا إتمـام حملهـا بعـد أن فقدتـه بعـد شـهرين.

رغـم ذلـك كانـت فـي ريـب مـن ذلـك فقـد أظهـر ردّة فعـل طبيعيـة حيـال ذلـك قبـلا..

مـا زاد وتيـرة شـكّها حيـن أوصاهـا ولأوّل مـرّة بلهجـة حـادّة:

لا تدخلي الغرفة قبل أن تدقّي على الباب؟

أجابـت مرعوبـة: لـم؟ مـن فـرط قسـوته لحظتهـا سـحبت نظراتهـا وخطـت نحـو الصّالـة، لـم تفهـم سـبب مـا يفعلـه لكـن بالتّأكيـد سـتراقبه.

فبعـد سـفره إلـى محافظـة الموصـل كمـا أخبرهـا، مـا عـاد كمـا كان، لـم يخطـر علـى بالهـا أنّ الوجهـة كانـت دمشـق رودينا.

اغتاظـت وبقيـت تترقّبـه لأيّـام إلـى أن تجـاوز ذلـك وفـي يـوم بينمـا كانـت ترتشـف نصـف فنجـان قهـوة ن قدّمـت لـه الأكل بعـد عودتـه فـي وقـت متأخّـر مـن اللّيـل، جلسـا يتبـادلان أطـراف الحديـث، أخبرتـه أنّهـا حامـل مـن جديـد، أبتسـم بصعوبـة ثـمّ أنـزل رأسـه ولـم يقـل شـيئا، بعدهـا غـادر المطبـخ قبـل أن يكمـل عشـاءه يتحجّـج بالتّعـب.

أمّــــــــا بعـــد..

فإنّ الأمس كان كاذبا

كان ذلك الّذي بيني وبينه..

الملقّب حبّا

كان فاجعة القلب وعثرته القاسية

كان وهما..

يتطاول على قلوب وفيّة

كان ريحا تهبّ

لتهدّد بالعراء شظايا الرّوح

كان مسافة مرهقة..

وأمنية لا تملّ من ذرف المزيد من طاقة القلب

كان كذبة في أوّل سطر

من كتاب لا يقرأه أحد

مخبّأ في صندوق رثّ

أصبح مجرّد شيء مركون في مساحة غير آمنة

بزاوية ألجا إليها لأتعاطى كميّة من وجع الذّاكرة،

أسحب نفسي بقوّة في ختام النّدم

بملامح تفضح جغرافيا حكايا وقصص ..

لا ترغب برؤيتها المرآة

تتفحصها يداي وترفضها عيناي

بسمة مشلولة وبهجة عاجزة وشريط ضحكة لم يكتمل

كيف يستطيع الحزن إخفاء كلّ جميل

حقًا يجيد اللّعب على مساحات واسعة

لمَ لا يقف بجانبنا ويواسينا؟

قد يشتمون ذاك الملقّب حبًا

قد يربطونه بالخيبة والخذلان

لكنّه الشيء الوحيد الذي يشعرهم بالوجود

قد يرغب الكثير منّا

أن لا يكون عاديًا

هذه الصّفة قابلة للاستخدام في الحبّ.

أمّا قبل..

كنت أرغب بشيء يزعزع استقرار العتمة بداخلي

حبّ يليق بي.

لا أعود منه كما كنت

أخرج منه سليمة وأخبر العالم ومن حولي..

أنّ الحيّاة جميلة.

تماديت في التّمنّي

فابتسمت في وجهي الخيبة بسخرية

تحاول هزيمتي لتضيف لي خسارة أخرى في تقويم العمر

ليس من عادتي الهروب، أستطيع المخاطرة بما تبقّى منّي..

أستطيع الرّكض مبتورة وأنتفض

أصبت بخسارتين..

لا أحد في العالم يستطيع تحمّلها

ثقة متهالكة وروح تقف على الهاوية

من البداية..

كان عليّ أن أتحاشى النّظر إلى الحبّ.

بيني وبينك..

هناك طريقة أخرى للحياة..

بعيدا عنك

رحلت أنت ونضج القلب

أغلقت أبواب الفؤاد بهدوء

كنت في الانتظار

طالما حاولت اللّحاق بروحك

مغفّل أنت وللأسف..

جميع الأشياء الّتي رميتها أنت

كانت قطعا منّي

تذكّر ..

أنّها حاربت طويلا لتكون لك، لتجمعك

لا أعرف كيف كان باستطاعتك فعلها لكن..

ستكتب بدفترك يوما:

"كانت وحدها كافية بالقدر الذي لن أجد النسخة الأفضل"

تلك الأجزاء ستحوّلها للافتات لتبحث عنّي

ستضيع الطريق دائما

لا تعود الأشياء لقلبي

تلك الّتي غادرتني برضا

أبدو مثيرة للشفقة

الحقيقة، لن أخطو نحوك هذه المرّة

أصبحت شيئا لا يستدعي الاهتمام

أحتاج لشخص غيرك

كان الفراق شهيّا بالنسبة لك

بينما كان يحيكني الشّوق للقائك

اعتدت على مرور الجميع بعد..

مرورك

ندبتك تلك اتّسعت بها

ممرّات التّجاهل

أضاءت نفق الصّمت

وفتحت أبواب الرّحيل

تجرّعتك حدّ المرض

فبعثت في قلبي الخوف فكرة

الموت على معصية

لذا..

أعلنت التّـــــوبة منك.

(من خواطر رودينا)

لا أحد يستحقّ

"أطالب بإعادة صياغة جملة لا أحد يكره من كان يحب

واستبدالها ب:

كل اللّذين أحببناهم وخذلونا لا يستحقون حبّ

هنا فقط سيشعر المرء بالإنصاف"

قـد تدخـل الصّـدف علـى الأحـداث فتزيدهـا جمـالا، لكـن حظّنـا سـيء يبـدو أنّ الصّـدف تخطـئ بحقّنـا وتصبـح كل صدفـة صدمـة، فالدنيـا اليـوم مـع الواقـف كمـا يقـال، فالمجتمـع أصبـح قبيحـا بمـا يكفـي لتبصـم كل وقعـة منّـا علـى صحّـة المقولـة تلـك.

خانتنـا خيارتنـا وأصبحـت الأيّـام تتـرك فينـا كدمـات، توجعنـا وقـد لا نعـرف مصدرهـا فالـكل أصبـح ينتحـل مئـة قنـاع، نبصرهـا فـي كلّ جانـب منّـا، تتـرك أثـرا قـد لا يـزول، أيّـام ليتنـا نسـتطيع بتـر أصابـع تـدس بهـا الألـم، وتبعثـر صرخاتنـا المكبوتـة.

نتسـاءل كيـف اسـتطاعت الحيـاة أن تحصـر نفسـها بيـن أرقـام أيّـام معـدودة لـم نسـعد فيهـا وعشـناها مـرّة؟

كيـف لنـا أن نمـوت ولـم نصـل بعـد لمرحلـة الحيـاة؟ بحثـا عـن العيـش باغتنـا المـوت علـى قيـد الحيـاة، لتصبـح الحيـاة جريمـة نرتكبهـا عـن قصـد، فتمسـكنا مـن اليـد التـي توجعنـا.

تلـك الصفحـة التـي بحثنـا فيهـا عـن سـطر يسـعدنا ولـم نجـده طويناهـا برغبـة منّـا وانتهـت ومـا بـال تلـك الـتي وجدنـاه فيهـا وتمسـكنا بـه ولـم نكـن المقصوديـن فـي حروفـه؟ كيـف لنـا أن نطـوي سـعادتنا التـي باتـت تعاسـتنا، لا أملـك جوابـا غيـر هـذا:

لا تسـمحوا لصفحـة واحـدة أن تتحـوّل لقصّـة حيـاة ، لا تقفـوا عندهـا تعمّـدوا تجاهلهـا تعمّـدوا الخطـأ لكـن هـذه المـرّة ليـس فـي حـق أنفسـكم، لا تكرهـوا مـن أحببتـم فالـذي يسـتطيع الحـبّ محـال يعـرف الكـره لـذا اسـتبدلوا محبتهـم بمحبّـة أنفسـكم فالبعـض يسـخر ولا يقـدّر لأنـه لـم يعتـد علـى المشـاعر الصّادقـة.

كيف نتخلّص من تلك الورقة غير الرّابحة؟

نـدرك أنّـه شـيء مؤلـم أن ننزعـج مـن أسـباب تافهـة، تمـرّ علينـا كذكـرى تجاوزتنا ولـم نتجاوزهـا، عبـرت وتركـت الأثـر وجعلـت مـن ذاك الميـت فينـا كلّ شـيء حـيّ، لـذا تعمّـدوا المـرور والاسـتقرار علـى القـوّة تجاههـا، عاملوهـا بفـرق واضـح، دعكـم مـن الخـوض فـي تفاصيلهـا، رمّمـوا كبرياءكـم فـلا أحـد سـيقدّر إهداركـم لعزة نفسكم ومشـاعركم تسـتحق الإكـرام، هنـاك فرصـة أخـرى للعيـش؛ فالأوفيـاء يسـتحقّون سـعادة كلّ يـوم وإن ملتـم تأكـدوا أنّ الحائـط مـن نفـس طينتكـم، فالنّـاي حيـن يبكـي يطبطـب علـى كتفـه الكمـان.

أمّـا إن كنتـم غيـر ذلـك، مـن اللّذيـن خانـوا وهجـروا وغـدروا ولـم يوفـوا، سـأخبركم بشيء:

كم أنتم سيّئون، جعلتم في كلّ شيء خراب.

الحيـاة بضـع أيّـام ولا أحـد يسـتحق أن يحـزن بسـببكم، مـاذا لـو تنازلتـم لإسـعاد مـن ينتظـر منكـم ذلـك؟ أؤكّـد أنّكـم ستسـعدون أكثـر، فقـط تنازلـوا عـن الأنيّـة ولا تكونـوا سـببا فـي نـزول دمعـة أحـد فـلا أحـد يـدري مـا تخلفّـه الدنيـا مـن خـراب بالأنفـس .

وإن رفضتـم التنـازل فخرافـة أن لا حيـاة مـن بعدكـم كانـت مميتـة لكـن لا مـكان للخرافـات، وكانـت كذبـة أنّكـم أغلـى مـا نملـك سـببا للغربـة والتأكّـد أنّنـا لا نملـك أحـد، وكانـت تلـك الوعـود الكاذبـة بالبقـاء كفيلـة بإدخالنـا المتاهـة وإعجازنـا علـى إكمـال الطّريـق والتعثّـر فـي كلّ مـرّة، لكـن قـد نميـل ولا نسـقط وإن سـقطنا فقـط سـألنا اللـه اللطـف فـي القـدر فـلا مـردّ لـه.

"ظننت أنّها كانت مزحة بيننا كالعادة..

لكنّها كانت النّهاية"

في كل مرّة كنّا نتجاهل قسوة من نحب للحفاظ على الودّ كنّا نخسر شيئا منّا، من عافيتنا، من كرامتنا، من حقّنا في الابتسامة، قبضة اليد حين نريد التمسّك بشيء مجهدة جدّا وقد تسرق الكثير من طاقتنا، ماذا عن قبضة الرّوح حين تتعلّق بشيء ستسرق منّا عمرا.

"دع فتنة الماضي جانبا، وابدأ بردّ الدّين لنفسك"

مرّت أيّام كلمح البصر، السّـــاعة تشير إلى صلاة الظهر بتوقيت إسطنبول، حطّت الطّائرة التي تركبها رودينا وأمّها، وانتقلتا بعدها إلى الفندق القريب من مستشفى علاج السرطان، أين تمّ الحجز، لم يكن باستطاعتهما فعل شيء غير الاستلقاء، في هذه الفترة كانت رودينا لا تشعر بآلام سوى الحمّى التي كانت تزورها من وقت لآخر.

في تلك الليلة اختلت زينب تصلّي طويلا كعادتها، وبعد أن انتهت جلست شاردة بأفكارها المشتّتة تتساءل متعبة النفس كيف ستتمكّن من مساندة ابنتها وهي بالكادّ تستطيع تجاهل خوفها، قبل ذلك اليوم الذي تعبت فيه رودينا بشدّة، كانت تقنعها أنّه انخفاض في مستوى السكّـــر في الدّم بسبب التعب والضغط الذي كانت تعانيه ومع الوقت تمادى شعورها بالإعياء بسبب فقدان الرغبة في الأكل، في حين كانت تخفي وجود كتلة في منطقة الرقبة أسفل ذقنها، كانت كلّما تحسّستها تجدها بنفس الحجم لذلك لم تعطها اهتماما. الكلّ أصبح يدفع ضريبة ذنب لم يقترفه وأضحى الكلّ يفتقر للإحساس بالحياة..

لم تتمكّن من إغماض جفنها، فراحت وجلست بجانب أمها وهي منشغلة تفكّر بذات الشيء، يبدو أنّه أمر جدّ صعب تنهّدت في سرّها: كم أنا خائفة أن يسوء الوضع أكثر.

في اليوم الموالي، تمّت معاينة الطبيب حيث أجريت لها فحوصات شاملة وتحاليل دمّ على الرّغم من وجود ما يثبت وثائق سابقة تثبت حالتها الصحيّة، أخبرها الطبيب بضرورة إعادة فحص الأشعة القطعيّة واستئصال عيّنة وفحصها من جديد. كانت تلك أول ليلة لها بالمستشفى إذ عادت النتيجة تقول أنّها تعاني من الليموفاهودجكين ولا يزال في مرحلته الأولى وكانت هذه المرّة بداية العلاج، حين تحدّث الطبيب بأنّ نسبة الشفاء عالية، تراجع توتّرها، لم تكن خائفة حينها، لكن أوّل جرعة كيماوي كانت قاسية جدا عليها ذلك بعدما بقيت سبعة أيّام متواصلة بلياليها في المستشفى.

هنا في المستشفى والأصوات التي تثير الهلع باتت شيئا عاديّا، بعد دقائق من العشاء فزعت زينب حين اتّصلت بابنتها بعد أخذ الجرعة، إنّها الآلام يا سادة، تأخذ بعد الأرواح أرواحا.

انهارت على ركبتيها وجلست عند باب الغرفة مذهولة، خارت قواها وشدّت بيديها على رأسها وسقطت الدموع منها متوسلة في الدعاء، تتخبط في العجز، بتلك النّظرة المنكسرة تخمّن يجب أن تفعل شيئا لتحميّها من الألم لكن ما باليد حيلة.

في البداية لم تفقد شعرها كما توقّعت، واليوم أربع أشهر تمضي من العلاج، مضت طويلة، خلالها التقت رودينا بالعديد ممّن جمعتها معهم جيرة المستشفى والغربة، غرفة الأشعة ومخبر التّحاليل وكان الوعد بينهم استكمال

العلاج والشّفاء سويّة وفي كلّ مرة كان هناك من يخلف الوعد، من يغادر ويختفي دون معرفة السبب، من يتعبه الألم فيرحل، من تتلاشى ملامحه على مرّ الأيّام، فالوفاء بذاك الوعد قد يكون باحتمال ضئيل.

أيّام وأشهر... بدأ الوضع يسوء أكثر فأكثر، بدأ شعرها يتساقط، كان شعورا ليس بالهيّن لكن حاولت أن لا تظهر ذلك أمام أمّها بعدما دخلت الغرفة على حين غرّة، فوجدت نفسها تخفي ما تساقط منه تحت فخذيها وصارت ترتجف بطريقة لا تستطيع إخفاءها.

غالبا، يصير الخوف على شعور أناس يحبّوننا في أوقات نتألّم فيها أكثر من خوفنا على أنفسنا.

على الرغم من تلك المحاولة، أحسّت زينب بذلك لكنّها غمرتها بدفء نظرتها: أنت بخير؟ سألتها لتطمئنّ.

تردّدت في الردّ، ثمّ قالت وهي تنحني لتقبّل يدها: بسبب أمّي أنا بخير.

مرّرت يدها على شعرها قائلة: غير ممكن.. أنت كلّ حياتي، كيف لا أكون مع من أعيش لأجلها، ليس عليك أن تقلقي ابنتي أنا بجوارك.. وضعت رأسها على صدرها وأغمضت عينيها فيما كانت أمّها تضمّها وتتحدّث.

في عمق الطمأنينة، تحت مظلّة الحنان، ثمّة شعور لا متناهٍ بالأمان من الصّعب أن تجده في كلّ مكان.

أردفت رودينا قائلة: لا تحملي همّا أمّي، مع كلّ تلك المأساة النّفسية التي تعانيها ظلّت تعج بالحياة.

في يوم الجمعة التّالي..

أيقظت زينب بنتها لصلاة الفجر، كان وضعها هادئا حينها، لكن بعد صلاة الجمعة عاد كلّ شيء لما كان عليه، في هذه الفترة كان شعرها في كلّ يوم يسقط منه الكثير، بالمقابل يحلّ الخراب والسكون في روحها.

في تمام الساعة الرّابعة اتّصلت بها سناء زوجة أخيها أحمد تخبرها أنّ الوضع ساء عندهم ولا حلّ غير أنّهم سيغادرون إدلب باتجاه العراق، أين تقيم أختها المرتبطة بشخص عراقيّ الأصل زينب لن أسألك كيف الحال! فأنا أعرفه جيّدا، ساء الوضع تماما وبقي اختيارين أمامنا إمّا الهجرة للعيش ولا نعرف ما يخبّئه لنا القدر وإمّا أن نبقى ننتظر أن يسقط علينا الموت بأيّ لحظة تحدّثت سناء.

تساءلت زينب في خوف، ما الذي ستفعلونه؟ وكلّ همّها ابنتيها التي تركتهما هناك، سنسافر إلى أربيل بجوار أختي، سنترك البلد وقد قرّر أحمد أن تذهبن قمر وشهد معنا، لذلك وددت معرفة رأيك

كيف؟ تفاجأت لا تعرف ماذا تفعل.

أردفت سناء: إذا رفضتِ سنتركهم عند منير.

ثمّ قبلت فورا، كقرار ليس له بديل، فأحيانا القرارات المتسرّعة تكون أكثر صوابا من تلك الّتي تنهك التفكير.

قضت اللّيلة في سهر تحدّث نفسها، تقاطع حديثها الوساوس، تتأفف في كلّ مرة وتستغفر، تجلس تارة وسرعان ما تقف تقطع مساحة الغرفة مجيئا وذهابا محتارة كيف ستغادران بلدا لم يعتادا العيش في سواه، كيف؟ وماذا ستفعل؟

كيف لو انتهى كلّ ما يحدث، وماذا لو أنّه باق ولا يتغيّر؟

"لكلّ منّا فرصة، نحتار في مصداقيّتها"

وداع الياسمين

"قضت الظروف علينا، أقنينا تذكرة هجرة بما تبقى من العمر

عبرنا طريق الأمل بلافتة غدا نلتقي"

مررت البارحة بشوارعك

فقط دمشق تمطر ياسمينا

اليوم استيقظنا على كابوس فراقك يا وطن

بتنا نحتسي وجع البعد

على عمر ضائع وأحلام لاجئة وحياة حرمان

هجرناك عن غير قصد

ولم ننجح في الهروب من مرارة الواقع

ليتنا نتراجع

ليت شيئا يحدث يمسك بأيدينا ويلطف بنا

من الألم، والرحيل والبكاء والفقدان

من كلّ تلك المواجع

من قسوة التّغريبة

وآهات بمعدل قوّة مدافع

ليتها تنتهي

فقد باتت كل الأيّام خريفا

لا فصول أربعة

"كلّ شيء ضاق.. ضاق حتّى ضاع".

متى يحلّ الربيع بدمشق كما قرطبة؟

وتعود الرّوح لمسقطها

بعدما لملمت شتاتها وغادرت

في الحياة، تأتي المشاكل والهموم متتابعة..

فـي كلّ مـرّة كانـت الحيـاة تركلنـي، كنـت أجلـس أعـد ذنوبـي، أتسـاءل أيّ ذنـب اقترفتـه كـي تصعـب حالاتـي، كـي يتراكـم الصّـراخ بداخلـي، كـي يأخـذ الحـزن طريقـا بداخلـي ويفتـح بالوريـد بـاب الخـوف والعجـز واليـأس. تلـك الأماكـن التـي أمنّاهـا، كانـت الأكثـر إيـذاءً، ذنبنـا أنّنـا زرعنـا بتربتهـا أشـياءً نـادرة ولـم تكـن عادلـة وأنبتـت القسـوة الجفـاء.

بالغنا في الذنب، بالغنا في العطاء.. فبالغ بحقّنا الأذى

"أصبحـت أوراقنـا تسـقط دون أن تصـل الأجـل، نمـوت أحيـاءً ونقـف بجنـازة نـواري فيهـا ثـرى أرواحنـا"

عنـد الوصـول إلـى حـدود العـراق الشـمالية، بعـد سـاعات دخلـوا مدينـة أربيـل، كانـت المدينـة تغزوهـا المناظـر الجبليّـة، كانـت المدينـة تبـدو جميلـة، لكنّـه ذات الشـعور إضافـة إلـى غربـة البلـد ن غربـة الـروح.

شيء موجع أن تسقط في بئر الغربة بدفعة غدر.

حملنا في جيوب أنفسنا ياسمينا.

لكنّه ذبل بغير موضعه

لا أظنّ أنّنا أحببنا شيئا مشتركا عداك سوريا

أنت النقطة الوحيدة التي جمعت أحلامنا وتشابهت فيها أيّامنا.

أنت الوطن الذي كان يجمعنا دون أن نعترف بذلك، لا لبعضنا ولا حتى لأنفسنا الآن؟ نحن نعترف لا بديل للوطن

فلتغفري... سوريا.

مـن الصّعب أن نصل إلـى حقيقـة لـم نسعَ لهـا يومـا، إلـى حيـاة لـم تخطـر ببالنـا وشـعور لا تتقبّلـه قلوبنـا.

***

الرّحيل والمغادرة ليس بالأمر الهيّن..

تقول رودينا:

اليـوم أتممـت خامـس جرعـة لـي، وحيـن خرجـت إلـى قاعـة الانتظـار، تمـرّد بصـري فـي أنحائهـا، تأكّـدت أنّهـا خاليـة مـن أيّ أحـد، ثـم اختـرت مقعـدا، لحظتهـا أحسسـت كمـا لـو أنّـه تـمّ نفيـي مـن قائمـة الأحيـاء ونبـذي إلـى مزيـد مـن الوحـدة، منتظـرة قـدوم أمّـي وضعـت القـرآن علـى مسـامعي وأغمضـت عينـاي فعـادة يدلّنـي علـى نفسـي مـن جديـد..

مـرّ قرابـة النصـف سـاعة، حينمـا نزعـت السـمّاعات مـن أذنـي انتبهـت إلـى أحدهـم يجلـس بجانبـي علـى مقاعـد الانتظـار، رمقنـي بسـرعة ثـمّ أخفـض رأسـه قائـلا:

أنت مريضة؟ لديك موعد؟

رمقته ثمّ أجبته: أردت أن أجلس قليلا لوحدي، ثمّ أكملت موضّحة:

أتممت أخذ جرعة قبل قليل، تعبت أنفاسي و...، ثمّ زفرت ببطء وصمت.

لـزم مجلسـه وردّ مبتسـما: كان الهـدوء وصـوت القـرآن واضـح، أردت البقـاء قليـلا.

أجبته موجهة نظراتي نحو الأرض: كنت بحاجة إليه.

أردفت رودينا راوية:

أطلّ عليّ بوجه مبتسم، تحدّث مطوّلا، كلماته أصابت قلبي، كان يتكلّم وكنت أركن إلى الصّمت، كلماته يملؤها الأسى والنّدم وربّما تذكّر الماضي الذي يغيب مثير للحزن، أردت أن أسأل وأستجيب لحديثه لكنّي أتراجع ولا أعرف لمَ؟

لم أفهم الأمر استغربت كثيرا، ما هذه الصّدفة أم أنّ هناك شيء ما؟

بعدها لم تسرح سوى دقائق حتى أخترق سمعها نداء زينب لها، فغادرت دون مبالاة، وعند عودتها إلى غرفتها بالفندق، شعرت بدوار شديد فتهالكت على سريرها تعبث بشعرها الذي كان يتناثر في المسافة بين أصابعها وقلبها يسألها: ما هذه الصّدف؟

عندما أخبرها يونس أنّه من أربيل العراق وطبيب مقيم في تركيا، نظرت إليه بصدمة ولم تستطع إخفاء ذلك، فبدت منزعجة.

يحتاج المرء أحيانا إلى الذي كان يقدّمه لغيره، أن يعود إليه شيء قليل من ذلك الذي كان مفرطا.

تمضي اللّيالي بتكرار روتينيّ، في هذه الفترة كان يعمل يونس في الفترة الصّباحيّة، استطاع الثبات بعد سنوات من المعاناة والإجهاد زاد صعوبتها المرض، بعد التعافي وبداية العمل كان له نصيب من نسيان كلّ ما أحبطه.

"أريد مزيدا من التّفاصيل" كان قلبها يردّد في غضون أيّام منذ بداية علاقة الصداقة مع يونس، كانت تحتاج للحديث والرجوع للحياة بكلمات تواسي روحها التي أفاقت من شرودها المزمن لتجد ما قد يظهر وكأنّه العوض.

أعيدها ثانية، اختاروا الحبّ لكلّ بداية، حتّى وإن ضاقت وتشتّتت وذبلت روحك في المنتصف قد يختارك في النّهاية.

بين صفحتين من الحياة، قد يتغيّر كلّ شيء، ما بين نسيان وذكر، جبر وكسر، لقاء وهجر قد ينقلب الشّعور بلحظة.

يوم بعد آخر، بسبب الاحتياج بدا بالنسبة لها إنسان يبثّ فيها الطمأنينة، رغم ذلك مقابل اهتمامه الذي كان يزداد كلّما اكتشف مزيدا من تفاصيلها لم يكن الأمر مثيرا للاهتمام، لاسيما وقد أمضت عهدا لنفسها أن لا تنساق وراء مشاعرها.

لم تكن يوما كذلك..

ورغم اقتناعها الدائم بوجود الصدق في مكان ما في جوف امرئ ما، إلّا أنّها باتت ترفض فكرة الحبّ.

اختصر الحبّ مرساه هذه المرّة، وكأنّه وجد طريقة يتجنّب بها مراحل لم تعد الرّوح تطيقها، تكرّرت اللّقاءات بينهما وفي كلّ مرّة كانت تحسّ أنّ نظراته المهتمّة تتجه نحوها حينها كانت لا تستطيع إخفاء حساسيتها وخجلها المفرطان.

آسفة، لا أعلم ما الذي عليّ قوله! ردّت رودينا حين سألها يونس عن سبب حزنها.

سرح بعدها في الفراغ لدقائق في صمت، أخفضت رأسها نحو الأرض تحرّك رجلها في توتّر، ثمّ استقامت في وقفتها، ابتعدت خطوات قليلة، كان المكان يطلّ على مساحة تضجّ بالمارة بينما تقف هناك بقي في مجلسه يتابع شعرها الممّوج، كان كثيفا من قبل أن يصيبها المرض.

حال عودتها جلست إلى جانبه في إحراج، ربّما كان قول الصراحة بالنسبة لها أريح، بدا عليها القلق وهي تقول في تلعثم:

تودّ معرفة سبب حزني؟ لا لست حزينة، ثمّ أردفت بتكرار: مطلقا، مطلقا.

ثمّ للحظة أحسّت أنّها بحاجة للحديث، لا يهمّ فالكتمان لن يغيّر شيئا ثمّ قالت بصوت هادئ: كنت صادقة ووفيّة، وحده العالم يفسد الحبّ.

حتّى في غيابه وكسره وهجره أسمته العالم. ثمّ تنهّدت قائلة: المرأة قد لا تنسى من أبكاها.

أطرق يونس: أعتقد أنّ ذلك ما عليها نسيانه، من المفترض أن تتذكّر من رسم ضحكتها الدائمة، ثمّ لم يكمل جملته بصوت مسموع حين أردف: أفهم ما يعانيه من شعور ثمّ دون تردّد قال:

لقاء، اسم من أحببتها وتركتني في ضعفي، تعافيت من المرض منذ سنتين تقريبا، نظرت إليه ثمّ ردّت في استياء لا تستطيع إخفاءه:

لمَ لمْ تفصح عن هذا من قبل؟

أكمل حديثه قائلا: في نفس الوقت بدأت حياتي الجديدة ولم يكن شيئا سهلا لكن كان خيرا.

***

ستبقين وحيدة، صدقّيني هذا ما سيحدث إن استمرّ عناد ثقتك...

تحرّكت رودينا جانبه بسرعة مستأذنة بالانصراف، بينما هي كذلك استوقفها، ابتسم وهو يتقدّم بضع خطوات وقال بهدوء لكلّ أمس صباح جديد.

ابتسمت في امتنان وغادرت.

ذلك الشّاب ذو الجسد الرشيق، طويل القامة، أسمر البشرة بعيون بنيّة وشعر أسود ولحية خفيفة لا تخفي غمازة على خدّه الأيسر، ضحكة مميّزة وكاريزما مختلفة، كان موقنا بتشابههما .

عنـد وصولهـا مـن حوالـي سـاعة دخلـت الغرفـة وركنـت حقيبتهـا إلـى جانـب السّرير وفتحت النّافذة وملأت رئتيها بالهواء، استشعرت براحة كبيرة وبينما تجلس شاردة تحتسي شايا، تحرّك الملعقة ببطء رنّ هاتفها برقم يونس، فكّرت قبل أن تردّ فبالعادة هي شديدة الإخلاص لمواقفها وبالذات اللّامبالاة، بينما هي كذلك أوقف الاتّصال، أمسكت الهاتف وكتبت رسالة:

"آسفة لم أستطع الردّ"

بعد قراءة الرسالة أجاب: لا عليك أردت الاطمئنان لوصولك ثمّ عاود الاتّصال بعد دقائق، كان في حديثها كثير من الشكر.

كان يونس شخصا لطيفا لا يستحقّ أن يعامل بما خلّفه غيره من الأذى ترتبت عليه بعض القسوة وقلّة الثّقة.

مرّت أيّام والغد آخر جرعة تأخذها رودينا، أصرّ يونس هذه المرّة أن يكون برفقتها، في الليل بعد رجوعه من الدّوام عاد لمنزله وهو يفكّر، كان كلّ شعوره يميل لها، كانت مختلفة، قويّة، تضاهي الشيء الذي يتمنّاه، بطيبة تحتلّ عيناها، تبدو كوطن، ملجأ وعالم، تحوي الكثير من الطمأنينة، لا تستطيع تجاهلها.

صادف تاريخ الجرعة عيد ميلادها، أمضى الليل يفكّر كيف يباشر الحديث، كيف يطلب منها شيئا قد يرمّم روحا وجراحهما، كيف يطلب منها أن تكون له رفيقة حياة.

تميل الرّوح لمن يشبهها، لم يكن لرودينا متّسع آخر للألم، لكن من فقه الحياة أن تبعث أحيانا شيئا من السّعادة حين يدمّر الحزن شخصا باتت الدّموع تفقده الرّغبة في المزيد من العمر.

قـد تصـل الأوجـاع فـي الـرّوح إلـى "الـلا اسـتطاعة" علـى التّحمّـل، ينفـذ كلّ شـيء ولا نتمنّـى شـيئا آخـرا بعد، يمـوت كلّ مـا فـي النّفس عنـوة ويحتـل الضجـر كلّ مـا حولنـا.

لـمَ يفسـد مـن حولنـا رؤيتنـا للحيـاة؟ لـمَ لا يدركـون أنّ الأذى والإهانـة والخـذلان والغدر قـد يميتنـا للأبـد؟ لـمَ لا يتداركـون حجـم مصيبـة الـرّوح؟

تلـك التفاصيـل تنهـش كلّ مـا فينـا، بـات الهـواء المتنفّـس موجـع وحيـن تأتينـا الفرحـة لا نثـق باسـتمراريتها، لا أحـد قـد يسـتحقّ أن ينقلـب فيـه الشـعور مـن حـبّ الحيـاة إلـى إرادة العزلـة حيـن يـرى أنّ العالـم موحـش فـي حـقّ طهـره لكـن.. لـكلّ منّـا حـقّ فرصـة أخـرى.

تعثّـر اتّصالـه الليلـة بينمـا كانـت تطيـل الحديـث مـع أمّهـا وأختَيْهـا، فـي ذات الوقـت كان يونـس يخمّـن كيـف يتقـرّب منهـا أكثـر، بعد أقلّ مـن أسـبوع تواصـل مـع أحـد أصدقائـه الأتـراك بـإدارة المستشـفى الـذي يعمـل بـه، فـي مسـاء ذلـك اليـوم اقتـرح علـى رودينـا أن تشـغل عمـلا فـي إسـطنبول، فـي البدايـة اسـتحسـنته وبالأخيـر ليـس بالأمـر السّـهل.

أجاب بلهجة واثقة: لا بالصعب.

بقيـت ثـلاث أيّـام علـى مغـادرة رودينـا تركيـا باتّجـاه العـراق، أيـن تقيـم عائلتهـا، لـم تتخيّـل يومـا ذلـك بينمـا كانـت تحضّـر نفسـها لتأخـذ آخـر فحـص يثبت شـفاءها، تفاجـأت ذات صّبـاح باتّصـال، الرقـم مـن سـوريا!

مـن عسـاه يكـون؟ تمتمـت مسـتغربة، ثـمّ ردّت: كأنّـه فـي البدايـة صـوت سـهى ثـمّ تغيّـر المتكلّـم مطرقـا:

مرحبا بنيّتي، كيف حالك؟

ازدرأت ريقها والعبرة تخفي صفاء صوتها ثمّ نطقت بصعوبة، بصوت غير مسموع: بابا؟؟

لم تستطع الردّ، لكنّ صوته كان يبدو ضعيفا يردّد: سامحيني، أرجوك ردّي.

انحبست أنفاسها وارتفع نسق نبضاتها، لم تستطع التكلّم فأقفلت.

بعد كلّ هذه السنوات، بعد الألم والعراء، أنت الذي كان لابدّ أن يكون دار الأمان، وضعتنا في منتصف الحياة نصارع الفقد، نقف دون سند وكلّما أردنا الاتّكاء يعمّنا الفراغ حولنا.. تحدّثت إلى نفسها وعيناها لا تتوقّفان على ذرف مزيد من الدموع التي لازلت تنزل أمام كلّ ضعف.

بعد أن هدأت اتّجهت نحو المستشفى..

ترى ما الذي تخفيه الأيّام القادمة؟

قبل ثلاث أشهر وأحد عشرة يوما، غادرت زينب تركيا، لم يكن سهلا لكن كان عليها يومها لأن تحدّد موعد الذهاب إلى بنتيها المتواجدتان رفقة أخيها بإقامة عائلة زوجته ببغداد العراق.

كان عقلها مشوّشا حينها، يغزوه التفكير ولا تدري أيّ الطريقين تختار، لم تعطها سيطرة الوساوس فرصة للتفكير بانتظام، تحول اختيار الصواب، بينما كانت تجلس في الغرفة يخطفها التشوّش كانت تشعر بالخوف والقلق، اتّجهت رودينا نحو حضنها، تحدّثها، تحاول أن تواسي حزنها.

بعض الانتظار طويل دون نهاية، عافت نفوسنا الحزن وكآبة الأحداث ومخاوف الأيّام القادمة..

بين شوارع الحياة وعند الوقوف بمحطّة الدوامات، كلّ الذين زارهم الحبّ ثمّ غادر عنوة، صعدوا درجات الحنين، الخيبة وغيرها مثقلين ببقايا مشاعر..

كثرة المسافرين في هذا الزّحام جعلت أكبر الركّاب يختارون أرصفة يتركون فيها أمتعة قلوبهم على جنب ليركبوا مقاعد بجانب آمن من الوحدة، يترقّبون شيئا من العوض دون أن يجرؤوا على لمس شيء يأذن للماضي بالعودة.

ازدادت الحركة في محطّة الخذلان، ما الذي ينجّينا؟

أربع سنوات مرّت على ارتباط تيم بلقاء، أيّام تمضي كما هي، عشية الجمعة اليوم الموالي لذلك التاريخ بعث وبعد غياب شديد برسالة إلى رودينا على موقع التّواصل الاجتماعي، بينما هي في غرفتها تجلس على السّرير، مالت قليلا بجسمها لتلقط هاتفها حين طرقت مسامعها رنّة وصولها، كان الهدوء مخيّما، بينما راحت تفتح الرسائل، تفاجأت.. انتابها شعور غريب، قاومته وردّت بقوّة، أخذت تستجيب لكلامه وتفصح عن كلّ ما ظلّ يسحق داخلها، الذي كانت تتجرّعه من غيظ البعد والغدر وعدم السّؤال.

استعادت كلّ تنهيدة، لكن من الجيّد أنّه ظهر بعد أن هدأ كلّ ذلك الحبّ بداخلها، بعد أن استطاعت التخلّص منه بصعوبة، كانت تحادثه وكلّها يختنق، ألقت الكثير من اللّوم، كان كلامها صريحا ومؤلما انعكاسا لكتمان سنين.

ماذا فعلت بقلبي تيم؟ كتبت بينما كانت ترتجف.

ثمّ ردّ بسرعة: سامحيني رودينا، كان يكرّرها كلّ الوقت.

استسلمت مرّة أخرى وقالت: سامحتك إذا كان هذا الّذي يشغل بالك، كرّرت سامحتك.

عجـزت تمامـا عـن التّحكّـم فـي دموعهـا خاصّـة وأنّ كلماتـه لـم يكـن فيهـا حتـى القليـل ممّـا توقّعتـه، خاصّـة حيـن قـال لهـا ببسـاطة ولهجـة قاسـية:

حتّى وإن لم تسامحيني، فإنّ الله غفور رحيم.

جلسـت مذهولـة فـي مكانهـا، أحسّـت فـي هـذه اللحظـة بالغبـاء مجـدّدا، شـهقت لكنّهـا لـم تبـك فلـم يبـق فـي عينيهـا دمعـة تذرفهـا.

مرّت ثلاثة أيّام، توقّعت أن يتواصل معها مرّة أخرى، لم يفعل..

غبـاء أخيـر ذلـك العجـز أصبـح لا يليـق بكرامتهـا، رسـم القلـب هـذه المـرّة نهايتـه بطريقـة غيـر متوقّعـة.

منتصـف اللّيـل، لازلـت مسـتيقظة تلـوم نفسـها: أخطـأت فـي الـرّد، لكنّهـا المـرّة الأخيـرة. انتهـــى..

الحبّ الثاني

"ولازال ألم رحيلك يمزّقني وأنت لا تشعر

لكن ...

لو كانت بيدي أمنية واحدة، لما تمنّيت عودتك"

أصبحـت الصدمـات تختصـر طريقهـا، تجـاري الزمـن وتكشـف عـن وجههـا بسـرعة. قـد نكـون تعوّدنـا ومـرّت علينـا أكبـر هـزّة فتتابعتهـا أخـرى أقـلّ شـدّة علـى سـلّم الخيبـة فـلا نشـعر بهـا بعـد أن تجاوزنـا مرحلـة الشّـعور، تربّـى فينـا اللاّشـعور، عـدم الاكتـراث واللاّاهتمـام، اهتـرأت الـرّوح وباتـت أكثـر حساسـيّة. مـرّ الامتحـان الصّعـب ومـا تبقّـى لا يهـمّ، أصيـب أهـمّ جـزء فـي الـرّوح وتلـك الكدمـات قـد تختفـي بينمـا الكسـر سـيظلّ يحـدث الألـم، كلّمـا اشـتدت بـرودة الأفعـال وكلّمـا انخفضـت درجـة التعامـلات اتجاهنـا.

لنـا جـروح تصـرّ علـى العيـش رفيقـة لنـا، لسـنا نـدري هـل الحـظّ بعيـد عنّـا أم نحـن مـن لا نعطـي فرصـة لـه؟ نحـن مـن نسـتحق الحـبّ لا يحبّنـا أحـد، أم نحـن ننتظـر أكثـر ممّـا يسـتحق البعـض؟ نطمـع أن تكـون الأولويـة لنـا، لا نبحـث عـن شـيء بقـدر مـا نبحـث عـن شـبيه لحبّنـا، اهتمامنـا، خوفنـا وجنوننـا، نحـن أكثـر احتياجـا، أكثـر مـن يدقّـق فـي التفاصيـل، تلـك النّـادرة منهـا نفتّـش عنهـا ولـو كانـت فـي العيـوب قبـل المحاسـن، نبحـث عمّـا ينقصنـا ليكمّلنـا فـي كلّ شـيء نحبّـه، وحيـن نتعلّـق بـه يتملّكنـا شـعوري الرغبـة والرهبـة فـي ذات الوقـت، الرّغبـة في التّمسّـك والخـوف مـن الإفـلات حيـن يشـتدّ التمسّـك وقـد نخـاف مـن فقـدان أشـياء لا نملكهـا بالأسـاس.

وما زاد الطين بلّة أن الأيّام تمرّ علينا مرور الكرام تلقي علينا سلاما واحدا .

لكن..

"نحن من يشكّل قسوة بعض ..

نحن السبب في كلّ ندبة"

لذا..

لا تلومـنّ القـدر ولا تشـتموا الحـظّ بالعاهـر ونحـن نـؤذي بعضنـا، نحـن السّـبب فيهـم وهـم السـبب فينـا وكلنـا مذنـب فـي حـقّ بعض وفـي حـقّ أنفسـنا.

نحـن نغيـب ونحـن نخضـع للاشـتياق، نحـن نسـأل ولا يسـأل عنّـا، نحـن نحتـاج ويسـتغنى عنّـا، نحـن نستسـلم للضعـف بكامـل قوّتنـا، نحـن خنّـا ثقتنـا بأنفسـنا فتهـاوت كرامتنـا، نحـن نبتعد، نرحـل، ننكـر وننسـى ولا نحـبّ مـن يحبنـا، نحـن نتواضـع ليتعالـى عنّـا، نعطـي قيمـة لمـن ليسـت لـه ويسـتهان بنـا نحـن الذيـن نسـتحقّ كلّ شـيء.

قـد لا يكـون كلّ شـيء فـي أوّلـه جيّـد فغالـب البدايـات سيّئـة، لكـن التّعـوّد والصّبـر عليهـا قـد يجبـر النّهابـات علـى اتّخـاذ منحـى حسـن

في رسالة كتبت رودينا ليونس:

"صباح الخير حبيبي وبعد..

كنت منهكة بالقدر الكافي الذي يفسد جمالي..

عندما رأيتني في ذلك اليوم لم أتخيّل أنّ شخصا سيعجب بي بتلك الحالة

عندما تحدّثنا للمرّة الأولى لم أظنّ أنّك ستصبح أهمّ شخص في حياتي

عندمـا اعتـدت سـؤالك، ولمّـا قلـت أحبّـك أردت تصديـق ذلـك بعد كلّ مـا حـدث، لـم أتوقّـع أنّ أحلامـي سـتعوّض وتتلخّـص فقـط فـي اسـمك، عندمـا علمـت كلّ شـيء سـيّء حـدث معـي توقّعـت أنّـك سـتتركني..

بقاؤك لم أتخيّل حدوثه وحدث

أحبّك."

كلّنا يدّعي الحبّ، وحده الوقت قادر على إثبات ذلك، مرور الأيّام والمواقف تختبر صحّة وفاءهم لك.

كانت آخر مرّة تخدع فيها نفسها، ربّما سيعود يوما ما، كان التفكير الذي يسيطر عليها طيلة تلك الفترة لكن كانت تلك بقاع موذية لها بشكل لا تستحقّه.

اليوم.. آخر الأسبوع، تسرّبت الظلمة شيئا فشيئا إلى السّماء، عاودت الأمطار السّقوط، كان صوتها بالخارج يبعث الطمأنينة ويغسل ثقل القلوب وبالمقابل تسكب المزيد من الحنين. برغم كلّ شيء ظلّت تظهر القوّة، أصرّت على الثبات كذلك وبداخلها كانت خائفة وبقي يونس صامتا ليتيح لها فرصة التفكير في القرار.

قبل أيّام قليلة جدّا وبعد علاقة دامت أشهر، طلب منها يونس الارتباط فتحت لحظتها عينيها في حيرة وقالت: كيف يستطيع المرء اتخاذ قرار كهذا في غضون أشهر؟

اقترب خطوات إلى أن أصبح وجهها أكثر وضوحا، تأمّلها مبتسما، ظلّت جامدة ثمّ أخفضت رأسها في خجل، كان تأجيل الحديث في الموضوع أقلّ ما يمكن أن تفعله.

الخوض في علاقة جدّية ومشاعر صادقة لا يمكن لأحد رفضه، لكن لمَ نحتفظ بجروح قديمة ونعزل أنفسها عن فرص أخرى قد تكون ضمادة لما مضى؟ كل شيء في الحياة يستحق فرصة ثانية وثالثة و..، كذلك القلب عليه أن يعيش على أمل أن ينال هديّة حبّ.

مرّت سنة أخرى ورحل الخريف على عجل..

المكان، أربيل / العراق

في إحدى الشوارع كانت رودينا تمشي ويداها متشابكة بأصابع يونس، بينما كانا يتّجهان نحو السيّارة، بخطوات قليلة أفلتت طفلة بالرابعة من عمرها يد أبيها اصطدمت بأرجل رودينا فتمسّكت بها كي لا تقع، انحنت نحوها لتقبّلها، ثمّ ضحكت متحدّثة معها..

ألقى تيم بنظره في الاتّجاه لإرجاع روزين صغيرته، تقدّم مستغربا، كانت هي "رودينا"، ذلك الوجه كان وجهها، بكلّ ملامحه، براءتها، إيماءاتها صوتها، ابتسامتها وغمّازاتها، كلّ شيء يشبهها سوى أنّ شعرها لم يعد طويلا بقصّة قصيرة ولون أشقر وعلى شفتيها نفس ابتسامتها، تلك الجميلة تنسخ صورتها بكلّ أماكن الشّوق، تحدّث في نفسه: ما هذا؟ طيفك بين أعيني أينما حللت، ليتك تأتين.

في اللحظة الّتي رفعت فيها رأسها لمحته، تفاجأت فتلوّن وجهها ثمّ تماسكت.

ظلّ تيم جامدا في مكانه مدّ نظره مرّة أخرى دون أن يظهر ذلك، لمس بأعينه كلّ تفاصيلها، استدار يمينا فأبصر يونس معها، كانا يتبادلان الضحكة والحديث والنّظرات، صاح بأعلى درجة ألم بداخله، لبث يرتجف وهو يحمل ابنته، كادت ضلوعه تتدمّر من شدّة الصدمة.

حين تردّ الحياة الدين فإنّها لا ترحم، تأتي بنفس القسط من الألم، تبدع في الصدمات.

تراجع إلى الوراء، التقط أنفاسه، لم تأبه هي له فاهتمامها الزائد بزوجها وحبّها له يمنعها حتّى من تغيير بوصلة النّظر باتّجاه غيره.

بعد رجوع تيم للبيت، جلس بمفرده، أجهش بالبكاء وانهار في تلك اللّحظة، لم يجد أيّ تفسير لما رآه، والتفسير كما تدين تدان ن دين الشّعور سيردّ ولو بعد حين.

النّسيان فكرة مزيّفة، خدعة الوقت ووهم العيش بسلام، حين تقف الذّكرى بالمرصاد، كلّ تلك التّفاصيل العالقة تؤكّد أنّها لن تتحقّق، تلك الّتي تبقى مطبوعة في ذاكرة تعجّ بالأروقة، يتعثّر كلّ جزء منّا في ذلك الظّلام دون أن نجد طريقا للعودة مرورا بأبواب النّدم.

كيف تعرفه؟ أين؟ وكيف وما الّذي يجري؟ أسئلة ظلّت تعصر تفكيره، متاهة لا يعرف لها مخرجا، خاصّة وقد تأكّد أنّها هي حين ناداها يونس: "رودينا حبيبتي..".

أحيانا لا نستطيع المطالبة باسترجاع شخص كان لنا فيه كامل الاختيار بتركه يوما ما، حين تمسّك ومضينا متجاهلين تضحياته.

أحد الأماكن التي يكرهها النّاس مساحات النّدم، لا أحد يحبّ أن يتحدّث عن شعوره ذاك فيبقى ضائعا في إحساس كريه، اختنق كثيرا ولكن هل هذا النّدم سيفيد؟ فتح ذلك الباب في حين وصلت هي لمرحلة توجّب عليها استبدال الحزن بالسّعادة.

ظلّ يفكّر كثيرا، في المساء ترك البيت وجلس في المكان ذاته وظلّ باله مشغولا يتعاطى المزيد من الحسرة، يتذكّر تلك النّظرات الّتي وجّهتها رودينا لم يكن فيها شيء من العتاب، زفر في ضيق خسر فتاة تفتخر بها الحياة، تكاد تزهر طرقا مرّت بها، تقبّل يداها كلّ ما تلمسه.

رؤيـة مـن تحـبّ فـي ثنايـا قـدر غيـرك شـيء مؤلـم للغايـة، جميـل وصـادق ذلـك الحـبّ الـذي تبعده المسـافات، قـد يجمـع البعد قلبيـن بشـكل حقيقـيّ لا يشـبه مـا يصنعـه روتيـن القـرب، فالشّـوق وقـود العشـق.

غالبـا، يكـون رفيـق القلـب شـخص لا يشـبهنا فـي كلّ شـيء سـوى الـرّوح، ذاك التّطابـق واجـب للاسـتمرار.

تـوأم الـرّوح لا يقتـرن بتقاليـد ولا لهجـة ولا لغـة، ذاك الشّـبه يكمـن فـي مقـدار الأمـان والاهتمـام والغيـرة والخـوف.

بعـد أشـهر قليلـة مـن إقامتهمـا فـي أربيـل، مسـاء يـوم الخميـس قبـل أن ينـام يونـس نقـل جلسـته إلـى مـكان علـى مقربـة مـن زوجتـه، تأمّـل وجههـا، أمسـكها برفـق مـن يمينهـا وتنهّـد قائـلا:

اسـمعي رودينـا أعـرف أنّ أمنيتـك فـي فتـح مدرسـة فنـون تشـكيلة للصّغـار طويتهـا لأجلـي، للتّفـرّغ والاهتمـام بـي، وبمـا أنّ البقـاء نهائيـا بالعـراق لا رجعـة فيـه، أفكّـر فـي فعـل كل الـذي أسـتطيعه لتحقيقهـا لـك.

ردّت بفرحة: أريدك فقط بجانبي، كن معي بالتّـــأكيد سننجح.

ظلّ ينظر إليها بالدّرجة نفسها من الاهتمام وفي كلّ مرّة يهمس لها: أحبّك..

استحسـنت الفكـرة واشـتعلت بداخلهـا ومضة أمـل، ضمّت يده بلهفـة وهتفت ممتنّة.

ظـلّا مسـتيقظين إلـى وقـت متأخّـر مـن اللّيـل، السّـاعة الواحـدة وأربعـون دقيقـة بينمـا يتحدّثـان بـدفء، تسـرّبت الرّيـاح عبـر شـقق النافـذة، توجهـت لتغلـق زجاجهـا، أسـدلت سـتائرها، ثـمّ اسـتلقت بجانبـه، اشـتركا الوسـادة، أحاطـت بيدهـا علـى خصـره وتوغّلـت بيـن أحضانـه أيـن تشـعر أن السّـعادة والأمـان حقيقيّـان حيـن يضمّهـا إليـه بقـوّة خوفـا مـن لحظـة بعـد.

واحد وعشرون يوما مرّت بسرعة..

جاءها يونس ليخبرها بما عرضه على تيم، كان أوّل أسبوع من شهر جوان، ذهلت لما قاله، رسمت على ملامحها ابتسامة شاحبة وأظهرت عدم اهتمامها، بينما بدا ظاهرا عليها التّوتّر بما بدر منها من سلوك وردّ بأنّها ترفض ذلك وأنّها ستنتظر إن لزم الأمر وقد تتخلّى عن الفكرة.

تلت ذلك أسئلة منه من ثمّ أنهى كلامه ب: لا بأس كما تريدين.

كان يعرف كيف يتغافل عمّا يزعجها، لم يكن يونس مغفّلا ولم تكن نيّة رودينا في إخفاء ماض لا تذكره سوى أنّها قد أنهته والمسألة محسومة ولا مكان لها في حياتها احتراما لحبّ كان العوض وأنّها منذ زمن ملك لشخص كان الملجأ الذي لمّ شمل أجزائها حين بلغت مفترق طرق الأسى، كان ذلك خشية على حقيقة جاءت بعد كذبة، تقول:

يونس جزء منّي، بل كلّ أجزائي، اعتقدت أنّ ما قبله حبّ، لولاه كنت نسيت أنّي على قيد الحياة.

ذات يوم كانت تذرف دمعا بروح تغرب وراء بحر كذبة، لتشرق من ذات المكان وتحدث في كلّ مرّة مشهدا تنتظره عيون الذّكرى بشوق ليزعج رؤيتها فرط شعاع الخذلان فيزيح بصرها باتّجاه آمن نحو العزلة في ظلّ الحنين.

كظم شعورها ذاك كان مرهقا بما يكفي إلى زواله.

صدقها، وبياض داخلها، ذلك الذي كان متأكّدا منه هو ليتغاضى عمّا لم تقله، بوجه مبتسم قال لها: نفعل ما تقرّرينه أنت حبيبتي.

أومـأت برأسـها ثـمّ أمسكت ذراعـه وقالـت بتـودّد: أسـتطيع النّجـاح حيـن تكـون أنـت فقـط بجانبـي.

***

يومهـا ردّت بسـرعة: مـن يكـون الشّـريك؟ وحيـن أخبرهـا زوجهـا أنّـه تيـم مردفـا: منـذ أيّـام تناقشـنا فـي الموضـوع وهـو ينتظـر ردّي.

(لكـن..)، ردّت متـردّدة دون أن تكمـل مـا تريـد قولـه ثـمّ لـم يسـعها حينهـا سـوى الرفـض، تبـادلا كلامـا كثيـرا، غيـر أنّهـا لـم تسـتلطف الـذّي يفعلـه وشـعرت بشـيء يتدفّـق إلـى قلبهـا بقـوّة تعاتبـه:

أعرف أنّك لن تقبل بشيء كهذا..

لا تجرّب حبّي على حساب غيرتك.

سـابقا كانـت رودينـا ترغـب فـي الاعتـراف بطبيعـة العلاقـة الّتـي كانـت وتيـم، فـي حيـن كان يونـس دومـا يهـرب مـن مسـار الحديـث فـي الموضـوع، وكان مـن الأحسـن عـدم ذكـره..

- أنت شريكتي لوحدي. هذا ما قاله بعدها.

بقيـت فـي غرفتهـا، اسـتلقت علـى فراشـها، أرادت أن تتحاشـى الرجـوع للحديـث فـي الموضـوع، اسـتدارت ثـمّ تنهّـدت وهـي تراقـب هطـول الأمطـار مـن النّافـذة القريبـة مـن سـريرهما وردّت مشـيحة ببصرهـا نحـوه:

بعـد سـنوات مـن انتظـار السّـعادة فـي خضـمّ ظـروف قاسـية رزقـت بـك، لا مـكان لغيـرك وليـس بقلبـي سـواك.

***

كان تيم منذ ذلك اليوم يغادر البيت بعد رجوعه من العمل، في حين كانت لقاء منزعجة من ذلك، تنظر إليه باستغراب، يحاصرها الشّـــك.

مرّت أيّام عديدة والوضع يزداد سوءا، في هذه المرّة حين رحل من الغرفة متّجها نحو الخارج، تنهدت في ألم وركضت وراءه لتصدّ الباب في وجهه بتكرار، تجمّعت في عينيها الدموع ونظرت إليه وقالت في حزن:

ما بك تيم؟ ما الذي يزعجك؟ لمَ تتجنّبني؟ لمَ ولمَ..؟

استمرّت في إلقاء اللّوم، تعاتبه وتمسح دموعا سقطت على وجنتيها، رمقها بنظرة غضت أمسكها بقوّة ليبعدها عن طريقه ثمّ غادر، بعد ذلك تراجع خطوات للوراء وقال: أنا آسف، ثمّ تركها دون أن ينطق بكلمة أخرى، انزوت جالسة على ركبتيها، مكثت كذلك بعض الوقت ثمّ قامت وأغلقت الباب وحاولت اجتياز الأمر، لم تهدأ وظلّت طيلة أيّام في قلق إلى أن بدأ في الرجوع عن أسلوبه.

***

وأخيرا.. ستفتح مدرسة رودينا للفنون تديرها هي، التي ستضم قسمين للفن التشكيلي تشرف عليها كذلك، وأقسام أخرى للعزف على البيانو، العود، الماندولين.. وقسم الباليه بأساتذة في المجال وقسم القيثارة لم يفتح بعد لغياب المتخصّص، قضت تلك الأيّام كلّها في العمل رفقة زوجها على نجاح ذلك، كان يونس يدعمها بكلمة، يرمقها بنظرة حنان وعناق اشتياق، فنما في داخله شعور العودة للحياة ولمواهبها.

فـي الخامـس مـن شـهر أكتوبـر، غـادرا لافتتـاح أوّل يـوم بالمدرسـة، كانـت تبعد حوالـي ثلاثـون متـرا عـن بيتهمـا، وذهبـت العائلتيـن بعدهـا لمشـاركتهما الفرحـة.. حيـن وقفـا علـى عتبـة البـاب سـحبها يونـس وضمّهـا ووشـوش فـي أذنهـا: أقسـم بأنّـي سـأحاول فعل كلّ مـا يسـعدك مـا حييـت حبيبتـي.

تنفسـت بعمـق ثـمّ رفعـت رأسـها ناظـرة إليـه وفـي غمـرة حـبّ خرجـت عـن صمتهـا: لحسـن حظّـي وجمـال قـدري رزقـت بـك، معـك وفقـط شـعرت بالأمـان.

"إذا كان نصفي مقيم فيك، فكلّك أنت فيّ كاملا بلا نقوص"

بعض الأشخاص كالعمر لا تتكرّر..

منـذ البدايـة اعتـرف يونـس لرودينـا، آنـذاك حيـن كان أسـلوبه، اهتمامـه مختلفـا، لـم تتوقّـع للحظـة أنّهـا سـتدير ظهرهـا للماضـي وتتقـدّم باتّجـاه الحيـاة، قـرّرت البـدء ثـمّ اسـتولى الحـبّ علـى قلبهـا مجـدّدا.

فـي ذلـك الصّيـف، خـلال الأسـابيع الأخيـرة قبيـل عقـد قرانهمـا، كانـت عائلـة يونـس تتأهّـب للإقـلاع نحـو تركيـا فـي حيـن لـم تسـتطع ظـروف زينـب السّـماح بذلـك، لكـن الأيّـام كان تنسـج لرودينـا طريقـا للقائهـا وأختَيْهـا مجـدّدا.

بعـد ذلـك بالنسـبة لرودينـا كان كلّ الحـزن المتراكـم يتلاشـى علـى نحـو غيـر متوقّـع.

"قلت لك ذات مرّة أنّك الحقيقة الوحيدة الّتي جعلتني أشكّ في قسوة الحياة"،

كانت بضع كلمات ردّ فيها يونس على رسالة رودينا في ذلك الصّباح.

لا أدري هل لازال هناك أشخاص تبعثهم المواقف في ممرّات الأقدار الصعبة لتعيد ترتيب ما تركته الفوضى بالقلوب!

في يوم كانت تراقب حركة يمناها، تتابع انحناء قلمها على الورقة وهي ترسي بغرور وهدوء وثقة، حاولت الهروب بنظراتها قدر المستطاع إلى ورقة أخرى وتعود تنهّدت بقوّة وهي تتعرّف على تفاصيل تشبه ما تحمله لوحات أحرقتها منذ أكثر من خمس سنوات مضت، لكن بأقلّ احترافيّة (صورة تيم بأيادٍ أخرى)

من ابنة تحمل عمر سنين الوجع.

انتبهت روزين لمراقبة رودينا لها، فهتفت وهي ترسم ابتسامة: هل أعجبتك؟

تصنّعت عدم الانتباه وردّت بهدوء: من ذاك؟

بابا تيم يحبّ كثيرا حين أرسمه، أجابت في سعادة.

كما توقّعت، ما أصغرها من دنيا، كيف يكون الشّخص وكيف تسقطه المواقف.. بالنسبة لها أصبح تيم مجرّد تجربة غير حقيقيّة، لا تستحق شيئا من الذكرى.

وذلك ما ظنته رودينا نهاية شيء جميل، كان بداية أجمل

البقاء في صفحة خاب الظّن فيها، تكشف كلّ نقاط الضّعف، إهانة للنّفس.

كان حاضرا على الدّوام في أيّامها السيّئة، حين انطفأ الشعور وبدا أن القلب في حالة تلف، كان السّند والوطن.

مرّت السّنوات ووداع بلقاء آخر..

أحيانـا تحـدث أشـياء، تسـتهلك الكثيـر مـن الوقـت، قـد تتقـدّم بنـا باتّجـاه غيـر آمـن وتوقعنـا حيـن نصـل إلـى مسـافة تصعب حينهـا العودة..

هكذا هي الحياة، تعوّدنا على أشياء لتسلبها حين تريد معاقبتنا بالحرمان.

"لـم أتمكّـن وقتـذاك أن أردّك إلـيّ"، تعالـت بداخلـه صرخـة مبتـورة حيـن ردّد ذلـك وهـو يـرى سـعادته فـي كنـف غيـره.

البداية صدفة والنّهاية غريبة..

كان ذلك كلّ شيء

أن تجد شخصا يحبّك،

يتقبّلك كما أنت بكلّ حبّ

تكشف ضعفك أمامه

يتجاوز الاختلاف ويفهمك

يخاف عليك..

يريدك، يحتويك

يدعو الله من أجلك

يكسوك بدفء كلمة حين تعرّيك الظّروف

لا يخطئ في قراءتك

لا اعتذار بينكما ولا تبرير

لا يرحل ولا يغيب ولا قدرة له على إهمالك

شخص يشبه الميلاد في وجوده

والموت في غيابه..

ثالث الحقائق الّتي تحدث لمرّة في الحياة

شخص أبعد من أن يكون مجرّد صدفة.

بدأ معك الطّـريق وبقى بروح تلتمس الوفاء

لا يعرف ممرّا للنّهاية..

هو البداية في كلّ مرّة

اليوم ودائما معك

يأتيك بحبّ لا ينتهي.

أتممت آخر صفحة من روايتي، تركت بين طيّاتها أجزاء منّي، أحسست في هذه اللّحظة التي أضع فيها آخر نقطة بالرغبة في البكاء.

ألقيت بداخلها حزنا كثيرا ومشاعر صادقة؛ فعلى الكاتب إحداث ضجّة في القلوب ليشعر كلّ من يقرأه بالانتماء.

قد تنزل منه دمعة أو يبوح عن صرخة كان يكتمها..

يركض بين حروفي خوفا نحو النّهاية ليغفو على اطمئنان

لا أخاف من وصف المشاعر على حقيقتها أكثر.

لا أخاف أن أموت بها وأكشف تعانيه من ضمور

أقلامنا اعتادت السّير باتّجاه موجع دون بهتان

قلوبنا تتأرجح على حوافّ الآلام

لا يمكن للخيانة أن تختبئ في زاوية كتاب

يرهقني الحذر في الكتابة ولا أعرف سوى أن أكون وفيّة.

بالنّهاية

عندما تدفع به إلى أقصى حدود الحبّ..

لا تؤذي من أحبّك

إهـــــــداء	06
♦المقدّمـــــــة	09
أنـت روايـــــة	12
فارغين من كلّ شيء	34
الفصل الأول	41
بالصّدفة التقينا	42
الصّباحات الممطرة	53
نسمة هواء متهوّرة	69
أغار عليها	82
أوركسترا الشّوق	94
تعال قليلا	107
في طيّ الغياب	124
غربـــــــاء	139
شبح الانتظار..	149
أماكن مظلمة	157
لم تسأل عنّي	168
كسرت قلبي هذه المرّة	178
لا يكفي الاعتذار	186
الفصل الثّاني	193
عن أيّ كرامة تتحدّثون ؟	195
تبّا للرسائل	205
على وشك النّسيان	215
تغريدات على صفحة نسيان	234
لطفا لا تحزني	235
لا أحد يستحقّ	255
وداع الياسمين	262
الحبّ الثاني	274
بالنّهاية	289

تم بحول الله وقوته

للنشر والتوزيع والطباعة واقتناء الكتب يرجى التواصل معنا:

مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

المثقف
للنشر والتوزيع

الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com

☎ هاتف / فاكس 79 47 80 033 / 19 04 68 0770

واتساب/86 73 49 0675